الطبعة الثانية

عبد الوهاب الحمادي

لا تقصص رؤياك



رواية

المركز الثقافي العربي

المشروع

عبد الوهاب الحمادي

لا تقصص رؤياك

عبد الوهاب الحمادي

لا تقصص رؤياك

رواية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

لا تقصص رؤياك

تأليف

عبد الوهاب الحمادي

الطبعة

الثانية، 2015

عدد الصفحات: 240

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-699-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إهداؤه إليها :

إلى (ن) التي قالت لي كن فكنت

إهدائي إليها :

إلى (ن) التي قالت له كن فكان

تنبيه: إن كنت تنوي قراءة الرواية لمرة واحدة يرجى قراءة التوضيح في صفحة (235) لفهم أفضل. أما إن كنت ستقرؤها أكثر من مرة فأرجو أن تبدأ بالترتيب الطبيعي.

1

لن أنسى كلمة نواف التي لم أره بعدها . . .

«لو كنت أعرف أن طريق النساء يقودني إلى مثل هذه النهاية لما سلكته».

أحاول قدر المستطاع أن أروي الحكاية كما شهدتها، قد أنقص منها قليلاً . . أو أزيد، مَن منّا يروي الحكاية نفسها مرتين؟! طبعاً أعتبر كلّ ما أكتبه، مسودة قابلة للتنقيح وليست نهائية، وفي القادم ستعرفون لماذا أقول هذا الكلام.

جميعنا يطارد حلماً، بعضنا يدركه وبعضنا لا يفعل. وأنا مثل الجميع لدي حلم، بل أحلام قد تبدو للبعض ضئيلة وقد تبدو لآخرين عظيمة، لكن حكايتي التي أرويها ليست بسبب حلم طاردته، بل بسبب حلم طاردني!

أبدأ بسرد طريقي اليومي للعمل وأفتتح به الكتابة، فمسألة أن أسرد اسمي واسم عائلتي وكل بياناتي الشخصية في صدر الرواية أمر دارج ومكرَّر ويُستحب التغيير كما أخبرني عبدالوهاب الحمادي، وسأخبركم عنه لاحقاً.

«لا أنتبه ليومي الذي ابتدأ إلا عندما أرى السيارات متراصة أمامي ومن حولي على الطريق الدائري الثالث، لا أرى أي أثر للإسفلت، مؤخرات سيارات بمختلف الأحجام والألوان فقط. حتى الحمام الصباحي وابتساماتي التي أنفقها وأنا خارج من المنزل تبدو كحلم. أختلس النظر لعناوين الصحيفتين بجانبي، أحاول تخمين مواضيع مقالات الصفحات الأخيرة من عناوينها. أحياناً تطول الاختلاسة فلا يقطعها إلا بوق سيارة من خلفي، فأرجع إلى صوت عبدالله الرويشد: أنا مو ولهان أنا، أنا دنيا من الوله. فأصرخ معه: محتاجك أبيك! أسدِّد نظرة للفتاة التي في الجيب الأبيض بجانبي وهي مُمْسكة بهاتفها. رمتني بنظرة دافئة أتبعتها بجرعة قهوة من الـ (mug) لأبقي على دفئها. طوال الطريق لا أذكر أني وضعت قدمي على دواسة البنزين، بل إن قدمي لم تتزحزح عن الكابح حتى أصابها شدٌّ آلمني. عندما أرى برج التحرير يكبُر ويكبُر أعلم أنني اقتربت من عملي. أدخل إلى المواقف العمومية وأبحث في الأدوار عن موقف شاغر وينتهي البحث دائماً في زاوية بعيدة عن السلَّم والمصعد المعطّل دائماً، فأنزل الدرج الإسمنتي مخترقاً روائح البول الكامنة في الزوايا، وعندما أقترب من العتبة الأخيرة أتذكر الصحيفتين على المقعد بجانبي فأرجع لآخذهما. عند المدخل أقف قليلاً مع عم إسماعيل مادّاً له سيجارة يرفضها.. وتشتعل في فمه وهو يرفضها، ننفخ الدخان في الهواء ثم أعبر الممرّ الطويل، وصولاً إلى سلم الرخام الأخضر الملتوي الصاعد إلى الدور الأول حيث يكمن مكتبي. هي قاعة كبيرة فيها مكتبان أحدهما لي، والآخر لزميلي مبارك المجريطي. وأمامهما حواجز

متقاطعة بطول القامة تفصل مكاتب الموظفين والموظفات. أنتظر فنجان القهوة التركية الوسط من يد الصبي البنغالي. أفكر في تدخين سيجارة قبل أن تأتي الموظفات وضجيجهن يسبقهن، فالرائحة تنفذ عبر الجدران الرقيقة والأصوات أيضاً. كل يوم يتحدّثن كخادمات التقين بعضهن لأول مرة في بلد غريب. كل واحدة تتحدث ولا أحد يستمع، يخضن في كل حديث يمكنهن الخوض فيه. أقمن سوقاً صغيرة فيما بينهن لبيع البضائع والحكي والنصائح المثالية في كيفية معاملة الزوج وأمه وأخواته التي تنتهي بنصائح ساخنة جداً تجعلني أنادي البنغالي ليفحص تدفق الهواء عبر المكيف الذي اختفى فجأة. إلا أنني يجب أن أنبّه أن الموجودات هنا لسن كلّ الموظفات فاللائي يأتين لأسابيع معدودة يختفين أيضاً لأشهر، ولا أتذكر وجوههن فهي مختبئة خلف قطعة قماش سوداء، الرواتب تتكدس في أرصدتهن شهرياً، كل مجموعة تخصّ نائباً من نواب الحناجر في مجلس الأمة؛ لقد أكلنا هؤلاء القوم، واحتلوا كلّ ركن في الوزارات والدوائر الحكومية بأقل عائد على الدولة، مجرد أفواه تأكل ولا تشكر. مرة قالت لي زميلة جاءت لعامين واختفت: هذه هي الطريقة الحديثة والمطوَّرة لتوزيع دخل الدولة النفطي على الناس. وزّع الشيوخ في الماضي المال في أكياس قماشية والآن يبعثرونها عبر أجهزة الصرف الآلي. وقالت أشياء أخرى سأذكرها في مكانها. يستلمن الرواتب في بيوتهن أو في دولة مجاورة، وكثير من الموظفين يفعلون ذلك دون أدنى حياء مستفيدين من جنسيات الدول الأخرى التي يمتلكونها، كل شيء في حياتهم كسب ومكاسب لا يجوز التفريط بها. طبعاً لو أردت لجلست في

المنزل وسافرت من بلد إلى بلد، فلدي من المال ما يكفل لي حياة رائعة، لكن للعمل أولوية في حياتي، لست منضبطاً ومثالاً يحتذى به، لكني أؤمن أنّ العمل عمل، ولن نهرب منه إلا إلى القبر!

عملي باختصار هو: دراسة المناقصات المقدّمة لنا في الإدارة وإعطاء الرأي الفني فيها. وهذا شأن سأتحدث عنه في القادم من الحكاية.

بعد أن تبدأ نسوة الإدارة بالصراخ والنقيق، يتكاثر في زاوية أخرى أربعة زملاء يزيدون أحياناً أو ينقصون، لا أحب الاختلاط بهم. وأكتفي بالسلام من بُعد بإشارة من يدي. ينتظرون وصول مبارك ثم يجتمعون في مكتبه، أحدهم يحضر دلتين يومياً للشاي والقهوة، يصرّ على دعوتي لشربها فأعتذر. أعلم أن طعم القهوة التي يحضِّرها مميّز ويختلف عن تلك الباهتة التي نشربها في دواويننا، لكني ألمح في أسنانه الصفراء ضحكة استهزاء وسخرية لا أطيقها كنت أظن أنها بسبب التمر الذي لا أضعه في فمي إلا بعد أن أخرج نواته بيدي، الأمر الذي يجعلهم يمتعضون، وظننت لاحقاً أن قرفي من الفنجان المستعمل الذي يخرجه من وعاء مليء بالماء ليصب فيه قهوة لي هو السبب، لكني بعد تأمل وجدت أن العلاقة فترت بعدما أطلق سؤالاً في بداية عمله هنا أضحَك زملاءنا الذين من بيئته نفسها، وضحك معهم مبارك: إيش أنت من الطيور؟! يومها هززت رأسي مستنكراً سؤاله الوقح.

بعد أن أفلّل الجريدة حرفاً حرفاً، ينقمت صدري من الصور التي تصوّر نواباً يزعقون على الشيوخ والوزراء.. خاصة الوزراء

الذين ينتمون إلينا. لقد أكلنا هؤلاء القوم والمصيبة أن من بيدهم مقاليد كل شيء يقربونهم ويتخذون منهم مستشارين وجلساء.. وأصهاراً مثلما قالت لي زميلتي والتي من الأفضل أن أدعوها من الآن (ن) وزادت، في كل زمان سيف ومنسف. العالم كله يتقدم عدا هذه العقليات التي تحنّ إلى الصحراء. أختم الجريدة بمقالة الصفحة الأخيرة التي تشفي غليلي وتنجح في رسم ابتسامة على وجهي. بعدها أخرج اللاب توب من درجي وأبحر في عالم الأفلام بعد أن أضع سماعات الأذن حتى تحين صلاة الظهر، عندها أخرج مفتاح الحمام الخاص والذي جعلته لي فقط فالحمام لا يجب أن يكون للكل. هذه الدولة انتكاساتها كثيرة وأبسطها أنها لم تنجح في تعليمهم أبجديات الوطنية، ملابسهم لا تمتّ بأي صلة لملابسنا الكويتية؛ دشاديشهم ضيقة ذات أزرار متعددة عند العنق، وأطراف أكمامهم مغلقة بأزرار معدنية، ولحاهم تشبه لحى ملوكهم، ولا يكتمل هندامهم إلا بلبس الشماغ الأحمر، حتى لهجتهم يتفاخرون بكلماتها المستعصية على الفهم؛ يا حسرة على التعليم. كل مستجد لدينا في العمل أسمعه وهو يفخر بين زملائه بأنه اهتدى لمبنى الإدارة بصعوبة كأنه يدخل العاصمة لأول مرة، بينما يتبارون في ذكر تفاصيل التفاصيل لطرقات مدن مغمورة في دول قريبة ويقهقهون وهم يهزون فناجين القهوة، ولا ينسى الممسك بالدلّة أن يسدِّد نحوي نظرته التي حفظتها ويتبعها بابتسامته الصفراء ويتسرب من بين أسنانه سؤال: فنجان؟! الساعتان المتبقيتان أقضيهما في الفيس بوك أتجول بين الصور ومطالعة الرسائل التي تأتي من الأصدقاء ومجموعات البريد، ثم أتأكد من إقفال درجي لكي لا يسرق أبناء الحرام شيئاً؛

فقفل باب المكتب يحتاج إلى إصلاح منذ زمن ويستسلم إن فتح بعنف. والدرج وإن سرق فتعويضه سهل، الخوف كل الخوف من سرقاتهم لأسماء عوائلنا التي باتت ديدنهم، حيث يبحثون عن جدٍّ لهم يحمل اسماً كأسمائنا وينتسبون إليه رغبة منهم في التغلغل بيننا. أخرج إلى السيارة صاعداً الدرج الإسمنتي مرة أخرى. عندما أغادر مبنى المواقف يكون قد صار خالياً من معظم السيارات فلا أحد منهم يهتم بإتمام ساعات العمل؛ مكان ملائم لموعد غرامي أو جريمة. الخط السريع ممتلئ مرة أخرى بالسيارات، لا أعرف لماذا يُعطى هؤلاء الوافدون رخصاً لقيادة السيارات! بل لماذا يعطون الحق في شراء السيارات بينما في دولهم لا يملكون حق قيادة حنطور؟! عند كل إشارة ضوئية عامل نظافة يقف بلباسه الأصفر القذر و«شماغ» أقذر يلفّ رأسه، يقترب مني وهو يبتسم ويسلّم، كل ما يريده ورقة مالية يقطفها ويختفي. يترك عمله الأساسي لربع دينار. أبدِّد الوقت بتقليب المذياع إلى أن أجد برنامجي الإذاعي المفضل الذي يسخر من هذه العمالة السائبة ومن بعض اللهجات العربية التي تستحق السخرية. عندما أصل المدرسة أقف بالقرب من عربة السوري بائع المثلجات، صار يحفظ طلبي، يحضر قنينة ماء وآيس كريم أبو ذهب وأدفع له بنصف دينار مع رد السلام، أغلق النافذة بانتظار عبدالمحسن ابني الوحيد، وقبلما أنهي ما بيدي، يندفع الطلبة من باب المدرسة، ينتشرون في كل مكان ويتسللون بين كل شيء ومن خلف المدرسين الأجانب والمدرِّسات الشقر، يبرز بطوله الذي أظنّ أنه ورثه من جد أبي.. أو من أخوالي، فأنا وأبي وجدّي لسنا من طوال القامة. يدخل السيارة صامتاً كعادته فأذكّره

بالسلام فيسلم سلاماً لا معنى له، وأحياناً يقبلني خاصة عندما يحضر شهادة فيها علامات مرتفعة فأهتف بوقار: نعم، هؤلاء أبناء الميلان. يشاركني الهتاف فرحاً لأنه يعلم أني سآخذه ليشتري الهدية التي يريد وغالباً ستكون ألعاباً إلكترونية. في المنزل وبعد أن أتحمَّم وأبدل ملابسي تكون نادية قد رجعت من البنك، فأقلب القنوات ريثما تضع الخادمة الغداء، فتطغى أصوات الملاعق على حوار يومي متكرِّر؛ تخبرني عن عملها وقصصها مع العملاء ثم تسرد لي برنامجها لهذا المساء، كل يوم يتبدل، نادي صحي يعقبه صالون في نهايات الأسبوع، حفلات أعياد ميلاد أو استقبال مواليد وأعراس وأمور لا أستمع لها في الحقيقة. فقط أهز برأسي وأصدر صوتاً ينمّ عن متابعتي؛ فمخي مشغول ببرنامجي المسائي. في المصعد أعبث بهاتفي، أستلقي على السرير لأقيل قليلاً. وقرب المغرب أتجه نحو الشركة أتصفح بعض الأوراق وأطمئن لسير العقود الإنشائية لساعة أو ساعتين ثم أقصد ديوان العائلة حيث أكون هناك يومياً، على العكس من أبناء عمي الذي لا يحضرون، بل يقتصر حضورهم على ليلتين في الأسبوع أو حتى ليلة. أستمع لمواضيع البلد الساخنة أو الباردة وما وراء الأحداث؛ ليست بالضرورة حقائق، لكنها دخان كأي دخان، الفرق أن دفء النار يدل على أنها قريبة من الحقيقة.
أنتمي إلى عائلة هي من أقدم العوائل وجوداً على هذه الأرض، ولوحة شجرة نسبنا في منتصف الديوان بجذعها البني الضخم وأوراقها الخضراء التي تحمل كل ورقة منها اسماً تتوسط صور أجدادي الزيتية المعلّقة على جدران الديوان، لطالما خرّجنا الوزراء والسفراء ووكلاء الوزارات عدا النيابة في مجلس الأمة، حاولنا عدة

محاولات ثم تركناه لغيرنا. عبر وكالاتنا أدخلنا الكثير من البضائع الاستهلاكية مثل الأغذية والمعلبات، قبل الاستقلال وبعده، وامتلكنا العديد من الوكالات التجارية التي لا يستغني عنها بيت، وتذكر كتب التاريخ أننا من أوائل مَن استخدم معظم منتجات التكنولوجيا في بيوتنا قبل الآخرين. عمّي هو الابن الأصغر لعميد العائلة صاحب الديوان ويدير شركتهم للإنشاءات العقارية، والمناقصات التي تتم في عملي له نصيب كبير منها بسبب صيته وسمعته التي اخترقت الحدود وشرّقت وغرّبت. هو ليس أخاً لوالدي، بل ابن عم بعيد، اعتدْتُ من صغري على مناداته بعمي وعندما كبرت صارت ابنته زوجتي فصار عماً حقيقياً ويثق بي. بعد أن يرحل الجميع أتوجه إلى مقهى بجوار البحر أشيّش مع أصحابي، نتبادل القفشات ونسخر من هذه الخيمة التي صارت وطناً. أو نتجه إلى مطعم من المطاعم المنتشرة في كل مكان، بعدها أعود إلى المنزل لأجد عبدالمحسن نائماً. ووالدته لم تعد بعد، فأتصل بها، وغالباً أعلق في الانتظار ريثما تنتهي من مكالمتها وتجيبني بأنها قريبة من المنزل. في الحالتين أتحمَّم من رائحة الشيشة التي تلبسني، أقلب القنوات بحثاً عن متعة ما. وبيدي الأخرى هاتفي، أمسح كل الرسائل التي قد تؤَوَّل تأويلاً خاطئاً وأنام. في بعض الليالي أشتاق إليها أو أجدها ملتصقة بي بصمت، أضع الهاتف جانباً وألتف ناحيتها فتضع هاتفها، لأنظر في عينيها، في تلك اللحظة يتقرر مزاج الليلة.. شقية أم سعيدة.. ثم ننام».

ما كتبته يمثل يوماً نموذجياً من أيامي لأعوام خلت، عدا عطلة نهاية الأسبوع التي تكون في الشاليه أو في يختي الصغير. أتوقف

وسط البحر وراء سوق شرق، أنظر إلى مباني المدينة وسأروي هذه التفاصيل في محلها. أيامٌ تمر بصخب كتلك الدراجات النارية التي تملأ الدنيا ضجيجاً ثم تختفي وتُنسى. قالت لي (ن) مرة: **الأسماك أفضل منا، فذاكرتها بعد ثوان معدودة تنسى كل شيء**. يومها قلت لها: **إنني أنسى كثيراً في الفترة الأخيرة** و. . .

سأروي هذا كله في القادم من الحكاية، أما إن تساءل أحد: لماذا كتبت شبه يومٍ من أيامك؟ فذلك مرده لإعجابي بافتتاحيات روايات أهداني إياها الحمادي. بعض ما أسلفت من آراء قد لا تعبِّر تماماً عمّا أعتقده حالياً، وبذلت جهداً لكي أستحضرها، فالإنسان غالباً يتناسى كل ما يذكره بقناعاته السيئة، وفي القادم ستعرفون لماذا وكيف تغيّرت بعض قناعاتي. أهم ما يجب عليّ أن أكتبه هو ما حدث لي في المنام، وهذا هو الأهم إذ عليه مدار الحكاية؛ عندما أصحو فزعاً من كابوس طاردني لفترة طويلة. . . سأقصه عليكم بعد قليل! أعلم أنه قد طفح الكيل، كل شي سيخبرنا به بعدين وبعد قليل ولعلي أكثرت من التسويف. . فماذا نقرأ الآن. . .؟! أو لماذا لا تقصّ قصتك علينا الآن وترحمنا وتحفظ أوقاتنا؟ سأجيب هذه المرة باختصار: لزيادة التشويق! فالروايات الكويتية - كما أخبرني عبدالوهاب - تعاني أولاً من انعدام متعة التشويق. . مجرد وصف لمشاعر. قال الحمادي: أهم شيء في القصة أن تحتوي على قصة! وشرح ذلك سأذكره في الفصل المخصص! وثانياً: اممم نسيت السبب الثاني حالياً، وعندما أتذكره سأذكره لك.

2

فصل: الكابوس وبداياته ومحاولاتي لتأويله أو تفسيره ولقائي بأحد المشاهير في تفسير أو تأويل الأحلام

فيما مضى من عمر لم أُلقِ بالاً للأحلام ولا لوجهها الآخر.. الكوابيس، وبطبيعة الحال لا أكترث للأبراج وأكره الغيبيات بشدة، أؤمن بالـ (cash value)، ما هو أمامي هو فقط أمامي، الغيبيات للإيمان فقط؛ ملائكة وجن وما إلى ذلك.. لكني كغيري أحب الأحلام التي تأتي بمن أحب من ممثلات، فأنا أحب السينما كثيراً. وأيضاً كالآخرين أكره الكوابيس التي تجعلني أفزّ من نومي مرتعباً، وأمتعض ممّن يروون كوابيسهم للآخرين بكل فرح ممكن. هناك كوابيس ما زلت أذكرها وأخرى تلاشت وبقيت منها صور مبهمة، لعلّ أكثرها إلحاحاً عليّ هي أنني أجري وأبراج الكويت تنهار من خلفي وأصوات القنابل تأتي من كل جهة، وكرات الأبراج الزرقاء تطاردني ثم تسحقني. هذا المنام لا أذكر متى رأيته، هل جاءني قبل الاحتلال العراقي أم بعده؟ كلّ هذه المقدمة لأخبركم أن الكابوس الذي يطاردني من نوع مختلف. نغمته

الأساسية واحدة ويتمّ التنويع بها. حاولت أن أعاكس الهجوم الذي أتعرّض له من الكابوس، فخير وسيلة للدفاع.. الهجوم. توقفت عن مشاهدة أفلام الرعب، اكتفيت بوجبة عشاء خفيفة، حاولت العودة إلى عالم القراءة، فبدأت برواية كل الأسماء التي أهدتني إياها (ن) قبل أن تغيب، لم أستطع أن أنسجم معها، بين كل سطر وسطر أسرح. فتركتها وصرت أكثر من الدعاء وقراءة المعوذات وآية الكرسي وسلكت كل طريق قد يقودني إلى تفسيره كي يتفكَّك ويتحلَّل ويذوب ويختفي، لم أفلح. راجعت نفسي لعلي تسبّبت في قطع رزق أحد أو ظلمت موظفاً أو خادماً، زدت رواتبهم، وأنفقت مالاً لأعمال الخير وغيرها، ولم أفلح أيضاً. لم يتوقف الكابوس عن الهجوم عليَّ ليلياً، كلما استيقظت أحاول تذكّر وجه من أرى في منامي فيستحيل ضباباً ويلتبس بوجوه أعرفها ولا أعرفها، في ليلة عنّ خاطر على بالي: ماذا لو أنّ من أراه في الحلم هو أحد أصدقائي أو معارفي القدماء؟ فتحت ألبومات الصور، دقَّقت فيها، وجدت من حولي أصدقاء مقربين وآخرين نسيت أسماءهم أو صوراً عجزت عن تذكُّر مناسبتها أو مكانها. اشتبهت بواحد منهم حاولت تذكر اسمه فلم أستطع، مرَّرت الصورة لبعض أصدقائي فتذكّره أحدهم ووعدني بأن يأتيني برقم هاتفه. اتصل بي بعد أسبوع ليخبرني أنّ مَن نبحث عنه توفي أثناء رحلة علاجه من مرض خبيث. لحظتها تنفست الصعداء، إذاً هو من ينتظرني في منامي لسبب أو لآخر. في المساء عندما وصلت مكتبي في الشركة، فتحت الـ (spam) في إيميلي لأمسحه، ففوجئت باسم! هو نفسه

اسم الرجل الذي في الصورة ومن صار الآن تحت التراب. صرت أقفز من سطر إلى سطر، الرسالة بعثها منذ شهرين من مستشفى في بريطانيا، يذكِّرني بهويته وأنه عرفني في آخر صف في المرحلة المتوسطة، ويطلب مني مساعدة مالية بسبب ظروف قاهرة ألمَّت به وهو في العلاج. ضيق صدري من تلك الرؤى أتعبني والتأويل الذي فاجأني تفسيره أشعرني بذنب ليس لي فيه يد. ليتني شاهدت تلك الرسالة قبلاً وساعدته. بكيت ولم أخبر أحداً بشأنها، وكتبت شيكاً تركت فيه خانة الاسم خالية حتى أتيقَّن من اسم زوجته إن كانت له زوجة، أو حالة أهله المادية ثم أقدِّمه لهم. في تلك اللحظة شعرت بالهواء وهو يدخل رئتيّ كأنني أتنفس لأول مرة. لأسبوع غابت عني الكوابيس ففرحت، لكنها عادت أشدّ من ذي قبل رغم أن والدة مَن توفي استلمت الشيك وصرفت المبلغ. أثقلني همّ المنامات التي تتربص بي كل ليلة حتى أنني لم أجد مناصاً من الاستعانة بذلك الشيخ البدين الذي لا ينزع عن جسده البشت واتصلت به، وسأخبركم بعد قليل كيف وصلت إليه وماذا حدث. ولم أترك الأمر بيده أيضاً، بل استشرت دكتوراً في علم النفس وآخرين سأخبركم عن بعضهم، وزودني الأصدقاء بكتب لتفسير الأحلام لم تزد الأمر إلا غموضاً.

يقول الناس أنك تستطيع الهروب من كل شيء في الدنيا عدا الموت، ولم ينتبه أحد إلى أن للموت شقيقاً أصغر وهو النوم. . الميتة الصغرى، لن يمكنك الإفلات منها. عندما يغلق المنام عليك بابه وتغرق في ظلامه يفتح لك من الجهة المقابلة باب الأحلام.

فكيف تهرب من النوم؟ في النهاية تسقط في شركه وتجد الكوابيس تنتظرك وأنيابها تلمع في الظلام. تبدأ من مكانٍ ما، في زمنٍ ما، تجري الأحداث في فسحة تتداغم عليها الأزمان والأمكنة. في تلك الميتة الصغرى لا وجود للموت؛ الكل هناك، الأموات قبل الأحياء، البعيد قبل القريب. في تلك الميتة الصغرى كلهم يأتون ويذهبون دون إذن، تدخل على أزمنة نسيتها تماماً أو لم تعِشها، وأماكن تحفظها، لكنك تراها بعين جديدة وأخرى لم تقربها قط ولا وجود لها في واقعك.. فقط هي موسومة في أحلامك. للرؤى كون آخر!

«**مستلقٍ.. ظلام ولا أثر لأي ضوء. بعد تحديق.. ألمح نقاطاً مضيئة متناهية الصغر، فأستوعب أنها.. السماء، تتراقص النجوم وتتحرك، فجأة ينشقّ الظلام عن وجهٍ.. مألوفٍ مرتعبٍ «سيقتلونني» يصرخ ثم يهيل التراب عليَّ ويردم القبر.. حتى أختنق وأفزع من النوم**» هذه هي الصيغة التي ارتكز عليها الكابوس الذي لا يترك أسبوعاً دون أن يهجم. مرة ربضتُ أراقب من يهيل التراب وفور أن يسويه تأتي بومة بيضاء، ثلجية، تقف على القبر وتنعب.

لا أسترجع تماماً المرات الأولى التي أتاني فيها، فقط أذكر أنني أفزع من النوم لأجد نادية تصرخ من الفزع بجانبي وتقول: **ما بك؟** أتذكر أن صدري فارغ بلا هواء، أحاول أن أتنفس فلا أستطيع: **جاثوم؟!** فقلت لها: **يبدو ذلك!** ثم ترجع إلى النوم. مع تكراره، مرة، ناولتني كأس ماء وسألتني على غير العادة: **ماذا ترى؟** تردَّدت في الجواب، ماذا لو أجبتها ثم ذهبت لتعرف تأويله

عند معارفها وجاءت بتفسير يصدمني؟ فقلت لها: **أرى نفسي أتدلى من غصن شجرة فوق جبل، ينكسر الغصن وأسقط في الوادي.. وأموت.** على الغداء جاءتني بصحيفة وهي تشير إلى صفحة تحتل ربعها صورة شيخ بوجه مستدير ولحية مشذَّبة، يحاول الابتسام، وأسفل منها تتالت أسئلة القراء، كل يسرد حلماً والشيخ يجيب إجابة مقتضبة. أخذت الصحيفة معي فوق الفراش. هذه الصفحة لم أكترث لها قبلاً. الأسئلة غالبها من نساء، وهذا ليس بغريب، النساء هنّ زبائن المشعوذين. نادية تدمن كتب الأبراج، وفي الآونة الأخيرة صارت تشتري كتب تنجيم وأبراج باللغة الإنجليزية عبر الإنترنت. المشترَكات كثيرة بين أحلام النساء حسبما لاحظت في موقع الشيخ الإلكتروني، ترتبط أحلامهن غالباً بالزواحف، وتفسيرها يختلف حسب الحلم، لكنه ينصبّ في خانة أن ثمة حاسدة تتربّص بها وبأولادها و.. بزوجها. صار وجه الشيخ في الصحيفة مطبوعاً في ذاكرتي، لا أدري لماذا؟ أهي الرغبة في إيجاد تفسير للمنام؟ أم أنها الرغبة في دخول عالم مجهول تماماً بالنسبة إليّ؟ في أسفل الصفحة إعلان لخدمة رسائل هاتفية يشرف هو عليها، فكرت بإرسال حلمي إليه، لكني وجدتها لن تشفي غليلي، طفقت أبحث عبر الإنترنت عن رقم هاتفه كي أتصل به وأقابله، لم أجد شيئاً، وأنا مُحرَج من طلب رقم هاتفه من معارفي خوف تهكّمهم. لذا بدا مساء غريباً كالحلم؛ توقَّفت عند مسجد جمعية الشامية، مواقف السيارات ممتلئة، فركنت سيارتي كيفما اتفق ونزلت، أطرب لصوت إمام هذا المسجد، يذكِّرني بصوت صديق

لوالدي متوفى منذ زمن وابنه كان صديقاً مقرباً. صفوف المصلين الثلاثة الأولى ممتلئة، فوقفت في منتصف الصف الرابع لوحدي، كبَّرت وانسجمت مع طبقات صوته التي تعلو وتنخفض، كأنما رُزِق حنجرة عبدالباسط، يرتِّل سورة يوسف التي أحبها، جلستُ لتشهد الركعة الأخيرة، عندما سلَّمت عن يميني وعن شمالي، رأيت وجهه، الشيخ يسلِّم بقربي، ابتسامته طبق الأصل عن تلك التي في الصحيفة. عندما قام أسرعتُ خلفه وعند باب المسجد الداخلي سلّمت عليه.

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..».

رد السلام القصير بسلام كامل، حسبته سيتملص مني، لكن وجهه بدا متهلِّلاً كأنه ينتظرني، بل ويعلم عمّا سأسأله حتى شككت أنه مجرد حلم آخر، ولِمَ لا يكون؟!

«والنعم...».

كانت لكلمة والنعم التي أعقبت اسمي وقع مدوٍّ، حتى أنني التفتُّ لعل أحداً ينظر إلينا.

«أنا أعرف عمك يرحمه الله، زاملته في المرحلة الثانوية، ودرس معي في القاهرة ثم أكمل في أميركا».. تردد قليلاً **«أنسباؤك هم.. ؟»** حاول التذّكر، فساعدته.

«من أهلنا، الميلان، خالد عبدالمحسن الميلان».

طبعاً.. أعرف وقْع هذا الاسم تحديداً على عيون كثيرة، على الرغم من أنه تمالك نفسه إلا أني رأيت في عينيه أرقاماً تتصادم.

مدَّ لي بطاقة بيضاء يتوسّطها اسمه وعلى جانبها الآخر عنوان مكتبه، وضعتها في جيبي.

«يا ولدي حياك في أي وقت، عيال الميلان أهلنا».

ظلَّ دفء مصافحته يسري في يدي حتى بعد أن أمسكتُ بالمقود. اتَّجهت نحو ديواننا. سلكت أقرب الطرق وكنت لا أدري أن حياتي سلكت طريقاً طويلاً آخر.

وكيل النيابة

أكره هذه الوظيفة، كُثُر يحسدونني عليها. فهي المال والسلطة والمكانة الاجتماعية التي يفزّ لها مَن يفوقونني عمراً في الدواوين، ويسلّمون عليّ لا لشيء إلا لحاجتهم إليّ يوماً ما، لكنهم كلهم وأنتم كذلك لا تعرفون وتشعرون بالقرف الذي أواجهه فيها. فبينما يكون أحدكم مندساً في فراشه يتمرغ في الدفء، أعاين أنا جثة لهندي انتحر ويده قابضة على رسالة تركها لأبنائه تحكي عيشة ضنكى أنهت حياته. عندما أعود من هكذا مأموريات، أحدِّق بالسقف، أغطي وجهي بكتاب مفتوح، أغمض عيني لأجلب النوم الذي يفرّ. أسرح في عالم أحلامي القديمة؛ أن أغدو روائياً، أنشئ بطلاً من عدم، أمنحه حكاية تاريخية يتوه فيها حتى يصل بي إلى النوم. يجافيني الرقاد، أتبع خط سير حياتي وهو يعرج إلى المنصب الذي ادّخر والدَي معارفه وعلاقاته حتى قُبِلْت فيه بتوصية ثمينة قوامها كلمتان: هذا ولدنا! مع التبريكات أدركت أنني أسير قضبان وظيفة يحرَّم على ممارسها نشر أي نتاج أدبي، فرجعت إلى ملاذي القديم.. منتديات الإنترنت، ورجعت إلى الأسماء المستعارة. حتى لو أفلتُّ من سجن الوظيفة فستكون أثقال اسم العائلة مربوطة في رجليّ لا أستطيع جرها. لا شيء أسخف من كلام الحكماء في الكتب عن قدرة الإنسان على قهر الصعاب.

أنهض من الفراش فالنوم لن يقدم بسهولة، أذهب إلى مكتبتي، أفتح الباب بهدوء لئلا أزعج الكتب. كانت مكتباً لوالدي أهداني إياه فور قبولي في كلية الحقوق. حيطانها الأربعة امتلأت بالكتب والمجلدات. صنَّفت كل خزانة حسب ما تحمله من عناوين. أشعل ضوء القراءة فتنسكب بقعة ضوء تتسرب أطرافها وتتسلق الخزانات القريبة وتمسح على عناوين المجلدات الذهبية التي جمعتها طوال حياتي، رغم أنني أعشق القصص والروايات إلا أنّ حصتها في محيط الكتب قليل، الغلبة لمجلدات التراث، هي من تأخذني لعالم أعرفه أكثر من معرفتي بهذا العالم المحيِّر؛ يحسب العامة أنّ مَن صنَّف تلك الكتب أموات، لا وربي هم أحياء، ولكن الجهلة لا يعلمون. أفتح دفَّتي كتاب فأرتحل عبر الزمن وليت الدفَّتين تغلقان عليّ وتتركاني هناك. أجلس على الكنبة الجلدية المجاورة للمكتب، أتمدَّد بعدما سحبت كتاب الأذكياء، هو أول كتاب اشتريته وأنا في الصف الثاني الابتدائي، أعجبني الغلاف المقوى والمذهّب الذي يماثل كتب أبي. يومها لم أعقل ما قرأت، بالكاد كنت أجمع الحروف وأنطق بالكلمات. صرت أمرِّر رؤوس أصابعي على الأحرف كأنما أقرأها باللمس. أتذكر قصة من قصص الكتاب لم أنسها؛ عندما خيّر عشيق عشيقته المتزوجة بين أن يأتيها أمام بعلها أو أن يفارقها، فانغمَّت ثم فكرت ثم دبَّرت ثم واعدت العشيق في بستان نخيل، وسارت مع زوجها فيه حتى بلغا نخلة باسقة، أرادت تسلّقها لتأتي بالرطب، رفض زوجها وعزَم هو على الصعود، جادلته، وتحت إصرارها وافق وتركها ترتقي الجذع

الطويل، عندما بلغت القمة وقطعت عذق الرطب، نظرت إلى زوجها في الأسفل وأمست تولول وتصرخ عليه: أتخونني أمام عيني؟! ذهل البعل وظنّ إنما هو الوهم. هبطت إلى الأسفل وطفقت تضربه بالعذق وهو يحلف لها أنه بريء وما مسّ أحداً. فطلبت منه أن يصعد، فصعد، ولمّا اقترب من القمة أشارت إلى عشيقها، فقفز من مخبئه وقضى وطره منها وفَرّ. عندما هبط زوجها صار يضرب الأخماس بالأسداس متعجباً وهو يقول: صدقتِ، من يصل إلى الأعلى يرى الأمور على غير حقيقتها. سأرجع الكتاب إلى مكانه وأخبركم بأكثر كتاب أثر بي، ما هو بظنكم؟ إنه ألف ليلة وليلة، مرة قال لي شيخ صوفي محبّ للأدب طلبت العلم عنده: إذا كان القرآن هو الوحي الإلهي، فإن ألف ليلة وليلة هو الوحي الإنساني. كلكم تعرفون شهريار وشهرزاد، وبعضكم شاهد مغامرات السندباد وهو طفل أو قرأ مختصر قصة علي بابا يوماً وغيرهما من القصص المشهورة، لكن قليلاً منكم، أقل القليل، أمسك بالمجلدات وقرأها من الجلدة إلى الجلدة؛ أهداني إياها أبي في المرحلة المتوسطة، قرأت أو سمعت في مكان ما، أن من يقرأ ألف ليلة وليلة كاملة يموت فور فراغه منها. تملَّكتني رهبة زالت بعدما نويت في نفسي أنني سأبدأ القراءة وعندما أقترب من النهاية سأتوقف. فتحت الصفحة الأولى ثم الثانية فالتي تليها، ثمة خيط في متاهة الحكايات المتداخلة يجذبني إلى النهاية وعندما اقتربت منها توقفت، أريد أن أكمل، لكنني لا أريد أن أموت. ذهبت إلى الفراش، لم أستطع النوم، أبطال القصة ينادونني، يريدون أن

يكملوا قصتهم. لن أموت، قلت في نفسي ومشيت إلى الكتاب الذي تركته على الطاولة كمن يمشي إلى منصة إعدام، طال الطريق، وأبعدت خرافة الموت بتساؤلات: ماذا عن الذي كتبها والذي طبعها والذي.. الأسئلة دوائر مغلقة تنتهي عند الكلمة ذاتها... الموت. أكملت القصة ومع كل حرف أحسّ بسم يجري في دمي، قبل الصفحة الأخيرة تملَّكني الخدر، فتحت الدرج وأخرجت ورقة بيضاء وقلماً وشرعت بكتابة وصيتي لأبي، ما أفرحني وما أحزنني، وجباتي المفضلة، أسماء الكتب التي لم يشترها أبي لي.. كل شيء، رجعت إلى الكتاب، قرأت الصفحة قبل الأخيرة ثم الأخيرة. قمت إلى فراشي وتمدّدت، أمسكت بالوصية أقرأها، أذكر أنني بكيت، فكرت بالذهاب إلى غرفة والدي وإخباره بمصيري، لم أذهب، طويت الورقة ووضعتها تحت مخدتي.. ونطقت بالشهادتين. في الصباح لم أصدِّق أنني على قيد الحياة، ربما أمهلتني الحياة يوماً جديداً. يوماً عقب آخر، نسيت الحكاية، تذكِّرني بها تلك الوصية التي حفظتها في صندوق كرتوني مع أوراق أخرى. لا تحضرني الليلة الأخيرة من ألف ليلة وليلة، فقط أتذكر ما جرى قبل أن يعزم شهريار على الفتك بالعذارى وصولاً إلى شهرزاد؛ عندما اكتشف أخوه خيانة زوجته مع عبيدها فقتلها وقتلهم وقصد مملكة أخيه شهريار لعلّه يجد عنده السلوى، ونزل ضيفاً عنده وحاول أخوه أن يسريه عن همه وقرر الخروج لرحلة صيد تنسيه المصيبة التي شهدها في أهل بيته، وعند باب المدينة اضطر شهريار للعودة إلى قصره لأمر ما، ففوجئ بزوجته

وهي تخونه مع عبيدها، فقتلها وقتلهم وخرج مع أخيه إلى البرية وهاما فيها، ثم رأيا جارية جميلة عند شجرة، دعت الجارية شهريار إلى نفسها، لكنه خاف من العفريت النائم بقربها، هددته إن لم يستجب فستوقظه، ثم جرى ما جرى، وأيقن شهريار.. وهنا النكتة (الفائدة): انتبهوا جيداً.. لا وفاء لامرأة قط! فمن عهدهن ألا يكون لهن عهد. هل أتجنى على هذا الجنس الواطي؟ لا أعتقد ذلك بتاتاً. فما أقوله من تجربة لا أضغاث أحلام ولا ككلام الحكماء في الكتب. ما الفرق بين الحلم والحقيقة؟ التذكُّر هو توأم الحلم، كلاهما مهما مدَدْتَ يديك فلن تقتطف إلا الحسرة.
سأخبركم عن ليلة لم ترد في ألف ليلة وليلة، وأرويها أنا لكم بدلاً من شهرزاد: كان يا ما كان، يُروى أيها القراء، في زمان ليس بالقديم ولا بالجديد، فتى يدرس القانون أحبَّ صبية بهية، شمساً مضيئة، النظرات بينهما صارت رسائل كتبها من روحه، سطَّر لها من حبر لغته لغة سخَّر لها معارفه وثقافته، صنع لها ما لا يُصنع ولن يصنع. هو يمتلك كما تمتلك هي؛ الاسم اللامع، لكنه فارغ من المال، صيت بدون غنى. هي مثله، لكن غِنَى بقية عائلتها كوَّن ظلالاً منعت عنها ما ألَمَّ بصاحبنا المحب من ألم. أخوها صديق عُمْر، عرفه منذ المرحلة المتوسطة، وحتى فرقّتهما الجامعة. عندما علم أخوها فرح بما يمور في صدر صديقه ولم يدَّخر جملة ترحيب إلا وكسا بها صاحبنا. ووعدته هي بتذليل الأمور، وغدت الدنيا أجمل، حتى الصيف لم يعد صيفاً، الحب قادر على تغيير المناخ.
فور تخرجه من كلية الحقوق وقبوله في وظيفة مرموقة، تقدَّم لها.

بعد تلكؤ وإطالة، رفضوه، اعتذر والدها وبرَّر بانشغالها بالدراسة فالطب صعب ويحتاج إلى تركيز. عاد الصيف صيفاً، بل صار جحيماً. أخوها صار يتهرب، بعد مماطلة، علم صاحبنا أن أحد أبناء عمها الأثرياء قد حادثهم بشأنها فأعطوه كلمة، لكنهم كتموا ما علموا ولم يفضوا لصاحبنا ولا هي فعلت، بل إنها ما أحسَّت بخيبة ولا تنهدت سافحة دمعة، تحدثت ببرود في آخر مكالمة مع الحبيب المتفجع وختمت كلامها بتمني التوفيق له. هنا أدرك شهريار الصباح. ما رأيكم بالقصة التي تحولت كابوساً يكبس على صاحبنا كل ليلة؟

3

فصل: الأيام التي فصلت بين لقائي به في المسجد وقبل ذهابي إلى مكتبه وماذا جرى هناك

اعتدتُ إن احتجت شيئاً أن لا أجده حتى لو قلبت الدنيا بحثاً عنه. وعندما تنتفي حاجتي إليه أجده مرتّزاً أمامي. وكذلك الحلم (الكابوس) الذي ظلّ يراودني ويوقظني طوال الليل، فجأة، خفت وكاد يتلاشى. لذلك أهملت مسألة مفسر الأحلام ولم أهتم ببطاقته.

«السماء سوداء، تتوسطها شمس بلا إشعاع، برتقالية، تقاوم ابتلاع الظلام.. الأرض صخرية، وحفار قبور بفأس يحاول أن يحفرها. ضرباته لا تحفر شيئاً ولا يخرج منها إلا الشرار. اقتربت منه مدفوعاً.. لم أشأ الاقتراب. ثمة كفّ خفية تدفعني دفعاً نحوه. حال بيني وبين الشمس التي بدت مثل قرص فيتامين سي الفوار. عندما التفَّ سدّد الفأس نحو رأسي فأطاح به وتدحرج على الأرض. بقيت نظرتي مصوبة نحوه وهو يحدق بجسدي الذي صار بلا رأس. اجتث رأسه ووضعه على جسدي ونزل إلى القبر. بدا الرأس ضخماً عندما دققت النظر في مرآة، أعرف الوجه.. إنه

الشيخ مفسِّر الأحلام، لم يكن يرتدي بشتاً. فقط إزاراً وقميصاً قطنياً داخلياً مثقوباً من عدة أماكن».

لم أحتج إلى وقت كثير حتى أقتنع أن هذا الحلم رسالة واضحة لا تحتاج إلى تأويل. بحثت عن بطاقته في محفظتي فلم أجدها، ليست على الطاولة ولا الأدراج، اختفت كسكر في شاي. عزمت على أن أطلب من الخادمة أن تبحث في الغرفة. كنت أغسل أسناني عندما طرق باب الغرفة، كانت الخادمة تمدّ يدها بالبطاقة المميزة التي كتب عليها: عبداللطيف الغسّال: مدير عام السندسية للاستشارات الشرعية.

نادية

هل هناك من يتبدل بين يوم وليلة؟ الشروق لا يأتي بغتة ولا الغروب، لكننا نحب أن نتصنع المفاجأة. منذ وعيت على الدنيا وجدت بسام حولي. لا أعرف كيف أصف شعوري تجاهه بكلمة أو اثنتين، إن كنت فاعلة، فستكونان: «شعور مختلط». قبل المراهقة، كنت أراقب من شرفتي وصوله مع والده، يسير في ظله. يدخلان، يجلس والده مع والدي. أقف في منتصف الدرج وأناديه فيُبدي خجلاً وتمنعاً، لكن والده يشجعه. أحب أن أشركه معي في ألعاب البنات ونثرثر سوية. يرافقنا كل صيف مع والده إلى لندن، يرجع والده إلى الكويت ويبقى هو، يذرف دموعاً لساعات ثم ينسى ونضحك. أحتقره حين أراه يأخذ المصروف من والدتي وأحتقر والده أكثر. أجلس وأقصّ عليه حكايات أختلقها فيستمع مصدقاً. لما فارت الهرمونات لدينا تنافرنا، لم يعُد يصدِّق قصصي، وبت لا أطيق رائحته، ولا شنب القط الذي نبت تحت أنفه. كرهي له يتضاءل أمام كرهي لذاتي آنذاك؛ حب الشباب، وجسد يتمرد عليّ جاذباً النظرات نحوه. أهلتُ عليه ملابس فضفاضة، ثم أحببت إبراز ما كنت أداري، النظرات التي أخافتني سابقاً، صارت متعتي ومبتغاي. لا أريد أن أبدو أمامكم كمستعرضة لا همَّ لها إلا نظرات الإعجاب. كفّ أبي التي تمسح على رأسي ابتعدت وتلاشى دفؤها؛ اعتاد أن يصفني بالجميلة ويناديني جميلتي، كل النداءات

تلك أمست بلا شغف؛ هاتف في يده ونظرات ساهمة، اجتماعات، رحلة عمل، كدت أنسى وجهه لولا صورة أقف فيها بينه وبين والدتي وضعتها بجانب سريري. مع الأيام باتت الصورة نادرة، فكل الصور اللاحقة إما أن تجمعني به.. أو بها، ما عادت الصور تجمعنا ولا حتى المنزل. هل أخبرتكم كم أحب لندن ولماذا؟ لو بدأت فلن أنتهي، أشتاق لكل روائحها. هناك صرت امرأة ثم عرفت ماذا يعني أن أكون امرأة. في تلك الأيام، يختفي بسام مع أصحابه، لا أراه إلا مصادفة، في الهايدبارك، أو في شارع أكسفورد، أو على الضفة الأخرى من محطة مترو؛ مرة تعشيت مع صديقاتي في مطعم في النايتسبريدج، فمرَّ بقربنا مع أصدقائه يلاحقون فتيات خليجيات، شاركت صديقاتي الضحك وفي داخلي قلب يعتصر. لاحقاً رأيناهم عند ناصية وسلّمنا، خصصت أحد أصحابه بنظرة، شرارة الغيرة في عيني بسام أفرحتني، حاول الانتقام بالتقرّب من إحدى صديقاتي التي صدته. في لندن اكتشفت عالم المكالمات الليلية التي تأتي بحديث لا يأتي به النهار، هل تخاف الكلمات من النور؟ دفء يأتي عبر السماعة، يرفعني لسماوات عُلا. نعم، منكم من سيقول عنها تصنّع وكذب، وما ضرُّ ذلك؟! هناك، نقشت على جذع شجرة بلوط حرف اسمي الأول بجانب حروف مَن همت بهم ولم أرَهُم بعد الصيف، بين تلك الأشجار ذقت طعم القبلة الأولى، يومها فتحت عيني والآخر منكبٌّ على تقبيلي فلمحت غراباً يراقبني من على غصن، ابتسمت له. هل أخبرتكم أني أتعاطف مع الغربان؟ يقال إنها تحب اللامع من الأشياء، الزجاج.. الخرز.. وأنا كذلك أحب الماس،

يخدش ولا يُخدش، لا حجر في العالم يستميلني غيره. مرة استهوتني دمية قطنية لغراب رأيتها في سوق حرة في أحد المطارات، بدت ظريفة، اشتريتها ومعها أقلام ودفاتر رسم عليها غراب هدية لبسام، عندما رآها تهكَّم وضحك على هداياي، وصف الغراب بأنه علامة النحس وأنني أجلب الشؤم معي. الغريب أنه في رحلة إلى باريس قبل عامين، اقتنى عدة دمى خزفية لطائر البوم، أشكالها قبيحة. تبريره لشرائها سخيف، يريد مداعبة أحد أصدقائه، يلقبونه في الديوانية بالبومة لأن رؤيته طالع سوء. لم أخبره بأنني كنت أرسم غراباً في دفتري عندما قدم مع أبيه لخطبتي في اليوم التالي لقدومي من لندن بعد تخرجي. يومها كل الأمور أُعِدَّت مسبقاً وكلٌّ أتقن دوره، لماذا قبلت؟ لا أعلم إن كنت أستطيع كتابة الإجابة الآن.

4

فصل: ذهابي إلى مكتبه وماذا جرى هناك

أمسكت بالبطاقة، ونقلت عيني بين العنوان عليها واللافتة على مدخل العمارة؛ عمارة العقيل. عمارة من ستة أدوار من اللواتي بقين من فورة البناء في أواخر الستينيات إلى أواسط السبعينيات بأشكال هندسية لا شخصية لها. والتي تقتلع الآن كأسنان مهترئة وتنبت مكانها ناطحات سحاب. في يدي الأخرى رواية **كل الأسماء** أنزلتها من السيارة دون أن أنتبه. صعدت الدرجات الرخامية النبيذية متَّجهاً إلى المصعد وما إن ضغطت على زر استدعائه حتى قفزت فزعاً من الصوت الذي أتى من خلفي.

«**تريد شيئاً يا باشا؟**».

التفتُّ وإذ بشيخ مصري يرتدي جلباباً كان أزرق في يوم من الأيام، أمسك بكأس زجاجية لا تزال أوراق الشاي تتراقص داخلها بكثافة.

«**نعم؟**».

أيقنتُ أنه الحارس، فأتبعتها «**الشيخ عبداللطيف الغسّال**». وصل المصعد وتركته يغلق.

«**لم يصل بعد..**» لم أقل: متى يأتي؟ فقد رنّ هاتفي وأضاء شاشته رقم مألوف: «**هذا رقمه**» قلتها للحارس الذي لم يعد موجوداً.

«**أهلاً شيخ عبداللطيف، وعليكم السلام**».

دعاني للصعود. هل رآني؟ وكيف علم بوجودي؟ ولِمَ ينفي الحارس وجوده؟ أسئلة لم تتمدد أكثر لسببين؛ المصعد الضيق، والثاني أنني وصلت إلى الدور الرابع حيث مكتبه. عادة أتهيأ قبل دخولي أي مكتب بأن أبتسم ابتسامة واسعة، أشدّ بها عضلات وجنتي إلى أقصى حد ممكن؛ حتى إذا ما دخلت تظلّ الابتسامة معلقة وتتلاشى ببطء. هذه المرة لم يتسنَّ لي أن أبدأ؛ فقد وجدته ماثلاً أمامي، وجهه ملبَّد بابتسامة كالتي في الصورة، واقفاً عند مدخل مكتبه دون بشت، سادّاً بجسده الشاسع باب المكتب، من يستطيع التصديق أنه تجاوز النصف قرن بسنين؟

«**زارتنا البركة، للتو نوّر المكتب يا أبا عبدالمحسن**».

بمجرد نطقه لاسم ابني عبدالمحسن بدأتُ بالتيقن بكل ما سمعته عنه قبلاً؛ قيل عنه إنه آلة أرشفة بشرية لم يعرف لها مجتمعنا مثيلاً. موظفون متفرّغون يجنِّدهم لتوثيق أقوال كلّ من يستطيعون توثيق أقواله وتصاريحه من سياسيين وغيرهم، سواء من الصحف أو المجلات أو التلفزيون وتخزينها لوقت الحاجة إن استدعت الضرورة، وما أكثرها. ناهيكم عن معرفته لأنساب القبائل التي يجهل بعض أبنائها كثيراً من المعلومات المتوافرة لديه، كما أنه يستطيع سرد مناطق سكن كل عائلة سكنت داخل سور المدينة قديماً

أو في القرى؛ مَن جاء أولاً ومن أين جاء. مواهب لن أستطرد فيها. فحينها بالتأكيد كانت معلوماتي عنه أقل بكثير.

تلفتُّ حولي، شقة صغيرة، يبدو أنها تحتل ربع دور. البحر يبدو على خجل من بين عمارات حالت بيننا وبينه.

مجاملات تقليدية، حديث عن الطقس جعلني أنظر أكثر عبر النافذة، محاولاً إيجاد البحر.

«منذ زمن بعيد، حتى موج البحر كنت أسمعه من هنا، الآن صاروا يهدمون كل هذه العمارات العتيقة كالتي نحن فيها، ويرفعون مكانها ناطحات سحاب».

أظن أنه قد بالغ قليلاً. كيف عرف أني أبحث عن البحر؟ حسناً، بالطبع لست أول زائر له مغرم بالبحر.

«ماذا تشرب؟».

كان العامل الهندي يقف عند الباب. **«ماء».**

«يا رجل، أنت في محلك، عندنا شاي وقهوة وعصائر بأنواعها، يبدو أنك تفضِّل العصائر». نعم أنا أفضلها، لكني في هذه المواقف أعاند نفسي غالباً، ظناً مني أنني أكسر توقعاته التي صدقت للمرة الرابعة، آثرت أن أخالفها.

«قهوة تركية». انتظرني فأكملت **«وسط».** ثم أكملنا المجاملات، سألني عن عمّي خالد (أبو نادية زوجتي) وأنه زار الديوان الأسبوع الماضي ولم يره أو يرني. (ربما كنت مشغولاً في ذلك اليوم فلم أذهب) فقلت له أنه مسافر في رحلة عمل وأنني انصرفت باكراً. في بداية سؤاله بدا لي ظلُّ ابتسامة ظننتها مجاملة.

ابتسامة كتلك التي استقبلني بها، يومها لم أعرف معناها.

«خذ راحتك».

كنت أمدّ فنجان القهوة لفمي عندما أخذ هو راحته. خلع الغترة والعقال وعلقهما على مشجب.

« **ما هذا الكتاب في يدك؟**».

لمحت بشته الأسود معلقاً. تمددت صلعة حتى قفاه جعلت رأسه يبدو ضخماً. أحرجت، هل أسميها؟ ربما كان يرى الروايات توافه لا تستحق إضاعة الوقت.

« **سيرة ذاتية لأحد رجال الأعمال..**».

لم يحفل بإجابتي فسؤاله مجرد مجاملة عابرة. جلس وطوى كمَّيه، وضع راحته اليمنى على الطاولة وجعل الأخرى تستلقي عليها، كانت كفّه ضخمة.

«تفضل ابني».

كلمة ابني للحقيقة لم تؤثر بي ولا حتى نغمتها الهادئة، لكن ملامح وجهه أخذت تنشرح فانشرحتُ قليلاً وبدأت الكلام.

بدأت بداية متعثرة، تترنّح.. «**في الحقيقة.. رأيت في المنام.. قبراً.. ليلاً..**» محاولات لصياغة مقدّمة، لم تنجح ولم تفشل. كطائر صغير يحاول الطيران. في النهاية أفلحت في ضرب الهواء. وكلما اقتربت من زاوية ضيقة يكاد ينحصر فيها الكلام أجده يريد المزيد. رويت له عدة نماذج للحلم، ربما ثلاثة وربما أربعة. استبعدت تلك البومة من رواية منامي، فوجودها أعلم سببه، ولا أريد أن أشرحه له، فهو غير مهم. مع كل حلم أنتهي منه ثمة

صخرة تنزاح عن فوهة غار وجدت نفسي فيه منذ حين، ارتحت قليلاً. مع اقتراب انتهاء الحلم الأخير، أخذت أجهِّز ردّي على سؤال متوقع منه «منذ متى وهذا الحلم يباغتك؟» انتهيت وتسيّد صمت طال قليلاً، أحسست بهيبة. أنهى الصمت:

«هل علاقتك مع زوجتك على ما يرام؟».

كدت أن أقول: منذ ثلاثة أشهر. ذلك الجواب الذي جهّزته للسؤال المتوقع ولم أدرِ بهذا الكامن. فتضعضعت قليلاً. كنت ممسكاً بالقهوة، أو قد وضعتها للتو.

«تستطيع أن تقول: مثل كل الأزواج».

عادت ابتسامته الغامضة تحتلّ وجهه الدائري. للحظة تذكرت ضحكات الأحلام الساخرة التي تتخايل بلا ملامح.

«هل علاقتك معها حميمة؟ أعني هل تستمتع بها.. بحياتك يا ابني؟».

لاحظ تردُّدي. وربما انتبه لاستنكارٍ بان على وجهي. فأغمض عينيه قليلاً وبدأ بالكلام.

«لا أريد أن أحرجك أو أسبب لكَ الضيق، لكن يا ابني تأويل الرؤى وتعبيرها ليس كالسحب من جهاز الصرف الآلي. تضع البطاقة وتضغط الرقم السري فتخرج لك النقود. الناس يجهلون أموراً كثيرة. معبّر الرؤى الذي منحه الله هذه الهبة العظيمة يجب أن يسأل ويتقصى من صاحب الرؤيا، ولا يخبر فوراً أي شيء يعنّ على باله».

بعد أن حرَّك كفيه الضخمتين وهو يتحدث أعاد وضعهما مرة أخرى. اليسرى فوق اليمنى. هي ضخمة فعلاً كفقمة مستلقية. قررت أن أباغته، أردّ له الهجوم بهجوم.

«يا عمّ عبداللطيف، هل تفسير الأحلام شيء حقيقي؟ علم؟» كدت أعتذر وأنا أنطق **«أم محاولات.. وكذب وضحك على الذقون؟»** لم أقل كذب وضحك على الذقون، فقط قلت محاولات، لكنها وصلته فلم يمتعض وبدت عادية كعادية أن تسمع اسمك. يبدو أن الهجوم صدّ بفاعلية، استسلمت.

«عزيزي، أعرني انتباهك».

بدا كمن يريد التجلي، تنحنح، وصوته اختلف كثيراً، بدا عذباً، استرسل كمن يسمّع نصاً غيَّبه في ذاكرته..

«يا ابني، أنت لا شك مثقف وتعرف أنواع الأحلام وتقسيماتها من رؤيا وحديث نفس وتلك التي من الشيطان...».

هززت رأسي ليكمل، فأكمل:

«من الأساس هذا الكلام تظافرت النصوص على تأصيله من كتاب وسنة، وجاءت الأخبار متواترة تؤيد. فقصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل معروفة لديك ولا شك. إن رؤيا الأنبياء حق لا مرية فيها. وتأويل المنامات هبة يهبها الله لعباده الصالحين، إذا قرب الزمان لم تكن رؤيا المؤمن تخطئ، كما قال عليه صلوات ربي وسلامه وقال أيضاً: لم يبق من النبوة إلا المبشّرات فقيل له: وما المبشّرات فقال: الرؤيا الصالحة..».

أزهرت بذرة من بذور الشك التي زرعتها (ن) قبل أن ترحل؛

وماذا عن يعقوب الذي أمر يوسف بأن لا يقصص رؤياه على إخوته، ترى، هل كانوا صالحين؟!.. فجفلت لما أكمل:

«ويوسف عليه السلام، تتجلى في سورته وحكايته روائع ودرر لا تنتهي منها مهما طال الزمان، منذ رأى 11 كوكباً وتحققت في آخر الحكاية. وعندما أوّل رؤيا أصحاب السجن في الآية 41، ثم أوّل رؤيا الملك في الآية 47 وهي الرؤيا التي حار بها بلاطه حتى ملّكهُ خزائن مصر».

يتحدث وهو ينظر إلى الحائط الذي عن شمالي، كأنه يتلو الكلام منه، ثم يرجع بصره إليّ فتخاتلني نظراته، أزيح تحديقي بعينيه وأهرب ببصري الذي انزلق إلى الطاولة الصغيرة خلفه والتي حملت سماعات ومشغل أقراص أنيقاً، واصطفت بجانبهما ألبومات لتلاوات قرآنية لقراء استطعت أن ألمح أسماء بعضهم و.. ثلاثة ألبومات لم أتبين ماهيتهم..

«والتاريخ الإسلامي مليء كما أخبرتك، ومن العلماء المعتبرين مَن يرى أن معجزة الإسراء والمعراج حدثت للنبي عليه الصلاة والسلام في المنام، وأنا، بالطبع لا أؤمن بما ذهب إليه هؤلاء..».

أشاح بوجهه شمالاً، بعد أن أدخل رأس سبابته في فمه، التقط شيئاً ورماه بعيداً، ربما يتبرأ من مقولته فقد رأيت كبار السن في قرى السعودية يفعلونها عندما يحدِّثون عن أيام طيش أو عند خوضهم في سيرة ما. رجعت عيناي إلى الثلاثة ألبومات،.. إنها لأم كلثوم.

«نعود لمنامك، عندي تصور لتأويله ولا أريد التسرع، تعال إليّ بمثل هذا اليوم من الأسبوع القادم، و..».

قبل أن ينهي جملته، اجتاحتني رغبة بالخروج، الصخرة التي انزاحت عن فوهة الغار في بداية حديثنا رجعت إلى مكانها والاختناق يشدّ قبضته على رقبتي. أغلق باب المصعد، طيف ابتسامته وهو يودِّعني ثابت رافقني طوال طريقي إلى السيارة. أدرت المحرّك فأفزعني صوت انبثق من المسجل، كان الرويشد يغني «ينبت عليها الحزن وأصير أنا كالعود..» أطفأت المسجل، اليوم السبت ولم ترسل لي نادية أي رسالة حتى الآن، يبدو أنها لم تستيقظ حتى الساعة، اتصلت بها وإذ بخطها مشغول باتصال آخر، فأبلغتها برسالة أنني سآتي بعد ساعة ونصف لكي تتجهز وتجهّز عبدالمحسن لنتناول غداءنا في الخارج. ثم أجريت اتصالاً آخر فأجابني الرقم الذي طلبت بالردّ المعتاد «الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية» وسلكت أسرع الطرق نحو مقهى أحبه، ركنت أمامه أنظر لمن يدخل إليه ومن يخرج منه. أمسكت بالرواية محاولاً القراءة وبصري يراوح بين السطر وباب المقهى. أعدتُ تشغيل المسجل فعاد الصوت ليكمل «شوف الألم ما برح من مهجتي والعين، طيرني مرة بفرح خلني ألاقي عين».

لما رأيت بسام للمرة الأولى في المسجد، لم يحد بصري عنه وهو يتحدث، رأيت في وجهه ملامح عمّه كأنما قام من قبره وعاد إلى الحياة، من قامته المعتدلة الأقرب للقصر ونحافته، والشيب في فوديه، انبعثت ذكريات شقاوتنا في ثانوية الشويخ وهلّت ليالي القاهرة التي عرفناها سياحاً ثم طلبة. واستعدت حفلات الست الشهرية من شتاء كانون الأول/ ديسمبر إلى فصل الخريف والطرب الذي ينال منا؛ في مسرح سينما قصر النيل أو في مسرح الأزبكية الذي يجتمع فيه عشاق طربها القديم، الجمهور السمّيع، يتقدمهم أحمد رامي الذي جاورته مرة. فتنفحهم ما تجود به حنجرتها. مرة تكاسلنا عن شراء التذاكر باكراً فلم نجد في الصفوف الأمامية مقاعداً فجلسنا في الخلفية، لم نستمع إلى الموسيقى ولا لغنائها فصراخ المحششين وتعاركهم حالا بيننا وبينها، فهرعنا إلى الشقة لنكمل الحفل عبر المذياع. شعرتُ بألفة تجاه بسام، تأخر ولم يتّصل بي، استخرجت عنوانه وذهبت إلى منزله، سألت عنه فلم أجده، أعطيت الخادمة بطاقتي، لا بد أنه أضاعها. بعد يوم اتصل بي وطلب موعداً فقدمته على كثير من مواعيدي. حاولت تخمين سبب رغبته برؤيتي من صوته الذي يماثل صوت والد زوجته، هذه العائلة تشترك في صفات كثيرة. استعددت له جيداً وجهّزت ملفين بأجود الصور، وجلست أنتظره. أغمضت عيني وانثالت ذكريات

البارحة، فقد أمضيت مع هناء ليلة حافلة بأطايب الشام، مذاقها لم يفارقني. عندما جاء بسام اندهشت بعدما حاص قليلاً كأنه محرج، أخبرني بأن لديه رؤيا يريد أن يعرف تأويلها! ارتبكت، قليلاً ما تخيب ظنوني، لم أرجع إلى وضعي الطبيعي إلا بصعوبة. لمحت قطعة من ملابس لهناء على الكنبة عن شماله فدعوت في سري ألا يراها، فلم ينتبه لها. لم أصدقه في البداية في مسألة الحلم الذي يطارده ويخاف منه رغم أنه أعاده ثلاث مرات. صوته صادق ويده ترتجف بكوب القهوة وهو يروي التفاصيل. حلم في غالبه مكرّر وأسمعه كثيراً، المقبرة وتوابعها. مللت، أنا من يحتاج إلى من يفسر أحلامي التي أراها وتتعبني؛ تتسلل زوجتي الأولى التي أبقيتها على ذمتي حتى وفاتها لترعى الأولاد إلى منامي لتؤنبني على هجري لها، تلومني وتذكرني بأنها نادمة لما فتحت الباب لي لأتزوج الثانية، لم تعلم بأنها رخيصة عندي وأنني سأفعلها. في منتصف الثمانينيات اقترنت بالثالثة التي لم تكن من هنا كسابقتيها، بل من الشام. صرت أعقد القران لأصحابي من الأثرياء، في البدء قبلت بهدايا بسيطة أهدونني إياها، وصارت أغلى وأثمن عندما يستلذون باختياراتي التي برعت بها حتى صرت مقرباً عند أكبرها وأسمنها؛ وبات الآباء يلمِّحون لي بامتلاك بناتهم لحسن ما مثله حسن، ويسرون بأنهم سيجزلون لي العطاء إن كتب نصيب لبناتهم. قللت دائرة زبائني الباحثين عن الحلال واقتصرت على الصفوة، تكاثرت الهدايا وامتد عملي لقصور الدول القريبة. تحسدونني؟! نعم، أعلم أن النساء يبغضنني، لكن الرجال يحسدونني فقد تذوّقت أصناف النساء، وسأقول لكم شيئاً، نعم أنتم، يا من تثرثرون عن

النساء في مجالسكم وتتأوهون، سأخبركم بأمر؛ مهما امتازت النساء عن بعضهن بالحسن والدلال، فكُلهن يتشابهن إذا دار اللسان، عندما يتحرك الفك تتمازج بنات حواء ويصرن واحدة بغيضة دميمة. لذا فهمت ما الذي اعترى بسام؛ قبل أن يأتي إلى المكتب، جمعت كل المعلومات التي تخصّه. وعرفت المحيطين به والجهات التي يسافر إليها. أبصرت الشرخ الذي بينه وبين زوجته الحسناء بسهولة. طلبت أن أراه مرة أخرى لكي أستجمع شتات نفسي وأبدو أكثر حنكة. سيقبل ما سأعرضه عليه لا محالة، فالصور التي في الملف يسيل لها لعاب أكثر الرجال بروداً. منصبه في شركة عمّه سيقوّي من فرصتي في الاستحواذ على لجنتها الشرعية الوليدة. أعلم أن عمه في جيبي منذ أشهر، لكن جيبي يسع اثنين وثلاثة وأكثر، فما المانع؟! المنافسة بين شركتي الوليدة مستعرة وبين الشركة التي تركتها لشريكي. ظن أنه أقامها بذكائه لا بعلاقاتي، الآن فرصتي لإثبات غبائه.

مشكلة بسام وغيره، أنهم متى ما تصفحوا بضعة كتب، شمخوا بأنوفهم. يظنون أن أمثالي ثابتون وهم متحركون. كيف أشبِّه هذا الأمر لأوصله إلى أذهانكم؟ حسناً، منذ ولدتم وأنتم لولا ما تعلمتوه لظننتم أن الأرض لا تتحرك، بل هي المركز والشمس والقمر يدوران حولها. لا، هذا تشبيه لا يصحّ، المهم أن من يبدو لك ثابتاً قد يكون متحركاً، بل قد تدور حوله وأنت لا تعلم وتستمد وجودك من وجوده، فهمتم؟! لا يهمني كثيراً في الحقيقة أن أفهمكم، صرت أكره الوقت الذي أضيعه في المشارعة والمناظرة، لذا أصبح ردي على الجهل.. ابتسامة! أجزيهم وأخزيهم بها وأكتب ما أشاء ولا أكترث بالنابحين في صفحة الفيسبوك، لكن هذا الولد.. يختلف عن الباقين؛ مهما كرهته أحن إليه، وأعود.. مرة بعد مرة وقبلها أكون قد أقسمت بأن أمسحه من الوجود، أخاف عليه كطفل يكاد يضيع في زحام إن لم أمدّ له يدي. منذ عام وصحّته تتدهور، هو لا يلاحظ هذا الأمر، أنا فعلت؛ قلّت اتصالاته بي، لا نلتقي إلا لماماً، مرة صادفته في مطعم فندق في المنطقة الحرة يجلس منتظراً. لما رآني ارتعب، كمن ارتكب جرماً، خرج ليتصل ثم عاد لي بابتسامة مزيفة أعرفها، وقال إن صاحبه قد اتصل ليلغي الموعد فتغدينا سوية. نظراته منذ زمن لم تعُد التي أحفظها، عيناه لا تركزان على شيء بعينه، تتقلقلان، قلقتان، سريع الملل، أحياناً يتصل بي

لنخرج ويصف لي كم يريد الحديث، ثم يكتفي بالاستماع لي حتى نصل إلى مطعم يختاره. طوال الطريق أراه يتصل برقم وتلتقط أذناي الردّ الآلي بأن الجهاز مغلق. اختلست النظر إلى الرقم وحفظته، اتصلت في أيام لاحقة عدة مرات فكان مغلقاً، طلبت من صديق أن يأتي لي بهوية صاحب الرقم.. أو صاحبته. سألت بسام أسئلة غير مباشرة فراوغ محاولاتي لمعرفة ما به. كل الصداقات تنتهي طفولتها عندما تقوم الأسرار كأسوار عازلة. على العكس تماماً من العامين السابقين على هذا العام الكئيب، تغير فيهما تغيراً جذرياً؛ الكتاب الذي يأخذ معه أشهراً صار ينهيه بأيام قلائل، بل تكاثرت الكتب في مقعد سيارته الخلفي ومن بينها لمحت كتباً لم يكن يلمسها، أحدها للرصافي وآخر لفراس السواح. والآن هذه الرواية البرتغالية لا تغادر يده. حتى القصائد وأبيات الشعر التي أستشهد بها بات ينافسني في حفظها، بل ويصحِّح لي أحياناً! رأيت عنده تمثالاً صغيراً لبومة تضع تحت جناحها كتاباً فسألته عنها وليتني ما فعلت، شرع بمحاضرة عن تاريخ الإغريق وأنهم اتخذوها رمزاً للحكمة. شككتُ بأمور عديدة وراء هذا التحوّل، بالطبع الحب أولها، فهو الذي يغير. خلف بساطته بئر عميقة لا تمنح الماء إلا لمن يريد، لم أكلف نفسي عناء تقصّي الأمور، فسيأتي بها الوقت. بتُّ أوطن نفسي على الاستمتاع بشخصيته الجديدة. أثناء غيابه وجدت بديلاً لطيفاً، عبدالوهاب الحمادي، شابّاً جلست بقربه في محاضرة رابطة الأدباء، تهكمنا على المُحاضر البارد والقاعة الباردة، خرجنا وجلسنا في حديقتها، علمت أنه أنهى كتاباً مصوراً عن الأندلس، فأخبرته بحلمي بإصدار كتاب أجمع فيه مختاراتي من الشعر العربي،

صرنا نخرج سوية لمقهى أو مطعم كل أسبوع، وكدنا أن نسافر إلى بيروت. مرة التحق بسام بنا على عشاء في الآفنيوز فعرَّفته عليه، وانسجم مع أحاديثه. كنت أراقب بسام وهو يوجه الأسئلة، ثم ينظر إلى شاشة هاتفه، يستمع بلهفة طير يريد أن يأخذ الطعام ويسرع لإيصاله إلى العش. أنشدنا الحمادي يومها قصيدة **لماذا اخترتني** لشاعرة اسمها ميسون السويدان، فطلب بسام منه أن يكتبها له على ورقة. شككتُ بالنساء اللواتي حوله في عمله أو في الشركة وطبعاً استثنيت زوجته فهي لم تكن في أحاديثه سوى نادية، لم يخبرني بالكثير، صمته فعل. وجدت رسالة في بريد الفيسبوك من نادية، قرأتها عدة مرات قبل أن أردّ. تراودها الشكوك التي راودتني وتشتكي البرود، تلخِّص كلامها في سؤالين: ما الذي يجري لبسام؟ هل هناك أحد في حياته؟ أرسلت إليها رداً مطولاً، فأجابتني برسالة أطول عن تبدله وشروده، بداية شكّت بإدمانه ثم فقدانه لإيمانه ثم سلك شكها طريقاً آخر. سردت في الرسالة أموراً خاصة لم تعد تحتمل الكتابة فصرنا نتحادث عبر الهاتف. نادية لو لم تكن بنت عائلة محافظة، لصارت موديلاً أو مقدمة لبرنامج موضة رائج، هي تمثل لي أيقونة للجمال العربي، الشعر الكثيف الفاحم، العيون النجل.. وكل تلك المواصفات التي تعرفونها. أكاد أرى عيونكم تحملق بالحروف وبعضكم يُعيد قراءتها ثم يقول: هل هذا إنسان عاقل؟ لماذا يتحدث عن زوجة أقرب أصدقائه بهذا الشكل؟ لذا سأفتتح فقرة للصراحة مَن لا يريد قراءتها ليغض الطرف عنها ويتجاوز، أما أنا سأحضر كرسياً وأقف عليه متحدثاً كما يفعل المتحدثون في الهايدبارك وأكمل، نعم هي حسناء ولا أقول شيئاً

غير متوقع إن قلت إنني أشتهيها وأنها محور أجمل أحلامي التي أصحو منها سعيداً. البنات في حياتي كالأرز، حتى من أزيل لها عصباً وأعلمها أن الألم لن يراودها ثانية، تتصل بعد يومين لتخبرني عن وجع آخر وتراودني ولا أستعصم. نادية امرأة مختلفة، هي في كفة أخرى. وهذا هو السبب الحقيقي الذي دعاني لأبحث عن رائحة الفتاة في حياته، لا قصة بريق في عينيه ولا من أجل تغير في تصرفاته؛ قلت، ربما لو أتيتها بالخبر اليقين فستجرؤ على أن تسقيه ما اعتاد سقايتها، لبسام علاقات وشقتنا أعلى عيادة الأسنان تشهد، النساء يغفرن العلاقات العابرة ولا يغفرن الحب. طالت مكالماتنا، وباتت ليلية. مارسنا في غفوة حلم ما مارسناه عبر الهاتف. هي عين الماء وتصرخ بالعطش. يااه، بت أحسّ بالحقارة تتسلل من كلامي، لا بأس، وصف الحقير لا يهمني البتة، مَن منا ليس كذلك؟! الفارق أنني أتحدث بما يعتمل في صدري وأنتم جبناء تكتمون في صدوركم! أنتِ، ألا تعلمين أن الجالس بقربك ويمسك بهاتفه الآن يحادث أخرى ويخبرها أنه ملَّ الحياة الباردة معك؟! ولربما هي امرأة لا تستحق صفة امرأة؟! وأنتَ، ألا تعلم أن الواقفة إلى جانبك قد تكون خلت بأقرب أصدقائك في أحلامها؟! ألا تكفي الأحلام؟! نفصل أحلامنا عن واقعنا كأنها لا تعنينا، فقط، لأن لا أحد يستطيع أن يقتحمها ويعرف في أي أرض نحن عندما ننام. كلكم تبتعدون عن الحقيقة، تتجاهلونها وهي لن تكترث بكم، لكن، هل أنتم مخطئون؟ لا يا سادة، بل هي تلك العقود الفاسدة المنخزلة من الشرائع المهترئة، بربكم لماذا تظنون أنني لم أتزوج؟ هل تعلمون أن العرب يا عرب إذا ملت المرأة من زوجها ردّت إليه

حديقته أو ماله أو أي شيء لتسترجع حريتها؟ هل أتقمص الجاحظ وأدخلكم في محاضرة عن تاريخ الزواج عند العرب وأشكاله؟ ليس هذا محلها. سأقفل فقرة الصراحة وأعود إلى صديقي بسام، إلى عالم أحلامه الذي صار يحكيه على حياء، لم أعره اهتماماً حقيقياً، فكلما انخرط بحديث سرحت في سيرة نادية وبدأت أحلامي معها تتخايل، أخاف أن يلمحها في عيني فأدعكها وأركز معه. أعود إلى المنزل، لا أصعد من فوري، أعرِّج على والدتي، بيدها ريموت كنترول تنتقل من مسلسل تركي إلى آخر. لم تعد تهتم بالمطبخ ولا بالرسم، كانت تمسك بيدي وأنا طفل نرسم حاء في خارجها حاء ونلتف لنرسم عنق طائر يسبح في الماء وتأخذني إلى بعض المعارض التي تشارك فيها. فيروز لم تعُد تغني في بيتنا، باتت مساءات أمي صامتة، ولا تكترث بدعوات أبي للخروج، بل لا تطيق البقاء في الغرفة نفسها معه. أقف عند مدخل الصالة أنظر إليها فلا تنتبه لقدومي، نوَّمها المسلسل مغناطيسياً. عندما تراني يتهلَّل وجهها، وتبتسم لطفل تراه في وجهي. أحب لهجتها الطازجة التي لم تغيرها السنين، تقبرني، أشمها شماً، ألتصق بها وأحيطها بذراعي، تشير بأصبعها لفتاة من المسلسل، تعدني بأنها ستجد لي فتاة طبق الأصل عنها، كل ما علي هو أن أوافق، فهي تريد أن تفرح بوحيدها. أضحك وأدير مجرى الحديث بعيداً وأمسك بفمها لأفحص أسنانها، لا أجد شيئاً ذا بال، تقرّب وجهي منها، تمسح أرنبة أنفها برقبتي تشمني ثم تقبلني. أحاول ألا أسألها عن أبي لكي لا تعود لشرودها. لوحات الخط الفارسي على الحيطان وبينها صور لأئمة أهل البيت حلَّت محل لوحاتها النابضة بالحياة والتي أبقيت

واحدة منها قرب التلفاز، رسمت عليها حصاناً وحيداً وبقعة دم تحته على الأرض، عندما تتبدل اللوحات تتبدل الحياة؛ تكاثرت الخواتم في أصابع والدي، واشترى منزلاً قريباً من منزلنا ورمَّمه وحوله إلى حسينية يقضي فيها معظم أوقاته، يجلب لها أفضل المنشدين والشيوخ. بعد أن نجحت استثماراته العقارية مع العراقيين في السيدة زينب في دمشق، توسع معهم شرقاً إلى كربلاء والنجف، تغير كثيراً، وضع صورة صغيرة للخميني على مكتبه فهي فأل حسن كما يقول. همه تدبيج الردود في الصفحة الأخيرة من صحيفة على من لا يسميهم، هو يقصد الوهابية التكفيريين. يظنّ أن لا أحد يعلم بأن زاويته مدفوعة الثمن وحتى المقالة يكتبها له شيخ لبناني خصص له راتباً. لوحة الحصان هي الوحيدة من رسومات أمي التي أبقى عليها، فقد رسمتها له وهي حامل بي لأنها أحبَّت الحسين وكادا يسميانني حسيناً. مزق كل اللوحات ورماها في بدايات فوراته الإيمانية قبل سنين قليلة فتمزق قلبها، أراد إنهاء علاقتها بمجتمع الفنانين والمعارض فألبس غيرته لباس التدين، بل وطلب أن تشدد خمارها عند ذقنها ثم تناسى ذلك، كل ذلك لم يفعل بوالدتي ما فعلته روائح زواج المتعة التي ملأت هواء المنزل وصبغت ملابسه. حتى والد بسام تغير، صار يلبس الشماغ وتغيرت لهجته، واحتفظ بلحية ثقيلة. أذكر كيف بدأت هذه الردة عندما حادثني بسام بأنه سيرافق والده إلى السعودية، ظننتها عمرة، عرضت إيصالهما إلى المطار، فأخبرني أنها رحلة بالسيارة عن طريق البر، لم أجده أكثر ضيقاً من ذلك اليوم، وهو يكون أشد ما يكون ضيقاً عندما يؤكد أنه بخير. ذهب لثلاثة أسابيع ثم عاد، سخر من حياتهم هناك في بريدة

وقرى بجوارها حيث الإنترنت ضعيف والحياة عالقة في القرون الوسطى. تكررت زيارات والده لتلك القرى ودُهشت لما أبصرت إعلاناً في إحدى الصحف عن إصداره كتاباً، دعاني بسام إلى حفل التوقيع، ذهبت، اشتريت نسخة وقعها لي والده، قلبتها، غلاف مذهب، أوراق مصقولة ومشجرات أنساب، وقوائم وتفاصيل تاريخية مبهمة، وغثاء وتخلف. صار الكتاب يوزع مجاناً لكل زوار ديوانهم، بدأ بعدها بسام ينتفخ بفخر لا يضارع ويتحدث عن انتماءات ما سمعتها منه قبلاً، ينشدني بطولات القبيلة التي اكتشف والده نسبتهم إليها بلهجة تثير سخريتي عندما تحاكي لهجة ممثلي مسلسل طاش ما طاش، عندما أسخر منها، يواجهني بمصطلحات أستخدمها في حديثي، يعيدها علّي وينفي أي أصل كويتي أو عربي لها. أخرجني من انتمائي. لم أذكِّره بردِّه على طالب سعودي، كما حكى لي، سأله أثناء دراسته في الرياض وقت الغزو: ما أصلك؟ فأجاب إجابة أضحكت الفصل: أصلي كويتي! لأنه سينفي أنه رواها لي. كابوس الردة الذي أوصد علينا أبوابه، فتح أبواب جحيم أخرى. لم يستمر تهريج بسام طويلاً، تزوج بعدها ومرَّ بكل ما مر به من فتور زوجي أعقبه صعود وتغير كبير ثم عاد ووقع أسير الكوابيس والحياة الرتيبة. تذكرت دكتوراً بعلم النفس زاملني ابنه في دراسة الطب، شيوعي وبيننا حوارات لا تنتهي عن انخراطهم في معارضة سياسية تسيرها قبائل، فاتحته بموضوع كوابيس بسام وطلبت منه موعداً، سأقنع بسام بالذهاب إليه. لعل وعسى.

5

فصل: صديقي يوسف وحديث عنه وعني

بدا ردّ فعل صديقي يوسف متوقعاً، فقط لو أنني فكرت قليلاً قبل أن أروي له قصة ذهابي إلى الشيخ الغسال لتنبأت به.

«أنا على يقين من أن مخّك على قدّك، وهو يضمر باستمرار لعدم استخدامك له، لكنني أصدقك القول، لم أتوقع أن تنزل إلى هذا الدرك! أنت المتعلم ابن العائلة المتنورة تذهب إلى شيخ دجّال تبع تأويل أحلام وتبع نسوان؟! والله لن أستغرب إن أتيت إليّ الأسبوع المقبل لتطلب مني رقم سيّد طاهر كي يعمل لك خيرة».

للأمانة يوسف قليل أدب، وكلّ من يجلس معه ويحادثه ويسمع منه سيعرف أنه غير متربٍّ وابن شوارع، فقط من يصبر عليه سيدرك أن انطباعه الأول خاطئ ويكتشف طيبة قلبه التي تقبع تحت لسانه الزفر، ورويداً رويداً سيبدو أثر التربية الصارمة جلياً. أحب منطقه في تفسير الأمور والذي لا يقنعني أحياناً لكنه يفتح لي شبابيك للتفكير؛ خبير في الحرب الأهلية ربما بسبب أمه اللبنانية، أو ربما بسبب ابن فيروز الذي يستشهد بمسرحياته ثقيلة الدم بمناسبة

أو بدون مناسبة، يستغلّ أي فسحة هدوء ونحن في مشوار أو سفرة ما ليُسمعني حوارات مسرحياته ويضحك. ثم ولج الساحة السياسية المحلية بتحليلات متمكنّة يكتبها على الفيسبوك لا يفوقه أداء فيها سوى أدائه في فمي وأسناني، فهو وللأمانة أيضاً طبيب أسنان بارع. يقرّعني بغلاظته المتميزة ويستمتع بذلك.

«علمياً، طبيعي أن تشوف الهوائل بسبب كوب ماء شربته قبل النوم يملأ مثانتك أو وجبة ثقيلة تكبس على أنفاسك، بل إن وجع عصب كمثل الذي أعالجه الآن كفيل بإنتاج أسوأ الكوابيس».

هو من عائلة ثرية، لا ينقصها شيء من مال وعقار وأسهم، كل ما ينقصها اسم رنان يمتدّ إلى نجد، لكنه للأسف امتدّ إلى الجهة الأخرى من الخليج، إذ أنه يعود إلى منطقة بعينها هناك. ردّدت عليه بعد أن تمضمضت بالمطهر الأخضر.

«لن أقول إلا.. الله لا يبليك».

ردّ **«الله!»** وحدَّق بالأعلى وهو ينزع القفاز المطاطي عن يديه ويرميه في وعاء دون أن ينظر ناحيته. يحب يوسف أن يثبت لي باستمرار أنه ملحد، ويبدو أنه كذلك. لا أستطيع الجزم، فأنا أعرف أنه يلتزم بإخراج الخمس بِرّاً بوالده كما برَّر لي يوماً. ويصلي أحياناً فقط لكي يرتاح نفسياً. وأخيراً ذلك السيف الذهبي الصغير الذي شق رأسه إلى نصفين ويتدلى من المرآة العاكسة في سيارته. قالت لي (ن) مرة أن ملحديهم وإن بلغ إلحادهم عتياً، يرجعون لطائفيتهم بغمضة عين إن مسَّهم أحد. أمسكت بالسيف الذهبي الصغير أتحسسه فيقول:

«**هديّة. ما هذا الكتاب في يدك؟**».

قلبت له غلاف الكتاب الذي نسيته في يدي، فأبصر وجه ساراماغو عليه

«**رواية!؟**».

نظر لي بسماجة تعادل سماجة إجابتي. وسأل ثانية:

«**منذ زمن وأنت تأتي وتروح بها. ألن تنهيها؟ هدية!؟**».

«**لا..**».

قلتها متردداً، ربما فهم أنها هدية. يسمّيني المكشوف، فانفعالاتي مكشوفة له على الدوام كما يدعي وأظنه يبالغ. أخذنا طريقنا نحو السينما، اختار فيلماً كوميدياً ضحكت على أحداثه وضحكت أكثر على ضحكات يوسف التي تلفت الأنظار؛ يضحك من قلبه كطفل ويعلق على أحداث الفيلم باستمرار ولا يلتفت للاستهجان من هنا وهناك. أراد أن نذهب إلى مطعم إيراني وبصعوبة أقنعته بالبيتزا فهو وإن كان عاشقاً قديماً للأطعمة الإيطالية إلا أن نفسه صارت مفتوحة لكل مذاق من إيران ولا يملّ تكراره. اخترت له مطعماً جديداً أنوي تجربته، الزبائن قليلون، والديكور يماثل مطاعم روما. بعد تأمل بلائحة الطعام التي نقشت على لوح خشبي، وتفكير وتردّد حسم الأمر؛ سلطة كابريسي وبيتزا مرغريتا. في كل مرة يقول إنه سيبّدل طلبه، وفي كل مرة ينتهي بأن يطلبه. غالباً قدرة الإنسان على التغيير لا تتجاوز لسانه. وصلت السلطة بسرعة خارقة، وتبعتها البيتزا بدقائق معدودة، وهذا الأمر لا يعجب يوسف كثيراً إذ إنه يحب أن نتحدث أولاً ثم يتذمر من تأخر

الطلب. وأنا أيضاً أستمتع بهذا الوقت. لم أرد أن أضيعه. فبعد أن أدخل قطعة البيتزا في فمه سألته فوراً: «**إلى أين نتجه؟**»، السؤال عادي وصدر مني بلهجة هادئة إلا أن له قدرة على صنع استعراض من لا شيء. مضغ البيتزا ثم ألصق كفيه ببعضهما كمن يصلي، ثم أفرج عنهما وانطلق:

«**البلد يتجه نحو الجحيم..!**».

للحقيقة وعلى الرغم من أنني اعتدت على مثل هذه الافتتاحيات، إلا أن نبرته وأداءه في كل مرة لا أملك أمامهما إلا الاندماج. أراقبه وأتذكَّر حلمه بالتمثيل والذي حقق جزءاً منه أثناء دراسته في لندن.

«**للأسف يا عزيزي، من يسمون أنفسهم معارضة لا حدود لتصريحاتهم يتوقفون عندها، ولا سقف لهم يرتدون منه. يستغلون كل شيء لصالحهم، وبواسطة تجييشهم للقبائل وزجِّهم في الصراع السياسي، أصبحوا ملوك هذه المرحلة، طبعاً ملوكاً من الدمى والعرائس التي تحرَّك بالخيوط والمال**».

تلاعب بأصابع يديه الاثنتين كلاعب للعرائس، أكمل..

«**المشكلة في أسرة الحكم، الصراع بينهم شديد والصدع يكبر، وقد بدأ يأخذ منحىً خطراً**».

طبعاً أنا آسف لأني لم أمهِّد لكم مسبقاً وأشرح ولو بإيجاز المشهد السياسي. قد أفعل في الفصل القادم أو الذي يليه فالوضع معقد قليلاً وليس لدي فكرة كيف أفعل، الحمادي أطلعني على رأي لروائي يفيد بأن على كاتب الرواية أن يبتعد عن التقرير قدر

المستطاع. وأنا لا أعرف لماذا توضع قوانين في شيء فكرته الأساسية هي الإبداع؟

«سيأتي يوم يسيّرون فيه المسيرات في الشوارع. لا، هذه هينة، قد يأتي يوم يضعون فيه نقاط سيطرة تماماً كالغزو، وستتم التصفية على الهوية، وسنغني جميعاً مع زياد الرحباني يا زمان الطائفية، طبعاً أنت ستفرح..».

بدأت بالابتسام مستسلماً لقذائفه اللسانية، وتركته يقصف.

«فأنت في الآونة الأخيرة بدأت بالجدال، وتنافح عن وجهات نظر المعارضة المتخلفة وتحامي عن وجهات نظرهم الكاذبة وبسببها سيكون هلاكك وهلاك عائلتك وكل مَن هم من طبقتك. أنا لا ألومك فجينات التخلف العربية النائمة منتشرة في جسمك ويبدو أن صيحات الهياج القبلية قد أيقظتها من سباتها أخيراً».

أعرفه منذ أيام المدرسة، لم يبارزه أحد باللغة العربية إلا وهزم، بل إنه التلميذ المفضَّل لجميع مدرِّسي اللغة العربية وقلب هجوم المدرسة بكل مسابقات الوزارة، وخاصة الشعر العربي الذي حفظه عن ظهر قلب.

«منذ قلت لي بأنك ستذهب مع الوالد إلى السعودية قبل أعوام، وذهبت، ثم عاودتما زيارتها بعدها كذا مرة، وأنا غاسل يدي منك».

«يا يوسف يا حبيبي، أقاربنا وصلة رحم».

قلتها بلؤم، وحاولت أن أخفض صوتي علّه يخفض صوته فالذين من حولنا تركوا حواراتهم وصاروا يتابعوننا. أكملت:

«بالله عليك، المال يوزع يُمنة ويُسرة، حنفيّات تصب ما لها أول ولا آخر، إعلام يظهر فيه نكرات وكلنا نعرف من يموّلها ويدفع وأنت تعلم. كل مدخرات الدولة في صندوق أجيال قادمة ولا أحد يعرف مَن هم الأجيال القادمة، ومنح مالية وهبات وتفكير بإسقاط القروض الاستهلاكية. كل هذا وأكثر وأنت لا تبصر إلا المعارضة؟!».

الآن هو من سيحوّل لهجته إلى اللؤم المركز.

«ومن سيدير صندوق الأجيال القادمة؟! أصدقاؤك من رعاة الغنم أم حلفاؤهم من المتأسلمين؟! هم من يذهبون في الليل ليقبضوا ممّن يسبونهم نهاراً. ثم هل نسيت أنهم هم من يطالبون بإسقاط القروض؟ بل إن أعقلهم -إن افترضنا وجود العقلاء- لا يجرؤ على أن يستنكر! لعلمك أبي ذهب إلى البنك قبل أيام وقدم طلباً للاقتراض الشخصي لنا..».

قاطعته..

«يعني أنكم من المتناقضين الذين يسّبون ويستفيدون؟!».

وضع المنديل الذي يمسك به على الطاولة وأسدل بصره نحو حجره.

«انظر، في اليوم الذي سيخرج كل هؤلاء المزيفين من مزدوجي الولاءات والجنسية من الكويت، وينتهي الماء الذي تجمعوا حوله. سأبقى هنا أنا وأهلي.. وربما في المستقبل أبنائي. يحترق قلبي على وطن لم أعرف غيره. الوطن الذي يحرق بيد أبنائه الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. صدقني هذا صراع

على الحكم فلا تنخدع بالشعارات. صراع بين قطبين ما أن ينتهي ويخرج الدخان الأبيض حتى يتلاشى كل شي مثل الضباب الصباحي عندما تزيحه الشمس؛ ستنتهي المطالبات بالديمقراطية والمشاركة الشعبية في الحكم ويعود نوابك للحديث عن الشيشة والشواذ والخمور، كل. . كل».

كلامه منذ فترة طويلة يخفي غصّة، أعرفه لم يكن طائفياً في يوم من الأيام، بل إنه يرسم شعار المطرقة والمنجل بجمالٍ على أغلفة كتب المدرسة حتى صار موضع تندُّر المدرِّسين وغضب مدرس التربية الإسلامية المصري الذي قال له يوماً: الشيوعية والشيعة لن نرى منهم خيراً أبداً. فأنهيت خدماته على الرغم من أجواء الحرب العراقية الإيرانية المحتقنة آنذاك والتي تؤيِّد هكذا تصريح. أكمل:

«كل حتى لا تبرد البيتزا أكثر ممّا بردت، فقد ترى في المنام قطعة بيتزا تلاحقك لتقتصّ منك».

بدا لي لوهلة أن هذه الجملة وطريقته في أدائها، بل إن المشهد كاملاً قد رأيته من قبل. فتجمَّدت قليلاً وخرجت ضحكتي متعثرة. في الآونة الأخيرة صار هذا الأمر ملازماً لي ودائماً يخيّل إليّ أن ما حدث قد حدث وشاهدته قبلاً. هل حياتنا شيء حدث في زمان ما وهذه اللحظات استراقة منّا لذاك الزمن؟ لا أدري يجب أن أستشير طبيباً متخصصاً.

«لا تتشمّت، طيب أنت في حياتك ألم ترَ حلماً في المنام فتحقَّق؟ أو على الأقل شعرت برغبة ملحة لتأويله؟».

«يا عزيزي أنا نادراً ما أحلم، وإن حلمت فأحلامي أثمن من أن أبعثرها بالخرابيط مثلك. أنا لا أشاهد إلا الجميلات، وحالياً لمعلوماتك أقرأ كتاباً يعلمني كيف أحصل على الحلم الذي أريد».

«**يا لمبالغاتك...**» دائماً يأتي بقصص عجيبة، وأكثر ما يلفت نظري محاولاته لإلباس الغيبيات لباساً علمياً، محاولاته مكشوفة.

«**مُبالغاتي؟! على فكرة هناك الأسترا ترافل، وهو التنقّل في عالم الأحلام، تستطيع إن تمكنت من هذا العلم أن تلتقي بمن تحب أينما شئت، وهذا أفضل من القبور التي تراها في منامك**».

بدأ الصودا الذي في المشروب الغازي يضايقني وفاتني أن أخبر الجرسون عنه ليستبدله. تذكرت أن (ن) قد أخبرتني بشيء شبيه بالتنقل عبر الأحلام، لكني نسيت التفاصيل. يبدو أن الزهايمر قد بدأ باكراً عندي. استمر يشرح عوالم الأسترا ترافل ووجه (ن) يحجب عني الكلام؛ منذ استقالت قبل ما يقارب العام ونصف انقطعت كل أخبارها عني رغم كل محاولاتي للبحث والسؤال عنها. طفا حلم على سطح ذاكرتي، كنت قد رأيته، بعد أن اختفت بأيام.

«**تحب؟!**» سؤاله ساخر لم يؤدِّ مفعوله فسرحاني أقوى منه. أعاد السؤال فاستوعبته، فأومأت بالإيجاب، فابتهج بطفولة.

«من؟!».

«**أحبك أنت، وأموت فيك يا وسيم، حبيبي أنت**» أرسلت إليه قبلة في الهواء. ومشهد الحلم يدور في بالي. صار يقهقه فتابعته وعيناي مسلطتان على لا مكان.

«ما بك؟».

سؤاله، ورغبة البوح بالحلم أنطقاني:

«تذكرت حلماً..».

«ألن ننتهي من أحلامك وكوابيسك؟!».

سخريته لم تنهِ رغبتي بالبوح.. أكملت:

«قبل عام ونيف، قبل أن تهاجمني كل هذه الكوابيس، رأيتني في المنام أمشي مع فتاة، فتاة لا أعرفها، على شاطئ بحر، توقفنا عند بائع المثلجات، حلفت بأن أدفع لها ثمن الآيس كريم، فرضيت مقابل أن تشتري لي بالوناً زاهياً من البائع، أمسكت بالبالون، وأخذت تلعق كرة الفانيليا، أحسست بخفة، قدمي بالكاد تلامس الأرض. بدأت بالارتفاع تدريجياً، أحاول أن أفلت البالون فلا أقدر، التصق خيطها بكفي. كانت تنظر إليّ مبتسمة، أتت سيارة مسرعة فدهستها، أحاول قطع الخيط لأنجدها فلا أقدر.. استمر البالون بإبعادي إلى الأعلى أكثر وأكثر.. لعلها أنقذتني بذلك البالون من الموت».

وجهه جمد لوهلة. ندمت قليلاً على البوح. ملامح الرعب التي تملَّكته انفرجت وانفجر ضاحكاً.

«مغامرات مراهقتك في أسواق السالمية القديمة، صداها يتردد في أحلامك بقوة! أراهن أنها فتاة اشتريت لها آيس كريم فأخذَته وأكملت طريقها، وأنا أعرفك، بخيل، لذا تمنيت أن تموت فتحققت أمنيتك، يا بخيل!».

أخذ يقهقه فتابعته. له ضحكة طفل تُعدي مَن حوله. طافت

بذهني حكاياته أيام المراهقة وكيف يختلق قصص حب من الفراغ ويبهِّرها، كنت أصدقه.

«حسناً.. لأنني نجدي وبخيل لذا فحساب العشاء عليك يا سيد يوسف!».

اتفقنا أن نذهب إلى مقهى لنضرب لنا رأسَي شيشة. انطلقت السيّارة وعيناي تتأرجحان مع السيف الذي على المرآة العاكسة وقد شُقّ حدّه إلى نصفين. اقتربنا من دوار قصر السيف، حيث أحب أن أنظر إلى اللوحة المعلقة أعلى بوابته وأقرأ ما كتب عليها: «لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك». لمحني يوسف وأنا أحد البصر إليها. فلم يشأ أن تمرّ دون تعليق.

«الجملة خطأ!».

«كيف؟» سألته متوقعاً أن يسرد لي الخطأ النحوي الشهير الذي يكتنفها، لكن ملامحه باتت تقترب من ملامح لاعب سيسجِّل هدفاً.

«المفترض أن يكتب: لو دامت لغيرك.. ما اتصلت عليك!».

لم أتوقع تلك المفارقة فمددتُ كفي له فضربها مصافحاً، أكمل بأن البنات يأتين ويرحن وكلهن متشابهات، هززت رأسي موافقاً له. سخريته لا تزال بخير، لن يكبر هذا اليوسف. عاد لنبرته المحايدة..

«اسمع يا فالح، بعد ذهابك للشيخ الغسال، المفترض أن أقطع علاقتي بك وأعلنها بالصحف، لكن سأعطيك فرصة، لم لا تستشير دكتوراً نفسياً؟».

لم أشأ لحظتها أن أدخل في جدال عن اتهامه الضمني لي بالجنون. وإن وجَب أن يلجأ أحدٌ إلى طبيب نفسي فهو مَن يحتاجه، وربما أخذ والدته المسيحية الأرثوذوكسية التي عانت بعد اعتناقها الإسلام من رغبات والده المتزايدة لكي تتديّن أكثر. بدا وكأنه سمع بعض حديثي.

«**اسمع يا مجنون، هو دكتور بالجامعة، اذهب إلى مكتبه. غداً أرسل إليك اسمه وعنوانه وآخذ لك موعداً معه وبعدها نرى آخرتك**».

ندمت قليلاً على ما خطر في بالي عن أمه، لكني لم أقل إلا الحقيقة، بل إن والده هو المريض الحقيقي. عندما كنت في الثانوية أذكر والده جيداً، لا يتورع عن أي كلمة فاحشة. وقناني النبيذ الأحمر أبصرها في بار صغير بمنزلهم وأنا أصعد إلى غرفة يوسف. انقلب حاله منذ أعوام؛ صار يرتدي دشداشة بياقات مقلوبة كدشاديش الكويتيين في الماضي، وعقالاً سميكاً مزوّداً بخيط يمتدّ إلى أسفل ظهره، ردة يجب أن تُدرس. لكي لا تضيع القصة ونتشتَّت، نعود إلى مسارنا؛ كنا في طريقنا إلى المقهى يصاحبنا صوت زياد الرحباني الخشن وصوت يوسف يتابع خلفه قوم فوت نام وصير احلم إنو بلدنا صارت بلد.. وموضوع الدكتور النفسي يتفاعل في داخلي؛ هل يستطيع العلم حسم المسألة؟ ثم يكون كل ما كان عُقداً منذ الطفولة! ودَّعته، في طريق عودتي، صرت أنظف أذني ممّا علق بها من أغان لبنانية وأسمع الرويشد: أحبك لا تقول شلون كثر ما تغير أحوالي كثر ما جيت في بالي خيالك يرسم

البسمة على شفاهي. الهلال عن يميني كزورق كبير، للتو خرج من مياه الخليج مغتسلاً، هلال ذكّرني بياضه ونجمة علته.. بـ (ن). صاحبت الرويشد غناء: ويأخذني إلى آخر مدى في الكون.. وطن عمري.

6

فصل: ن وبعض ما يتصل بها

البومة ذلك الطائر ذو العينين المحدقتين والوجه الغريب الأشبه بوجه الإنسان، رمز النحس وجلب الخراب شأنه شأن الغراب إن لم يكن أسوأ، غدا هو البوابة التي عبرت منها إلى عالم (ن).

عندما توظفت (ن) في الإدارة كنت للتو قد وصلت إلى منصب مراقب القسم، والأعمال التي تكلف بها تأتي إليّ منتهية بشكل محترف قلّما وجدته عند غيرها، بل ما رأيته قبلاً قط. لم أجتمع بها كثيراً، كل الأوراق التي بيني وبينها يأخذها المراسل ويعود بها منتهية، وبتنا نستخدم الإيميل لنضمن السرعة خاصة عندما تغيب عن العمل. قليلاً ما جاءت في طلب توضيح، وغالباً تستخدم الهاتف الداخلي. جميلة وجمالها ليس ثلجياً كأولئك العارضات الباردات، بل له رونق خاص. وجهها هادئ كفجر، ولها ابتسامة مثل انتعاشة الصباح. لا تضع مكياجاً ثقيلاً، بل تكاد لا تضع إلا كحلاً. محجبّة وحجابها يخضع للمد والجزر، لم تكن تتحدث كثيراً ولم تنضوِ إلى شُلل الموظفات وتشاركهن الثرثرة.

في يوم من الأيام تأخّرت في تسليم تقرير يلخص رأيها الفني

في مناقصة مهمة، بحثت عنها، فعلمت أنها لم تحضر إلى العمل. بدأ منسوب الغضب عندي بالارتفاع بعدما فتّشت بريدي الإلكتروني حتى في الـ (spam) ولم أجد شيئاً. فعادتها إن لم تأتِ، أن ترسل عملها عبر الإيميل. من دون هذا التقرير سيتأجل العمل وأتعرض للوم مزعج من عمّي. اضطررت للاتصال بها على هاتفها فلم ترد وعندما فاض الغضب، رن هاتفي، جاء صوتها من الجانب الآخر، كتمت غيظي، رشت بصوتها المبحوح الماء على النار. أخبرتني أن التقرير مكتمل في ملف موجود على لوحة مفاتيح حاسوبها. قمت مسرعاً إلى مكتبها على عجل. في الطريق القصير شممتُ عطرها الذي يقبع في الممر وأعرفه فقادني إلى مكتبها الصغير بين الحواجز. وجدت الملف على لوحة المفاتيح كما أخبرتني والتقرير مكتوب بخط يدها، خطّها منمنم جميل وواضح. قبل أن أخرج انتبهت للأعين التي تحدّق بي؛ لن أبالغ إن قلت أن قرابة ست وعشرين عيناً تنظر إليّ بنظرات ثابتة لا تتزحزح. استغربت قليلاً، بل كثيراً. بدا مكتبها كقفص في حديقة الحيوان، إذ انتشر في كل مكان وعلى رف أنيق فيه ثلاثة عشر طائر بوم بأحجام وألوان متعددة بعضها يبهج والآخر مخيف. ربما في تلك اللحظة بذرت أولى بذور الفضول في نفسي تجاهها. بعد أيام عندما دخلت مكتبي، بدا وجهها كمن تعافت من مرض، شمس مشرقة. طلبت منها الجلوس دون أن يكون لديّ أي موضوع رسمي، تلعثمتُ فبادرت هي:

«آسفة لأنني لم أخبرك مسبقاً بموضوع الملف، لكن المرض باغتني، أحضرت الملف إلى المكتب وخرجت عائدة إلى الفراش».

عيناها مصوبتان نحوي، أطلت النظر فيهما، ربما هي ثوانٍ، عندما أستعيدها الآن تبدو لي سرمدية الجمال. ثبت إلى رشدي بسرعة.

«لا عليك، أنت من الموظفين الممتازين، ومنذ عام تتقنين عملك لولا..».

تنهّدت **«لولا الغياب..»**.

ابتسمت وجاء المدخل..

«لفت نظري طائر البوم!».

عيناها المصوّبتان نحوي، خلتهما للحظة فوّهتَي بندقية ستُردي فضولي قتيلاً، لكنها تبسّمت. عندما أستعيد الآن ابتسامتها تلك ينشرح صدري أيضاً، هل هذا الشعور هو نفسه الذي شعرت به ذاك اليوم أم هو الزمن؟ الزمن والمشاعر لا يعرفان التوسّط، بل يسكنان في التطرف.

«أعرف انطباع الناس عن البوم..».

بدأت تتحدث عن البوم وطاشت عيني نحو الساعة، لم يتبقَّ على العمل سوى ربع ساعة. عبدالمحسن والمدرسة! خمدت الثورة المفاجئة وارتحت لمّا تذكرت أنه يرقد حتى هذه الساعة في المنزل، فاليوم إجازة في مدرستهم.

«أحب هذا الطائر كثيراً، بدأ اهتمامي به عندما كنت أقرأ لغادة السمان..».

هذا ما فسر لي الكتب التي تصطف فوق بعضها في مكتبها..

«ثم توسعت أكثر فعرفت أنه طائر مظلوم؛ كل ثقافة أو دين تظلم لها عدداً من الحيوانات، بل وربما تناصبها العداء. وتاريخ العرب منذ الجاهلية يزدري هذا الطائر، طبعاً سمعته في العصور الوسطى تبهدلت بشدّة رغم أنه رمز للحكمة عند الفلاسفة. لا تنسَ أن مسلسلاتنا تلقب المرأة بالبومة عندما تكون فأل سوء».

ابتسمت وأنا أطالع الساعة، بقي خمس دقائق، إغراء بالمزيد من الاستماع، لكنني لا أريد التأخر خشية أن يلمحنا الزملاء في العمل فيجدون مادة خاماً لنسج قصة قد تخرج وتنتشر في هذا البلد الصغير، السبب الأهم لاستعجالي هو أنني لن أتجه إلى البيت مباشرة، بل سأعرِّج على محل لشراء هدية بمناسبة مرور خمسة أعوام على زواجنا. حديثها ممتع وحلو والوقت دائماً عدوّ اللحظات السعيدة.

«مثلاً لو أتاني زوجي بهدية، بومة من كريستال مثلاً، ستكون أثمن عندي من خاتم من الماس».

هدية من الزوج! هل هي متزوجة؟ وكيف عرفت بأنني أفكر بهدية؟! هي الصدفة لا غير. ابتسمت لخاطر عنّ على بالي؛ لو أهديت نادية بومة من كريستال، فلربما ستنبت لي ورمة في رأسي على شكل بومة. لم أخبرها فأنا لا أحب أن أتحدث عن نفسي.

«أكره التشاؤم وتعليق أخطائنا على مشجب الحسد والحظ وكل شيء لا يُرى ولا يُدرك».

جلّ النساء يقلن هذا، لكنهن أول مَن يرجع عن هذا الرأي. ألم تتفاءل بالبوم؟ إذاً هي تتفاءل وتتطير، لكن حديثها حلو. نظرة ثالثة

مني إلى الساعة، جعلها تمسك بمقبضَي الكرسي وتستعد للوقوف.

«**يبدو أنك مشغول؟**» لم تنتظر إجابتي، بل قامت من فورها.

«**أساساً الوقت انتهى منذ عشر دقائق، لم أحسّ به، تحدثتُ كثيراً؟ أمي تقول لي دوماً: إنك لن تجدي زوجاً يتحمل ثرثرتك**».

هل هي غير متزوّجة؟ لا أدري لماذا انشغلت بهذا الأمر غير المهم! وقفت معها، تأكدت من قفل درجي وخرجنا نحو مواقف السيارات، عم إسماعيل يرمقني بنظرة طالت أكثر من اللازم. في الدور الثالث ربضت سيارتها بقرب سيارتي. هل هي الصدفة مرة أخرى؟ عندما يحبك القدر سيشتغل لك خادماً. سيارتها رياضية، وقفنا قربها نتحدث. لمحت طائر البوم في سيارتها، واحدة معلقة في المرآة العاكسة، والأخرى مخدّة على مقعدها، وكتب في المقعد الخلفي، فعلاً غريبة! ساد الهدوء المواقف كلها فاضطربت، لا أريد لأحد آخر أن يلمحني. أعدت النظر إلى عينيها وهي تخبرني أنها اشترت أول بومة من برشلونة في شهر العسل! إذن هي مطلقة؟ أو أن زوجها توفي في حادث؟! لا حدود لهذه التقلبات، يجب أن أستخبر قريباً وأعرف. النظر في عينيها يذكّرني بالنظر إلى السماء في ليلة صيفية. كنت يومها قد غادرت أيام الهناء الزوجية منذ الثلاث سنين وتحولت علاقتنا.. لا أريد أن أخوض في هذا الحديث الآن. الحمادي أخبرني بأن من فوائد الكتابة الأكيدة الشفاء من كل ما يزعجنا، حيث نبث كل مراراتنا في النص، وهذا حديث سوف يأتي في موضعه. سألتها عن أفضل متجر لشراء هدية، فغارت النجوم في عينيها وانطفأت.

«في مجمع الصالحية، محل الأربش للمجوهرات، تجد البائع واسمه حبيب، للتو وصلت تشكيلة جديدة من خواتم الماس، قل له إنك من طرف (ن) وسيحسم لك من السعر».

نظرت إلى سيارتها وهي تهبط وتغيب، دُسْت على سيجارتي التي لم أكملها. صعدت إلى سيارتي وعند شباك تحصيل رسوم المواقف وجدتها أمامي تشارع العامل. أخبرتني لاحقاً أنها تحب أن تشاغبهم وتفاصلهم في السعر. سلكت شارع السور نحو مجمع الصالحية التجاري. عند إشارات المرور كلما أغمضت عينيّ أبصرت اتساع عينيها واستنشقت رائحتها التي التصقت بي. فعلاً لقد حسم لي البائع مبلغاً جيّداً جداً، يبدو أنها زبونة دائمة، إذاً هي كباقي النساء. يجذب الماس النساء مثلما يجذب القطب الشمالي طرف المغناطيس.

منذ تلك اللحظة أشرقت (ن) في حياتي. لماذا جاءت وكيف احتلت تلك المساحة؟ لا أدري، يتسلل الحب من بوابات عديدة، قد يكون جاز هذه المرة من باب الفضول. المهم، أنني من يومها صرت أحرص على القدوم باكراً والتسلُّح بحكايات صرنا ننبشها من الذاكرة. منذ الصباح أصبّح عليها عبر الفيس بوك وهو الرسول بيننا، ونتحادث. لماذا لم تحضر إلى مكتبي بدلاً من نقر لوحة المفاتيح؟ ذكرت سابقاً أنّ القيل والقال في مجتمعنا أهم من الأكسجين. حاولت حصر لقاءاتنا في أواخر الدوام حينما ينصرف الجميع. أترقبها فإنْ حضرت أصغي لها كتلميذ.

نظرتها العقلانية تختلف عمّن عرفت من النساء، نادية مثلاً على الرغم من عملها في بنك كمسؤولة للعلاقات العامة وأناقتها

وحرصها على لياقتها، إلا أنّ صوتها في المنزل يغدو مؤرقاً، تقليدية لا تطرب ولا تضحك إلا بصعوبة حتى بدأت أُدهش إن ضحكت يوماً على شيء. هذا طبعاً قبل أن ننفصل في حياتنا وبات كل في غرفة، وصنعنا جداراً ظلّ يعلو في كل يوم ويزداد سماكة. أعود إلى (ن) فحديثي عن نادية يضيق الصدر.

لم تدعي (ن) أنها سافرت إلى كل دول العالم ولا أنا زعمت، لكن حديثنا عن السفر متصل غير منقطع. قرأت كثيراً وشاهدت أكثر، ومثلي؛ لا تنبض بالحياة إلا خارج الكويت التي نعيش فيها كمن يغوص في الماء وينتظر لحظة خروجه ليستنشق الهواء. تحدثنا في أوائل أحاديثنا عن دول زرناها وعواصم حفظنا أزقتها أكثر من أسماء أقاربنا؛ فترات انتظار الرحلات، وتواريخ انتهاء الجوازات المفاجئة وإصدار الفيز وغيرها. تمازجت الذكريات حتى بتّ ألتقيها في أزقة ذكرياتي. أتحدث عن روما فينسحب وجه نادية من المشهد وتطلع (ن). ترحل بي بكلماتها إلى حمامات مراكش المغربية الممتلئة بالبخار فيلوح لي ضباب جسدها ملتفاً بالبياض يتمايل على أنغام موسيقى الفادو التي عرَّفتني عليها. صرت أعرف كلّ أسمائها منذ الطفولة حتى المراهقة وعرفت كل أسمائي. أخبرتها عن بكائي وسخطي ورغباتي وأفراحي، حدثتني عن الغزو العراقي ويومياتها مع أهلها وحدثتها عن خروجنا من الكويت، لكن ثمة مناطق لا نتقرب منها، كمدن محرمّة. نقف على تخومها وينحسر الكلام، ويلوح الندم أقرب إن اقتربنا.

كثيرة هي البدايات معها (الحب الدائم بدايات دائمة قالت لي (ن) يوماً وكتبت في الفيسبوك)، لكن أحاديثنا بدأت تتحوّل عند

قصتين أو ثلاث. ثمة أحاديث نذكرها ولا ننساها، منذ سماعنا لها تصير بذوراً تزرع بداخلنا؛ مرة وضعتُ لايك على صورة في الفيسبوك فكتبت لي متسائلة، **لماذا أعجبت بصورة طفل صومالي منفوخ البطن وعظام صدره بارزة؟** توقفت للحظة أفكر ما أنا قائل؟ لم تتركني لزحام الإجابات التي حاولت أن أنتقي الأذكى منها، بل قذفتني بسؤال ابتلع كل أجوبتي: **هل هناك عدالة؟** مصطلح العدالة أحالني على الفور إلى عدالة توزيع الثروات بين الدول العربية وركام من الكلام الثوري السخيف. فأخذت أكتب رداً عن مشاريع صندوق التنمية الكويتي والعصابات التي تكمن في حكومات تلك الدول، وقبل أن أرسله، استدركت هي فمحوت إجابتي. فكتبت: «**أين العدالة؟ لماذا أنا وأنت نمتلك الأموال التي لم نتعب يوماً في جنيها؟ وهم لا يملكون إلا الأمراض التي تأكل أعمارهم؟!**» كتبت لها شيئاً عن القضاء والقدر وأن هذا هو ما كتبه الله عليهم. فعادت تسأل: **أين العدالة؟ لم يهدون الفرصة التي تمتلكها، عائلة وثراء وأحلام تمتد إلى السماء**. نبهتها أن من يملك يُحاسَب أكثر ممّن لا يملك، وللفقراء معاملة خاصة في يوم القيامة. فعادت للصفعة الأولى: **أين العدالة؟** توقف الحوار لفترة ثم فوجئت بها تدخل مكتبي وتجلس وبيدها كوب عليه وجه بومة يتصاعد منه البخار، أكملت الحديث:

«**أي أن فرصهم لدخول الجنة أكثر منك؟ إذن أين العدالة؟!**».

شربت من كوبها ما اعتقدت أنه شاي ثم اتضح أنه ماء دافئ وهي عادة استقتها من سيرة غاندي. سؤالها جعلني كفأر صغير يحاول الهروب بينما بومة تدعس برجلها على ذيله. هل أنفي

العدالة؟ حتى ذلك الوقت وأنا مثل معظم الناس؛ أحب الحياة الهادئة ولا أريد أن أشوش على عقلي، فيكفيني ما أفعله ويؤنبني ضميري، هدْم شيء قد يهدم أشياء. حتى في أيام الدراسة الجامعية عندما كان همّ بعض الطلبة تكفير بعض وهمُّ آخرين الحديث عن الدين بطريقة مقززة كنت أحاول أن أقف في المنتصف، كنت صديقاً لكل القوائم الانتخابية وإن ملْتُ لحينٍ إلى قائمة إسلامية. تداول بعض من أعرف كتباً مثل الشخصية المحمدية وغيرها، نظرت فيها قليلاً وأبعدتها. الدين دين وكلنا خطاؤون، لكن الكفر والطعن في رموز الدين مسألة أبعدتني عن أي نقاش. أطرقت برأسها، ظننت أن صمتي سيغيّر الموضوع لمناخات أخرى، لكنها عادت:

«اسمع هناك هندي ولد في الغابة، لا.. لا.. لنقل في أميركا الجنوبية وتحديداً في البرازيل وسط غابات الأمازون، ترعرع على شرب الخمرَ ومصاحبة الفتيات، ارتكب ما عرفت وما لم تعرف ولم يسمع بالإسلام قط.. هل يدخل النار؟».

لم أتسرع بالإجابة. فسؤالها ونغمته أبصرت فيهما فخاً سأقع فيه، فقلت:

«**حسب مشيئة الله**». فحاصرتني أكثر:

«يدخل أم لا؟ أنت تقول إن الدين واضح المعالم فقل لي إلى أين؟».

فكرت أن أقذفه في النار لأهرب، لكنها ستترصدني بـ: أين العدالة؟ فهو في النهاية في الأدغال ولم يبلغه الإسلام بعد. مللت فقلت: يدخل الجنّة! فنظرت إلي:

«إذاً هو يدخل الجنة وأنت الذي أفنيت عمرك بسقف منخفض أجبرك على أن تمشي منحنياً، محاطاً بسورٍ من المحرَّمات لا تستطيع أن تقفز فوقه قد تدخل الجنة و.. قد تدخل النار! ... أين العدالة؟!».

«سأقول لكِ أمراً أنا أكيد منه».

نظرت إليّ بلهفة «ما هو؟!».

«أنتِ من سيدخل النار!».

لا أدري لم انجذبت إلى بسام في المقام الأول، هل هي النظرة الأولى؟ لا يوجد حب كذلك، بل شهوة وابن حزم يتفق معي في هذا. ابن حزم أحببته من النظرة الأولى، وللدقة منذ القراءة الأولى.. «الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد». وبالطبع وعلى الأكيد وللتأكيد أنني لم أكترث أبداً باسم عائلة بسام، بل جعلتها آخر همي. حَسناً، لم تكن آخر همي، لكني لم أحفل بها كثيراً فأنا عرفت بيئة هؤلاء العوائل في الجامعة وعن قرب. كلما خلوت بنفسي في أوائل معرفتي به كنت أحاول البحث عن الإجابة فلم أهتدِ إليها. للحب أبواب كثيرة، لعله حبي له فات من باب الشفقة. ثمة شيء فيه حرَّضني على ألا أتركه وحيداً. بعدما توظفت في إدارته وكنت قد قدِمت من فترة نقاهة طويلة لم أعمل خلالها، وجدته يقترب ويميل إليّ، وهذا ليس جديداً، وليس مديحاً، فالرجال في بلادنا تجتذبهم أية أنثى.. أية أنثى. يلح في طلب أعمال أشتغل عليها ويتصل ليتابع، والأعمال التي لدى غيري يتركها. يأنف من الحديث مع الناس في القسم فأغلبهم ليسوا من ثوبه. راقبته، حاول عدة مرات أن يندمج مع الآخرين، لكنهم لم يسمحوا له بأن يذوب فيهم. صار يتصل بي وقت خروجنا من العمل، ونتحدث، وعندما أقول له إنني قرب البيت يغلقه. وطوال العصر عندما أناظر شاشة الكمبيوتر أو أذهب إلى التسوق أسترجع

صوته فأنتشي، أحببته، قلت له مرة أنه لو تدرب على الإلقاء لأصبح مذيعاً له شأن. رغبته في الانطلاق للعالم لا يحدّها حدّ، شغف بالتجربة، لولا أبرز عيوبه؛ لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه، بل يحتاج إلى من يستحثّه ويزنّ على رأسه. ليس قارئاً محترفاً، بل يقرأ ما يجده في طريقه أو ينصحه به الآخرون، عرفت أنه اكتشف الأدب المصري في وقت باكر، وقرأ في طفولته تان تان والمغامرون الخمسة وكل إصدارات دار المعارف، يعرف كل شيء عن رواد الثقافة المصرية، بل إنه يعرف من هو بديع خيري؛ في ليلة دندنت.. عشان ما نعلا ونعلا ونعلا.. فأكملها بصوته.. لازم نطاطي نطاطي نطاطي، طربت له واستغربت، عرفت لاحقاً السبب أو استنتجته أولاً ثم تأكّد لي، ثمة تأثير مصري جليّ في دمه، انتبهت، قد حكى لي عن كل عائلته.. والده وأخته، عدا أمه التي يروي عنها ويهرب لموضوع آخر. سألت وعرفت ولم أشأ أن أخبره، تركته فأنا أيضاً لا أريد من ينبش في حياتي. أشغل له أم كلثوم ونستمع لـ (دوق معايا الحب). وبعد مقاطع بعينها ينحبس صوته ولا يرد، يتمهل ويردّ عليّ بأغان لعبد الله الرويشد (من وقت لوقت.. أفكر بصمت). أخذت وقتاً حتى جعلته يخرج من عالم اليخوت والسيارات الرياضية ليتآلف مع عوالم ديستوفسكي والأدباء الروس الذين استثقل دمهم الثقيل وأسماء شخصياتهم المعقدة، استهواه دان براون لجرعة الآكشن ذي النكهة الأميركية، ورغماً عنه وتحت إلحاح أَحَبَّ كاتبي المفضل ساراماغو الذي أهديته كل رواياته وآخرها رواية.. كل الأسماء، حفظ اسمه عندما أنقذته ذات صباح بعدما أضاع مفتاح مكتبه ولم يجد عنه بديلاً؛ ذهبت

إلى درجي وعدت بسكين سويسرية ونظر إليّ كما ينظر إلى قاتل على وشك ارتكاب جريمة، ففككت البراغي وأزحت قلب القفل بسرعة وفتحته، دُهِش، فأخبرته أن ساراماغو اشتغل صانعاً للأقفال يوماً، وأنني من شدة ولعي به صرت أعبث بأقفال بيتنا، ثم نظرت إلى الأسفل وقد أحسست بحرارة في وجنتي وأنا أخبره بأنني سأحاول إعادة القفل كما كان إلا أنه على الأرجح لن يعمل ويجب أن يتصل بمن يبدله، فقع يومها من الضحك وسماني ببنت ساراماغو. أليست الحياة في النهاية عبارة عن أقفال، ولربما تضيع أعمارنا في محاولات فتح القفل الخطأ؟ لم تترك أحاديثنا الليلية فجّاً إلا وسلكته، أنتظره حتى يذهب بزوجته إلى الشاليه وعندما يعود، يتصل. . ترتخي أعصابي، أتنهد، عندما يندفع بالكلام. لا أريده أن يصمت، أخجل وأنا أصرخ في نفسي «لا تسكت! أريدك سرداً متواصلاً محموماً كساراماغو لا يتوقف». تصنعت عدم الاهتمام به وفي داخلي شوق يستعر، إذا لم تذهب زوجته للشاليه تغرق عطلة نهاية الأسبوع بالسأم، لا أكاد أغادر الفراش، أعلم أنه لن يستطيع الاتصال خلالها، فجأة دبّت فيّ غيرة عندما تخيلته يستدفئ بزوجته. أمسكت بكتاب، أحاول نسيان الخاطرة، نسيتها، لكني لم أنسه وصار يطلع لي بين سطور كل ما أقرأ. تذكرت! في بدايات علاقتنا خلال مكالمة ليلية، كنت أحدثه عن رحلتي إلى لشبونة وطوافي في طرقاتها المتصاعدة والمتداخلة، عن بواباتها الأندلسية التي أعاينها وقصة حصارها. كنت أعيش اللحظة وقد أغمضت عيني، وفجأة، قطع حديثي: هل نسافر سوية!؟ لم أكن أتقبل أبداً هذا الشكل من العلاقة بعد، ولم أستعدّ لمصارحة من

هذا القبيل، حتى تلك اللحظة رأيته كصديق مقرب جداً، لم يصر بعد. . . soul mate، صرخت به وأغلقت الهاتف. التوتر منعني من النوم وصرت أتقلب على الفراش، أخرجت المنوم وأخذت قرصين فنمت، رأيت في المنام من يراقبني وأنا أتحدث مع بسام حديثاً ساخناً من هاتف أرضي أسود قديم ذي قرص، ثم يباغتني من خلفي دون حول مني ولا قدرة على الإتيان بشيء، يلف سلك الهاتف على رقبتي بشدة ويخنقني. استيقظت يومها متأخرة عن موعد العمل، ارتديت ملابسي على عجل وذهبت، في السيارة تذكرت الكابوس وشجار البارحة وفتحت هاتفي فراعني عدد المكالمات التي لم أرد عليها. كلها من بسام! لم أتصل به فجملته التي استرخصني بها كلما استعدتها أغضبتني مجدداً. لم ألمه، بل لمتُ نفسي، فأنا من استرخصت الحديث عندما فتحت له الباب وأغريته وأنا أعلم أنه متزوج. تفحصت الرسائل، كلها منه يعتذر ويريد أن يشرح. عندما وصلت إلى مدخل المواقف القريب من العمل تمهلت قليلاً، ثم قررت أن أذهب لأصبغ أظافري ليتلاشى توتري. ارتخيت مع رائحة اللافندر التي عبقت في الصالون الخالي من الزبائن. وأراحني كوب شاي بالأعشاب شربته ثم جاءت لمسات العاملة الفلبينية وهي تعتني بأظافري لتُذهب عني ما كنت فيه. عادت مكالماته مجدداً. السلام الذي حلّ بي أزال كل ما عكّر مزاجي لذا قررت أن أرد عليه فور أن أنتهي. أغمضت عيني، لو لم يكن هناك ولد طيب يسكنه لما اتصل وأرسل كل رسائل الاعتذار تلك. . ماذا يريد مني؟ أدرت محرك السيارة فجاءتني رسالة طويلة منه نسيت معظمها ولم تنجُ منها سوى عبارة نقشت في قلبي «قد

تظنين بي ما تظنين، ولكن ما أريده مجرد فرصة، فرصة أثبت لك فيها أنني إنسان نقي». يريد فرصة؟! ونقي! ضحكت من ذلك الشاب الذكي، الوسيم صاحب الصوت الجذّاب، يتوارى في داخله فتى بسيط أغرمت به. في تلك اللحظة ربما صار باب الشفقة موارباً لحب. هو أحس به (أخبرني فيما بعد). ذات صباح أرسلت إليه رسالة، أصبّح عليه فلم يرد على غير العادة، ترددت في الاتصال به، أرسلت رسالة ثانية وثالثة ولا جواب، بعد تردد كبير وعندما اقتربت من برج التحرير قررت أن أتصل، بعدما كاد ينتهي الرنين أجابني بصوت خافت، صرخت به ما بك؟ أفزعه سؤالي، لم يكن به شيء، كان نائماً وقد وضع الهاتف على الوضع الصامت. كاد ينزلق الهاتف من راحة يدي، انفجرت من الضحك عندما أخبرني أن اليوم جمعة وطبيعي أن يكون نائماً، فليس هناك دوام! شغفي برؤيته أضاع بوصلة الأيام عندي. الباب بات مشرعاً على الحب. نسيت أن أخبركم بحلم طاردني منذ مراهقتي ولم ينفك عني إلا عندما أخبرته لبسام..

«أراني جالسة على كرسي والناس تطوف من حولي شعرت بأنني كعبة. أحاول القيام فلا أقدر. يدنو مني رجل يمدّ مفتاحاً ليضعه في فمي ثم أداره، أتحاشى النظر إلى وجهه. أنفخ في المفتاح فيصدر صفيراً بصوت عالٍ. يستمر الناس في طوافهم رغم صوت الصفير الحاد. أجمع هواء ملء صدري وأنفخ ثانية، الصفير أعلى ولا أحد يلتفت. أعرف أن الرجل يبتسم.. أنتحب بصوت مكتوم» أقوم من النوم على هدهدة أمي وهي تقرأ المعوذات، أحتضنها بشدة. أستمع إلى نبضات قلبها التي ما تغيرت، هي

ذاتها، بل كلما كبرت زاد تعلقي بإيقاعها. على الرغم من أن الأيام تمر دون أن أراها عندما أعود مساء أو أعكف في غرفتي ولا أخرج، إلا أنها إن سافرت يصير البيت موحشاً كمقبرة. لمّا تعود يعود ذلك النبض، يسري عبر الجدران ويهدهدني. أعذرها على انشغالها، كلها محاولات لدفع الحياة لكي تستمر بعد والدي. موت والدي رحيل، ورحيل الأحبة نصف موت، يا لهذا الموت! أنا موقنة أنني سأموت وأنا شابة. صديقات أمي التفَفْن حولها ومنحنها حياة جديدة. منحنها أجنحة لتطير. كتلك الأجنحة التي قصَّت قصتها عليّ عندما كنت في صفوف الدراسة الأولى؛ عن زمن امتلك الناس فيه أجنحة ترفرف فيطيرون من مكان إلى آخر، وفي يوم.. لم يأبه شاب لكلام أهله وتحذيرات كبار السن، وقرَّر أن يطير إلى قمة الجبل، إلى نبع مياه سمع أنه مَن شرب منه مُنح الشباب الأبدي، عندما وصل إلى النبع غرف منه وشرب، عندما اخترق الغيم هابطاً ضرَبَته صاعقة فخرَّ من السماء وتهشَّم على الأرض. ومنذ ذلك اليوم صار الأهالي يقصقصون أجنحة أبنائهم منذ الطفولة لئلا ينتهون إلى ما انتهى إليه ذلك الشاب. هذه القصة أخبرتها لزميلاتي في الفصل على أنها حقيقة، فيومها لم أكن أدرك الفرق بين الخيال والواقع. فراحت واحدة منهن إلى معلمة التربية الإسلامية التي طلبت مني إعادة القصة ثم أضحكت الفصل كله بتعليقاتها على قصتي وأنهت الحصة بتقريعي وعقابي في الوقوف وأنا أواجه الحائط قرب اللوح. أذكر بكائي في زاوية بعيدة في الممر أثناء الفسحة عندما وضعت معلمة العلوم يدها على كتفي، سألتني عن سبب بكائي، عندما أخبرتها ضمَّتني وقبلتني وشرحت

لي أن خيالي هذا ميزة يجب أن أحافظ عليها، فبالخيال يتقدم الإنسان، وأهدتني قطعة حلوى فجفَّ البكاء، وبعد أيام أهدتني قصة من قصص الخيال العلمي. لم أخبر أمي بعد عودتي إلى المنزل بما حدث، لا يجب أن يعلم الآباء كل ما يحدث للأبناء. أحببت مدرّسة العلوم تلك التي عرّفتني على عالم السماء والكواكب والنجوم التي لا حصر لها. قبيل المغرب صرت أصعد إلى السطح ومعي سجادة أفرشها ومنظار لوالدي. قبل أن ترحل الشمس، أنظر شرقاً، للخط الذي تلتحم عنده السماء بالبحر، علّي أبصر الأرض التي حكى لي جدي عنها قصصاً أستعيدها وأنا أستلقي على ظهري مغمضة العينين. عندما ينتشر الظلام وتلتمع النجوم أضع المنظار على عيني وأتجول في السماء، أراقب منازل القمر وأرسمها على دفتر خصَّصتُه لرسم الأفلاك. أهديت معلمتي لوحة صغيرة رسمتها؛ الكرة الأرضية في منتصفها الكعبة، وحولها نجوم وكواكب.. وخيطٌ معلق بالأرض من أسفلها كأنها بالون، ويمتد الخيط إلى زاوية اللوحة حيث تقبض عليه يد ضخمة. يومها سألتني المعلمة عن صاحب اليد فقلت إنها يد الله. دُهشَت فذكّرتها بالدرس الذي أخبرتنا فيه أن الأرض في موقع مقدر بقدر، إن ابتعدت قليلاً ستتجمد وإن اقتربت من الشمس قليلاً ستحترق. ضحكت وأخذتها وطلبت مني ألا أخبر أحداً خاصة مدرِّسة التربية الإسلامية.. وقبلتني على رأسي، ووصفت خيالي بالمدهش. صوت الرويشد الذي لم أكن آبه له فيما مضى راود أذني: من هو يحس بغربتي غيرك يا أنت؟

7

فصل: عن الدكتور النفسي والشيخ مرة أخرى

وعدتكم أن أخصص هذا الفصل للسياسة وأشرح مناخها المحتقن في الكويت والمعقَّد، لكن استرسال القصة قضى أن يكون هذا الفصل كما جاء في العنوان أعلاه، وأعدكم أن يكون الفصل القادم كما وعدت. وأيضاً في فصول قادمة ستجري في ديوان العائلة وديوانية الأصدقاء وأيضاً في العمل ستكتمل صورة المشهد السياسي الكويتي لكم.

ارتبكت في البداية عندما دخلت إلى مبنى كلية التربية في منطقة كيفان، حيث خمنت مكتب الدكتور. لم أستخبر منه عن موقع مكتبه، فعادتي السيئة بأن أنهي المكالمات دون أخذ كلّ التفاصيل تحرجني كل مرة. بحثتُ بين وجوه المنقّبات وأصحاب الشماغ الأحمر المنتشرين أينما نظرت عن إجابة، الكل يشيح بوجهه أو لا يدري. سألت الحارس المصري الذي رمقني مطولاً كمن يتفحص وجه مجرم.

«يا فندم المكتب الذي تريده نقل إلى الشويخ».

المسافة لن تتجاوز الربع ساعة بالسيارة بين المنطقتين، لكن المسافة الزمنية بين زمن تخرّجي من الكلية حتى هذه اللحظة غيرت الكثير.. للأسوأ طبعاً. دخلت بالسيارة عبر بوابة جمال عبدالناصر، وقادني السؤال عبر الشوارع حتى انبثق أمامي برج ساعة الجامعة، عقربها يشير إلى الثانية عشرة والنصف، بينما ساعة السيارة تؤكد أنها الساعة الواحدة ظهراً، نصف ساعة لن تحدث فرقاً مع طلبة الجامعة. وصلت إلى المبنى الذي توسط مباني بُنيت على طراز كويتي قديم. (ن) كانت تقول لا يوجد طراز كويتي قديم وإن هذا وهم اخترعناه ثم آمنّا به. لم أجد موقفاً بسهولة فالسيارات اصطفت على يمين الطريق فصار ضيقاً، لم أهتم كثيراً فرؤية من يعبُرن الشارع مريحة للعين وأتاحت لي النظارة الشمسية فرصة للتمعُّن، لقد تغيرت الجامعة كثيراً. ركنت السيارة، وفور نزولي داهمتني رائحة المجاري فرجعت ورششت عطراً على يدي وقرَّبته من أنفي ومشيت إلى المبنى وأخذت معي كل الأسماء تحسباً لأي تأخير في دخولي على الدكتور. عندما دخلت المبنى خفَّت رائحة المجاري ومع صعودي الدرج اختفت. وقفت أمام باب مكتبه، شددت ابتسامتي وطرقت الباب ودخلت. وجهه بشوش وأكثر وسامة من صوره على الإنترنت، قام ليرحِّب بي، بطول قامتي واحتلت وجهه لحية ثلجية تشابه لحى الزعماء الروس. بعد السلام جلس قليلاً ثم قام.

«تشرب شاياً؟».

ابتسمت وهززت رأسي موافقاً، وقلت في سري: مالك وللشاي؟ مثلك لا يشرب إلا فودكا صباح مساء. شغّل سخاناً

صغيراً، سكب الماء الساخن في كوبين، فتح علبة خشبية ذات قفل صغير ذهبي، اصطفت فيها نكهات شاي متعددة. بدت الحيرة عليَّ فخيرني بين شاي أعشاب ونوع آخر من الشاي، اخترت أعشاباً كما اختار هو. التقشف في المكتب يؤكد لي أنه يستحق عن جدارة لقب آخر الشيوعيين الذي قرأته في أحد تعليقات متابعي قناته على اليوتيوب أسفل مشهد له يعزف غيتاراً ويلقي شعراً. ربما بالغوا في التهكم فنحن شعب نمتهن السخرية.

«الكتاب الذي معك لساراماغو؟».

هززت رأسي، موافقاً

«كان شيوعياً صميماً لا كالشيوعيين العرب، الذين دجَّنهم الدولار والريال والدرهم والدينار والتومان».

لم يبالغوا إذن، هو شيوعي معتق. خلفه عدة صور بإطارات خشبية بعضها له يقف قرب رموز للمعارضة السياسية الكويتية اختفوا من الساحة وصورة كبيرة للينين، التشابه بينهما كبير. وضع كوباً لي ووضع كوبه أمامه، جلس، أرجَعَ يديه خلف رأسه وأغمض عينيه.

«حدثني يوسف عن حلمك، وصراحة لم أفهم منه كثيراً، يوسف عندما يندمج في الكلام تتداخل كلماته من سرعتها فأفكِّكها بصعوبة، فهمت أنه خائف عليك».

فتح عينيه فجأة وكنت للتو نقلت بصري من غيتار وجدته مستنداً إلى الحائط خلفه إلى وجهه أتأمل ملامحه وأقارنها بالصورة خلفه، السواد توارى خلف البياض. ارتشفت رشفة واستعدت آخر

كلامه فابتسمت؛ عادة. . لا يوحي يوسف لأحد بأي انطباع يُفهم منه أنه يمتلك مشاعر وإحساساً مرهفاً، بل إنه يفتخر بالجلافة ويشبِّه نفسه بليفة خشنة، وجعل منها شعاراً لحسابه على الفيسبوك؛ فمجتمعنا -كما يردِّد دوماً- وسخ ويحتاج إلى ليفة.

«يوسف لطيف جداً، ويجوز يا دكتور أنه ضخَّم الموضوع، لكن المسألة فعلاً تُقلقني؛ بات نومي خفيفاً، واختفت شهيتي، ووزني ينخفض».

التفّ للخلف وأحضر لي مكعبات سكر أسمر، وقال إنه لا يستخدم السكر وكثيراً ما ينسى أن غيره لا يفعل، وضعت المكعبات وقلبتها اختفت بسهولة. نظرته مسلطة عليّ، ألصق كفيه وأسند ذقنه إليهما.

«يوسف إنسان يبالغ بطبعه، لذا أحببت أن أسمع منك».

رشفت رشفة أخرى من الشاي، تحسَّن طعمه كثيراً، غمرني شعور الدفء وسهَّل عليّ الكلام، سردت له حلماً أو اثنين.

«. . أمشي على سور سطح بيت، ثم أفطن أنه سور مدرستي الثانوية، يختلّ توازني ولا أسقط. أسمع خطوات مسرعة، أحدهم قادم ليدفعني، أراوغ وأبتعد فيسقط هو! أنظر إلى الأسفل فأزل وأسقط كريشة وأحطّ على الأرض. . نمشي سوية دون أن أنظر إلى وجهه، ندخل بيتنا القديم، أسرتي تجلس في الصالة فنعبُر بينهم، يرحبون به ولا يلتفتون إليّ، نعبر ممراً ضيقاً، عن يميننا وشمالنا أرفف تمتد من الأرض إلى السقف، امتلأت ببطاقات بلون الرمل حتى فاضت، سقطت بطاقة، راقبتها وهي تتأرجح حتى حطّت على

الأرض، أمسكت بها، كتب عليها اسم نسيته، سلَّمتها إلى الواقف بجانبي، رفع نظارته ليقرأها فتأمَّلت وجهه، وجه شيخ نحيف أصلع، شعر أشيب خفيف على فوديه، حاجباه ثقيلان، شفتاه كأنما يشعر بمرارة وتريدان أن تبصقان جملة ساخرة. قرأ البطاقة وأشار لي نحو باب، فتحتُه وخرجت. وجدت مقبرة تناثرت فيها شواهد القبور، وقفت أمام قبر بارز، وصلّيت صلاة الجنازة..».

قام ليحضّر كوباً جديداً، لم أذكر له شيئاً عن ظلّ البومة التي حامت حولنا ثم حطّت على القبر ونحن نصلي صلاة الجنازة. ولم أخبره بالاسم المكتوب في البطاقة، ووصفتُ له الرجل بجانبي رغم أنني كنت أقدر أن أستعيض عن وصفه بذكر اسمه. سألني إن كنت أريد كوباً آخر، شكرته فالشاي بقي نصفه. رجع فجلس ثم قام إلى رفّ كتب إلى يمينه واختار كتابين. ووضعهما إلى جانبه.

«الأحلام عالم كبير لا أول له ولا آخر، ومنذ فجر التاريخ اكتسب أهمية قصوى، فلا جيش يتحرك إلا وفي طليعته كتيبة من مفسري الأحلام، وحادثة الإسكندر عندما دخل صيدا مشهورة. طبعاً أنت تعرف أشهر حلم في التاريخ؟».

كنت قد أنهيت الشاي للتو، وتمنيت آخر فقام كمن سمع أمنيتي، عرضت عليه أن أصنعه لوحدي فردّني بكفّه. وأكمل:

«بالطبع حلم ملك مصر الذي ذكر في التوراة، وفي القرآن الكريم باختلافات طفيفة».

ارتبكت.. هل يؤمن الدكتور بالأحلام كإيمان الشيخ عبداللطيف؟ وهل سيُعيد لي كلامه حرفياً؟ ضغط على زر فانبعثت

موسيقى لآلة قانون. وضع الكوب أمامي وجلس.

«طبعاً اعتدنا على سماع القصص الدينية وعُلِّمنا أو بُرمِجنا على أخذ العِبر منها، وغالباً هي عِبَر سطحية لا تفوت إلى العمق. ونحن كمن يشتري دواء ويكتفي بلعق العلبة. دائماً أقول لطلبتي إننا لا نستخدم عقولنا إلا للتخزين، وهذا جزء من عمل المخّ وليس عمله الرئيس. لو تأملنا في القصة قليلاً، وقلَّبناها على أوجهها، لعلمنا.. أن الملك بطبيعة وظيفته وجيوش المستشارين من حوله وخبرته؛ يتلقى معلومات عن الاقتصاد في مصر والزراعة أيضاً. ويبدو أن المعلومات تضاربت لكثرتها وعجز عن تحليلها، فجاءته في المنام. فالأحلام هي ترميز لما نراه في حياتنا عبر حواسنا. وليس هنالك حلم يأتي من جهة لا أعلم أين هي. كل شيء يأتي من هنا».

لمس رأسه بسبابته وطرقه عدة مرات، ثم أشار بالأصبع نفسه نحوي.

«وما تمر أنت به ليس ببعيد، تحدّث عنه فرويد ثم نقض تلميذه يونغ كثيراً ممّا جاء به أستاذه. هي أمور لم يهضمها عقلك فتحوّلت إلى رموز تهاجمك. علم النفس القديم انتهى، الجلوس على السرير والحديث عن الطفولة يكاد ينقرض وأنا في عيادتي أجعله بسعر مرتفع، لكي أبعدهم عنه ولا أفلح، بل يتزايدون، فالناس يحتاجون إلى مَن يستمع لهم فقط، ولن يكترثوا برأي».

ضحك وهو يكمل

«هل تعلم أن ثمة دراسات تثبت أن الحلاقين في الصالونات

فعاليتهم تفوق فعالية الأطباء النفسيين؟ علم النفس يا بسام صار متخصصاً أكثر ككل شيء؛ علم النفس الرياضي، علم النفس السياسي... إلخ. وقرص صغير يبدد الاكتئاب بفعالية أكثر من كل الكلام والهلوسات التي يلقنوننا إياها».

«**إذن ما تحليلك للرموز التي تهاجمني؟**».

أضاءت شاشة هاتفي مرتين برقم الشيخ عبداللطيف، انتبه لي الدكتور:

«**يبدو أنك مشغول؟**».

«**لا أبداً مكالمة غير مهمة..**».

بلى، كانت مهمة وسبب أهميتها غير مهم الآن. أريد أن أقول فقط إنني توقعت أن يتصل بعد يوم كما وعدني ففوجئت باتصاله اليوم. أكمل الدكتور كلامه الذي لم أنتبه كثيراً له فالرسالة التي لمحتها من الشيخ أشغلتني قليلاً؛ ينتظرني على الغداء بعد ساعة ونصف. رجعت إلى الدكتور الذي أمسك بقلم رصاص وصار يطرق بممحاته الحمراء على الطاولة وهو يتحدث. تحليله يعزو كوابيسي إلى خوف من الأب وعدم قدرة على اتخاذ قرارات حاسمة أمام المشاكل التي تواجهني. أخبرته أن لا مشاكل لديّ من أي نوع.

«**لا أحد يخلو من المشاكل، فهي منتشرة مثل الموجات الكهرومغناطيسية، وإيجادها يعتمد على جهاز الاستقبال الذي نملكه، ولا تستهن بأثر مواقع التواصل الاجتماعي و...**».

ثم أسهب عن تلك المواقع وأثرها وأنها ستحتل مكان ومكانة

القبائل التقليدية في نظره، حيث ستكون المشتركات بين البشر سلاسل أنساب جديدة، فتتكون مجموعات تجمعها حزمة آراء ستبدأ في الدفاع عنها متى ما هوجمت أو شعرت برغبة في رسم حدود لموقعها على الخريطة. حديثه ممتع وذكرني بأحاديث (ن) فطربت. إلا أنني لم أستسغ مصطلح القبائل الذي يبدو أن تعريفه لديه يكمن في التنظيم وأظن أن القبائل لدينا تعني العكس تماماً.

«القبائل نهر يجري بقوة، من سيستقله سيصل إلى ما يريد».

وددت لو سألته يستقله أم يستغله؟ يبدو أن ما قاله يوسف لي عن انسجامه مع الحراك السياسي قد استولى عليه إذ أتبعه بحديث قصير عن الخطأ الاستراتيجي لليسار في السابق عندما ابتعد عن بناء قواعد في المناطق القبلية. اقترب موعدي مع الشيخ الغسال، لكني تذكرت كابوساً قديماً أخبرتني به (ن) مرات، فأحببت أن أعرف تأويله وفقاً لنظريات علم النفس التي يدّعيها، أنصتَ لي جيداً، أذكر أنني سرحت كثيراً وأن حرقاناً في عينَيّ بعدما انتهيت جعلهما تدرّان الدموع بغزارة، مدّ لي بمناديل ورقية وأشار ناحية دورة المياه. غسلت وجهي، عيناي ذاويتان، عدت إليه وجلست فأخبرني بتأويله. سحب ورقة وكتب عليها بقلم أزرق، أخرج ختماً من درجه وختم عليها.

«حبة ونصف لمدة ثلاثة أشهر ولا تخف؛ لا أعراض جانبية له تخيف، لن يصرفه الصيدلي لك لذا توجّه إلى كلية الطب في منطقة الجابرية كتبت لك اسم زميل هناك سأتصل به وسيعيد كتابتها لك».

شكرته على استقباله وأريحيته ولم أسأله عن اسم الدواء،

سأفعل لاحقاً. وضعت الورقة في جيبي بعدما طويتها. نزلت ووجدت في طريقي إلى السيارة من يحتلون المسطحات الخضراء ببسطهم ودلال القهوة والشاي، تماماً كما يفعلون أثناء الصيف في الهايدبارك. ضحكت لتفسير الدكتور للقبائل، التي اخترق أفرادها كل مؤسسة وهيئة بحرف الدال يسبق أسماءهم، اشتروه بثمن بخس دفع لجامعات الله وحده يعرف أين تقع. نظرت إلى ساعة الجامعة الضخمة أمامي، تشير إلى الثانية عشرة والنصف أيضاً، بينما هي الثانية وعشر دقائق في ساعة السيارة. يبدو أنها معطلة، الزمن معطل في هذه الدولة. خرجت من الجامعة سالكاً طريق البحر مروراً بمجلس الأمة الذي صمِّم كخيمة. توقفت عند مقهى قريب لنصف ساعة أستمع فيها إلى الأغاني وأرقب من يدخل ومن يخرج، أشجتني «يبيلك عين ما تدمع، وشوق ما يعرفه الليل، وخل ما عشق توه..» غصّة أكملت طريقي بعدها. عند دوار قصر السيف حاولت أن أقرأ اللوحة المعلقة أعلى باب القصر فلم أستطع. كلما استدرت حول الدوار واقتربت منها والتفت، جاءتني سيارة من خلفي وصوت منبِّهها يُجبرني أن أكمل الدوران، عزفت عن قراءتها وأكملت. ركنت السيارة قريباً من عمارة العقيل، ومشيت إليها ودخلت المصعد ولا أثر للحارس المصري. ضغطت على الدور الرابع، عندما لمست زر الجرس تناهى لي صوته مرحباً. حاولت فتح الباب فإذ هو مغلق. عاد صوته ثانية أقوى «تفضل يا بسام».

التفتُّ إلى الصوت الذي جاء من الخلف؛ وجدته يقف أمام باب آخر برأس أصلع دون غترة وعقال. خطوت نحوه، فاحتضنني بقوة مرحِّباً، دخلت. شقة واسعة، أثاث متنافر، بعض القطع جميلة

لوحدها، لكن المجموع سيئ جداً، لو رأتها نادية لرمت بها خارجاً وطلبت ميزانية جديدة للتأثيث وقضت نهارها في محلات الأثاث.

«هذه الشقة أخذتها لراحة البال وقرب المكتب، للأسف هذه العمارة ستزول قريباً، لم أعُد أعرف الكويت، أحياناً يخيل لي أنني في دبي».

«ناطحات السحاب تجذب الأنظار سياحياً وتجارياً، وتبيان مدى التقدم ودليل حضارة».

«تقدم بدون ماضٍ؟ تخيل أن أدعوك إلى غداء وعندما تأتي في هذا الظهر ولا تجد إلا ستيكاً أو تلك الأطعمة الخالية من النكهات..».

مثاله لم يقنعني فأنا أحب شرائح اللحم، لكن رائحة الأسماك التي احتلت الشقة استولت على عقلي وأسالت لعابي، جلسنا إلى طاولة توسَّطها هامور وربيان مشوي وأنواع من السلطات.

«لا تستحِ، عيال الميلان مثل القطط يعشقون الأسماك، التي تهابهم من أيام الغوص».

ضحك وضحكت، أعرف أنها مبالغة، لكنها مبالغة أفرحتني بغض النظر عن التشبيه المعتاد بالقطط. تلقائيته وجوع فاجأني جعلاني أنسجم مع الطعام الناطع، بعد حديث عن عائلتنا ونسبها، عبر من التاريخ السياسي في أوائل القرن العشرين ووصل بي إلى أوضاع البلد التي تسير من سيئ إلى أسوأ بإلغائهم مشاريع نفطية ستنهض بالبلد، وأعموها بالمال المسيّس الذي اقتحم بقوة وصار يشتري الذمم الضعيفة التي لا تخاف الله، ثم رجع إلى حلمي ومعه

قلَّت شهيتي للطعام. ملخَّص تفسيره أن علاقتي بنادية هي التي تتولى إشاعة الخوف في منامي، فالقبر هو الخوف من ضعف سيعتريني مع العمر دون إشباع لرغباتي وأشياء أخرى.

«**يا بسام أنت تحتاج إلى تغيير وتجديد في فراشك**».

جملة شبه صريحة جعلتني أبتسم. أشار نحو الباب.

«**هناء.. هي من صنع غداءنا، أتقنت دقائق المطبخ الكويتي أكثر من بنات البلد. الدمشقيات هن أهل الطبخ، ونساؤنا أهل الدلع والشكوى والضيم**».

وقفت ببياضها، وشعر غرتها الفاحم انسكب خارج الخمار الذي لفته على عجل. أرجعت بصري إلى الطعام ولم أشبع بعد. لا بد أنّ الشيخ يتمتع بصحة جيدة جداً.

«**تسلم يديك..**».

بعد أن غسلت يدي بخّ عطراً فواحاً عليهما. جلسنا على الأرض في زاوية سكبت فيها الشمس ضوءها بحنيّة. وتحدث وهو ينكش أسنانه عن الزواج والعبرة منه والفروقات بين نساء العرب والتي خبرها كما قال. قام وأحضر لي ملفاً مليئاً بالصور. خرجت من شقته خفيفاً ولم يثقلني الغداء. صعدت إلى السيارة وجدت نفسي أرتّل «**يوسف أيها الصديق.. أفتنا**».

الصور التي أرسلها لي بسّام مذهلة، جمال عربي فتّان جعلني أستذكر محفوظاتي من الشعر، يبدو أن شقتنا على وشك أن تستعيد أيامها الذهبية مجدداً. عادت إليه شهيته المفقودة والتي حسبتها لن ترجع.

مُـبَـتَّـلَـةٌ هَـيـفـاءُ رَودٌ شَـبـابُـهـا
لَـهـا مُـقـلَـتـا رِئـمٍ وأَسْـوَدُ فـاحِـمُ
وَوَجـهٌ نَـقِـيُّ الـلـونِ صـافٍ يـزيّـنُـهُ
مَـعَ الـحَـلـيِ لـبّـاتٌ لَـهـا وَمَـعـاصِـمُ

العرض مغرٍ، زواج شرعي بتكلفة زهيدة، حلال.. حلال كما يصرخ أصحاب المطاعم العربية في إدجوار رود والتي تحتوي بارات صغيرة. الأهم أن لا التزامات مرهقة عدا تلك اللذيذة. بالنسبة إلي سيكون بيننا وبين الجنة ستة أدوار وهي المسافة بين عيادتي وشقتنا. العجيب أن بسام الذي أنكر زواج المتعة مراراً وسخر منه، يعود الآن بحماسة أشدّ من حماستي. منذ خرج من عند هذا الشيخ اتصل بي ولم يصمت، سرد سرداً متواصلاً، لم أشأ أن أقاطعه وأذكره بمواقفه، سأتحين الفرصة فيما بعد. عندما استفسرت عن الموعد قال إنه قريب. وأنا أعرف بسام جيداً، القريب في عرفه يَبعُد مسيرة شهر. لن أدَع المسألة تبرد، سألحّ عليه

أن نتمّها خلال أسبوعين فالشتاء على الأبواب. بعد التأمل نستوعب أن كثيراً من المسميات هي مجرد تنويع على حقيقة واحدة، والحقيقة؛ لولا تحريم المتعة ما زنى إلا شقي. لا أحب أن أستشهد بنصوص دينية، لكني سأعترف بشيء وأفتتح فقرة أخرى للصراحة؛ نعم أنا بنظر كثير وربما بنظركم ذو قلب أسود. صاحب القلب الأسود هو صاحب الذاكرة التي لا تنسى، الناس يعشقون من ينسى ويسمونه طيباً. لذا مهما أحببت بسام لن أنسى تلك الإجازة المريرة التي قضاها في لندن؛ جاءني صامتاً على غير العادة ولا يريد السهر، ثم بدأ يتنحنح إلى أن باغتني بسؤال عن سبب مقتنا لأبي بكر وعمر ولعننا أمهات المؤمنين! حديث نكد حاولت الفرار منه، لكنه أصرّ على إدخالي في متاهاته، تململت وتذمَّرت، لكنه أتاني وقد حفظ كلاماً عرفت من أين جاء به لاحقاً. تعرّف في الجامعة على أصحاب ملتحين أخذوه لشيخ في منطقة مشرف لا قصة لديه إلا الشيعة، ومعهم قرأ وسمع كل ما اعتقد أنها ردود مفحِمة لا ردَّ عليها. لم يحضرني ردٌّ وسط هجمة شرسة لم أعهدها منه، نسيت كل ما تعلمته صغيراً ودونته في دفتر، فظن أنه انتصر، لن أكمل الحديث في هذا الموضوع فاسترجاعه مقزِّز وتخمين نهاياته سهل. المهم، انتهى كل ذلك بعدما خرج منهم وثاب إلى حياته الطبيعية. لم يحدث أن استعدنا تلك الرحلة قط، بل أسقطناها من تاريخنا. تذكَّرت أمراً واحداً، بعدما أخبرني بالحلم الذي يراوده، صرت أرى في المنام كوابيس تشابه بعض ما يراه، لكني أجزم أنها بسبب الكحول الذي بتُّ أتناوله بكثرة وأظن أنني أحتاج إلى أن أخفِّف منه؛ رأيت في المنام أنني ملقى على الأرض

وأُضرب من رجال سمر يرتدون الشماغ الأحمر، وبسام يريد أن يسحبني من بين أيديهم فيركلونه بعيداً ويستكملون ضربي بهراوات. عندما أستيقظ من الكابوس أحسّ بارتياح، أزفر مُصدِراً صفيراً، أستعيد المعوذات دونما وعي. قلبي يقرع بشدة، ينتظر اليوم الموعود، الأربعاء القادم. الذي اتفق به بسام مع الشيخ عبداللطيف ليرسل لنا حوريتين ونعقد قراناً تيك أواي، سندخل عالماً جميلاً. مساء الأربعاء القادم.

هل أكذب عندما أقول إنني لكثرة الجثث التي رأيتها طوال عملي قد فقدت الشعور نهائياً تجاهها؟ بتُّ أعاملها كما يعامل الأطفال الدمى، أنحني وأتفحّصها بقفاز وأحياناً بدونه. لم أعُد ذلك الفتى الذي يبكي لنغمة شاردة من عازف قانون.. يا لهذه الكلمة ومعانيها، القانون؛.. قانون ذو أوتار تجعل جلدي يقشعر، وقانون ذو أوتاد أَبْدَل قلبي بحجر وأكسبني وجهاً من جليد. حتى التلاوة التي أستمع لها وأنصت وأنا أرجع من العمل قبيل الفجر لا تهزّني، أقلد تلاوة والدي لأواخر الآيات التي يتلوها المقرئ ولا استجابة لها ولا لذكراه. كل الجثث باتت تتشابه ولا فرق إلا بين الرجال والنساء وحتى هذا الفرق التبس عليّ.. أحياناً. دخلت إلى منطقتي، أستمع لعبدالباسط وأتذكر ما جرى منذ أعوام وبعد سنة من تسلُّمي لعملي، كنت أجلس مساء في مقهى هادئ قرب البورصة، أمسك بالموكا بيد وفي الأخرى رواية عندما رنّ هاتفي وطلب مني الذهاب إلى مستشفى قريب. أذكر تلك الرجفة التي اعترتني عندما قيل إنه شاب بين الحياة والموت، نبضات قلبي أسمعها وهي تتعاظم وأنا أقترب من المستشفى وأنزل وأنطلق باحثاً عن باب جناح الطوارئ. أشاروا نحو غرفة، دوّت منها صرخة لم أنسها منذ ذلك اليوم. صوت امرأة أسكَت كل الأصوات المتناثرة. جفلت، ثم ما لبثت الصرخة أن صارت نحيباً،

فتح الباب والممرضات يخرجن سيدة منها قد شقّ ثوبها من المنتصف وبان صدرها، يحاولن سترها بالعباءة وهي تطلب منهم إعادة ابنها للحياة. محقِّق المستشفى الذي وقف بجانبي، كاد يسقط، أمسكت به فاستردَّ وَعيَه. اصطحبته إلى مكتبه. دخل الحمام ليغسل وجهه وعاد بعينين ثملتا بكاءً. أراد أن يعتذر بجمل مرتبكة، أمسكت بهاتفي لئلا يحرج حتى انتهى من سرد قصته، التفتُّ ناحيته وإذ به يعود إلى البكاء كطفل. عرفت لاحقاً منه أن والد المراهق زميله في خلية للمقاومة إبان عهد الاحتلال العراقي وقد توفّي منذ زمن بعيد، ولم يستطع الحصول على الجنسية على الرغم من كلّ ما قدمه. ساد الهدوء ووقفت أمام الجثة، سحبت نفساً عميقاً وحبسته في صدري ثم زفرته وشرعت بكتابة التقرير. خرجت من المستشفى وتقيأت في الطريق مرتين. يومها شغلت الراديو بحثاً عن تلاوة تنتشلني مما أنا فيه فوجدت عبدالباسط أيضاً.

قرب منزلي يربض منزل مَن كنت أهوى، شباكها لا يزال مضاء رغم أنها تزوجت وغادرت. أخفِّف السرعة، ثم ألتفّ ناحية منزلي، ركنت السيارة ولم أنزل، فسحر عبدالباسط وهو يتلو سورة يوسف ينسيني كل الهموم، عندما بلغ ترتيله «إن كيدهن عظيم» نزلت من السيارة وبيدي رواية كنت أقرأها ذلك اليوم، وأردد «عظيم». تذكرت الورقة الصفراء التي كَتبت فيها تنبيهاً لمستأجر الدور الثاني من المنزل، فإيجار الشهر الثالث سيحل ولمّا يدفع، وضعتها في مقبض سيارته، تردَّدت، رجعت وسحبتها واضعاً إياها في جيبي؛ نظرة إلى ميسرة. فتحت باب المنزل، ومشيت في الممر

الطويل بعد الصالة، مررت بغرفة عمتي، فتحت بابها بهدوء، نائمة والتلفاز يعرض مسلسلاً أو نشرة أخبار، إضاءته تنعكس على شعرها المصبوغ بالحناء. أوصدت الباب وصعدت إلى غرفتي لأنزع عني الدشداشة والغترة والعقال، علقتهم، تركت القحفية على رأسي ولففت إزاراً حول خصري، تمضمضت. في المرآة أبصرت وجهي قد نال منه الإعياء، أخذت الرواية معي، خرجت قاصداً مكتبي، التفتُّ نحو مرآة في الممر، كم يشبه الوجه المنعكس فيها وجه أبي لولا لحيتي القصيرة. في أول سنة لي في الجامعة قصَّرت دشداشتي إلى منتصف ساقيّ، فناداني وأشار إلى قلبه وأفهمني أن الإيمان من هنا، فأرجعت دشاديشي لعهدها القديم. أعددت كوب شاي أخضر بطعم الليمون، علَّه يبعد الإعياء الذي ما زال متشبثاً ببلعومي. غطيت الكوب بصحن زجاجي صغير ليتخدر، وضعت الرواية في صندوق خصصته للروايات فأنا لا أضعها على الأرفف. رجعت وجلست إلى مكتبي، منظر الأوراق أمامي والأقلام منحاني مزاجاً للكتابة. سللتُ قلماً وشغلت الكمبيوتر ولجأت إلى المنتدى الذي كنت أكتب فيه قصصي. المنتدى أمسى مهجوراً، لا تعليقات ملهمة، بضعة زوار يقفون على أطلاله ويبكون. أعوام منتديات الإنترنت مضت ولا أظنها ترجع. استخرجت منه قبل عام كل ما كتبت فيه من قصص وانتقيت الطيب منها وشرعت في زيادتها حتى اكتملت ثلاث روايات هي الآن في الدرج، تنتظر يوماً آتياً لا ريب فيه، قد أدفعها إلى دار نشر باسم مستعار. والآن أنا عاكف على الرابعة، قصتها مثيرة سأخبركم بنواتها؛ تدور في زمن هارون الرشيد، الذي رأى في منامه رجلاً يستنجد به ويطلب مساعدته قبل

أن يقتل. فزع هارون وظن في البداية إنما هو كابوس وسينجلي، صار الكابوس ملازماً له وأرهقه، حاول تذكر الوجه عله أحد يعرفه، لكنه يستحيل ضباباً ولا يبقى منه إلا الصرخة «سيقتلونني». جمع حوله شيوخاً اشتهروا بتعبير الرؤى ونادى العلماء فحاروا ولم يعْدُ تأويلهم إلا أنها أضغاث أحلام. وبينما دفوف تضرب وعوَّاد يدندن أوتاره وقينة تغني، اقتربت منه جارية رائعة الحسن من اللواتي يرقصن حوله وأسرت إليه بأنها تملك تأويل منامه، طاش لبّه، فأنهى الأمسية عجلاً وصرف مَن حوله وأبقاها فأولته له؛ أخبرته بأن وزيره البرمكي يسعى لاغتياله وتملُّك عرشه، لم يصدق في البداية فهو صديقه ويكاد يكون أخاه من شدة القرب، لكنها ساقت له الدليل خلف الدليل، وربطت له الحلم بخبرها. فطلب منها أن تتوارى فتوارت، وبثّ عيونه في كل مكان و.. اممم لن أكمل، فقد يسرق أحد منكم هذه الفكرة ويعدِّل عليها وينشرها. كم يستهويني تاريخنا المليء بقصص تنتظر من يقطفها ليحوِّلها إلى روايات. وضعت القلم، رغبتي بالكتابة تلاشت، أطفأت الكمبيوتر. سأعرِّفكم على جهاز الفاكس الأسود عن شمالي على الطاولة. اشتراه أبي بعد التحرير مباشرة، عندما أسس شركة تجارة عامة ومقاولات سابحاً مع موجة التجارة التي انتعشت آنذاك شارك فيها والد أقرب أصدقائي ووالد من أحببتها. حماستهما لم تستمر طويلاً وسرعان ما خبت، ثم تلاحقت الخسائر، كلّ مَن أخذ منه بضاعة صار يماطل في التسديد، ويمتنع والدي عن ملاحقته بحجة أنهم من ذوي القربى ويردِّد.. نظرة إلى ميسرة. لا يقتل الناس إلا أقرب الناس لهم. طوقته الديون فساعدته عمتي من بيع نصيبها من

بيت ورثته من زوجها الراحل وأتت للسكن معنا وصارت أماً حقيقية لي بعدما كانت تأتي للعناية بنا وتروح. عقب تلك التجربة رجع أبي إلى حياته القديمة متنقلاً بين الدواوين. كان راوياً ممتازاً للقصص، وصوته ندّي رائق، كم من مرة طلب منه أن يسجل تلاوة للإذاعة فاعتذر بلطف، استمعوا لصوته المسجل حتى الآن على آلة تسجيل الفاكس: «شركة النور ترحب بكم، أنا غير موجود حالياً، يرجى منكم ترك رسالة بعد سماع الصافرة». كل من عرفه يقول إن صوتي شبيه بصوته وقد وهموا، أين الثرى من الثريا. عندما أشتاق له أذهب إلى مسجد في الشامية لأستمع إلى صوت الإمام الذي يماثل صوت والدي، قبل أسبوع بعدما قضيت صلاة المغرب، لمحت صديق الطفولة يخرج ومن بعيد لمحته يصافح شيخ دين معروف ويتحدث معه، خرجت من باب آخر. منذ طفولتي وحتى شبابي كلما اصطحبني والدي معه إلى ديوان أجلسني بقربه. فور أن يرتشف شاياً ويحكي يسكن الحاضرون، وعيونهم ترنو إليه وآذانهم مرهفة. يروي لهم أخباراً قديمة عن كويت الستينيات والسبعينيات نسيها أغلبهم، أو بعضاً من قصص الاحتلال (على الرغم من أننا لم نشهد منه غير شهر غادرنا بعد انقضائه إلى السعودية)، أو...، أي شيء يرويه ينفخ فيه روحاً ويفعم بالحياة. أنا بقربه، أحدِّق بانفعالات وجوههم وأذناي تلتقط الفروقات بين الروايات تمحصها، في كل مرة يعيد فيها قصة كان يروي تفاصيل جديدة وينسج أحداثاً لم أسمعها قبلاً. هل كان كاذباً؟ لا.. إلا إنْ عرّفنا الروائي بالكاذب. كان روائياً بالفطرة على الرغم من احتقاره للرواية؛ تأملت في فعله ففهمته، منذ صغره حسبما أخبرتني عمتي،

يأتي بقصة صغيرة لها جذور في الأرض، يكون قد سمعها من درس لوالده إمام المسجد، فيرويها لعمتي من خياله فتمتد كشجرة تعانق السماء. حتى صاحبه وشريكه وعلى الرغم من كل ما جرى من خسائر وفتور في علاقتهم إلا أن والدي ساعده في كتاب أعدّه عن نسب أسرتهم وحلّ له مشاكل لولاها لما تسامقت شجرة عائلتهم ونمت. ولأنني لست ممّن تستهويهم الدواوين وجلساتها، لم تنمُ عندي مهارة الإلقاء والارتجال قط إلا على الورق الأبيض. قدحت الشرارة عندما تشبَّعت يوماً من القراءة وأصابتني تخمة، السطر الذي اعتدت انقضاءه بالقراءة بثوانٍ صار يأخذ معي وقتاً أطول من السابق، يمتد في مخيلتي وتولد منه سطور وسطور بتّ أقصقصها وأسكبها على الورق. ليت أبي دوّن قصصه، بل ليتني فعلت. ذكرياتي الأولى عن معرض الكتاب العربي في أرض المعارض لا تأتي إلا ويده ممسكة بيدي كل عام منذ كنت في السابعة أو الثامنة من عمري حتى المراهقة ونحن نمشي سوياً نحو باب المعرض. علمني يومها انتقاء الكتب، حبَّبني بكتب التراث، حذرني من الروايات التي ستضيع وقتي سدى، معرض فسيح، تغريني مجلدات سوبرمان مصطفة بعضها فوق بعض، فأطالعه وهو يحلق خارج الكرة الأرضية بحسرة، رأيت زحاماً حول دار نشر، ومعظمهن سيدات، فسألته عنها فهز رأسه أسفاً وشرح لي أنهن يتحلقن حول شاعر سوري ليوقِّع لهن دواوينه الغزلية. لاحقاً في المتوسطة عرَّفني صديق على عالم الرواية، أعارني قصص (المغامرون الخمسة) وبعدها روايات مصرية يستحضر منها فقرات طويلة، أولها كان عنوانها غريباً وطبعتها قديمة تكاد تكون مهترئة،

اسمها (العشرة الطيبة). صرت أهرِّبها إلى المنزل في شنطة المدرسة، وأحلّ الواجبات بسرعة وأذاكر مع والدي وأستغل وقت قيلولته لأقرأها على خوف ثم أخبئها كمن يتعاطى ممنوعات، وفي الغد أنتظر جرس انتهاء الحصة لأناقشها مع صاحبي بين الحصص في المدرسة أو يوم الأربعاء في نشاط المكتبة الذي انضممت إليه بعدما سمح لي مدرِّس التربية الإسلامية بذلك إذ إنني كنت ضمن المنتسبين إلى نشاط حفظ القرآن، الكل آنذاك كان همه أنشطة كرة القدم وغيرها من الرياضات. مرة أخذتني سِنة من النوم ورواية من روايات صديقي بين يدي، وفي الصباح ونحن في طريق المدرسة أعاد لي والدي رأيه السلبي بالروايات، فطنت أنه قد رآها فخفْت من العقاب، لكنه حدثني أكثر عن قصص القرآن وخاصة سورة يوسف، أحسن القصص، يتلوها ويشدد على «إن كيدهن عظيم» وأنه كاد يسميني يوسف لولا أن أمي آنذاك تدخلت. وعدته ألا أقرأها في المنزل وقبَّلته على رأسه.. فابتسم لوعدي ولم يعقب، بعد أيام أتاني بألف ليلة وليلة كهدية وبرر الهدية بأنها قصص من عيون التراث. عندما يتحدث والدي عن أمي يتغير صوته، ويسرع بعدها في الانسلال نحو مواضيع دراستي وامتحاناتي وعلاقتي بالمدرسين أو يطلب مني تسميع ما حفظت من القرآن. لم يمُت أبي مرة، بل مرات أشدها وطأة حسبما أخبرتني عمتي بعد شجاره الكبير مع والدتي وطلاقهما قبل الغزو، وما ساهم في قصم ظهره هو زواجها فور انتهاء عدتها بثري سعودي وانتقالها معه إلى الرياض. حتى مشيته تغيرت وصارت أبطأ واشتعل رأسه شيباً، قالت لي عمتي، إنها حاولت تزويجه ثانية، رفض من أجلي. آثر

أن يرعاني وحيداً. لم يذكر أمي قط بسوء وعاقبني مرة لأنني سببتها وأنا أبكي. منذ أن غادرتنا أمي لم تتصل بي إلا هاتفياً في مواعيد نتائج المدرسة أو في الأعياد ثم تناقصت المكالمات ونستني مع الوقت، النسيان ابن الإهمال. ظهرت في حياتي ثانية قبل عام عندما قرَّرت أن تبيع عمارة لها مهملة في منطقة منسية، لم تكن تدر شيئاً، لكن ارتفاع أسعار العقار الجنوني في السنوات الأخيرة جاء بها. باعتها واتصلت بي وواعدتني في المطار لتسلِّمني شيكاً كهدية. تريد شراء تلك السنين التي ابتعدت فيها عني، لم أنس أنها لم تعزني بوفاة والدي إلا بعد شهور بتمتمة عابرة. عندما وصلت إلى جسر المطار، قفلت عائداً إلى البيت، قررت، لن ألتقيها، لن أبيع ذكراه بثمن بخس. أتذكر الأم التي بكت منذ أعوام على ولدها في المستشفى فينقبض صدري، أتساءل هل بكت أمي عندما تخلفتُ عن موعدها وركبت الطائرة دامعة؟ هل بكت عليّ يوماً؟ لا أدري.. ولا أريد أن أعرف. ما زلت أذكر يوم وفاة والدي بعدما استلمت مهامي الوظيفية بشهرين، هاتفني صباحاً ولم أرد لانهماكي بكتابة تقرير، وقد عزمت أن أتصل فور فراغي فنسيت. بعد ساعتين اتصلت بي عمتي مراراً فرددت عليها، وصدمتني بخبر وفاته بسكتة قلبية. أنزلته في اللحد دون أن تطلّ مني دمعة، بعدها بأسبوع كنت وعمتي نرتب أغراضه ونستبقي ما يعلق من ذكراه، كنت أخبرها عن الحشود التي حملته إلى القبر وذرفت عليه دموعاً حقيقية، أصعب الدموع في العالم. كثافة المعزين يمنح الموت قيمة. عمتي أخذت سجادته وساعته التي تذكر بأوقات الصلاة لتحتفظ بهما ومدّت لي إزاراً أخضر، كان يحب أن يأتزر في المنزل. صورته وهو يدفع

جدي على كرسي نقال أمام أحد المساجد في منطقة جبلة، أخذتها لي، يصوِّب سبابته نحوها ويخبرني أن أباه وجده كانا إمامين في ذلك المسجد الطيني قبل أن يخرج النفط ويأتي كل هؤلاء الناس. أنزلت صندوقاً صغيراً من الكرتون كان يضعه فوق الدولاب، فدهشت لما فيه؛ تحت قصاصات من الجرائد فوجئت بروايات لنجيب محفوظ وعدة كتّاب آخرين وديوانين لنزار قباني مصفوفين بعناية، تأملتهما، طبعاتهما قديمة وفي الصفحة الداخلية توقيع الشاعر، وتحت أبيات بعينها مرر أبي خطاً بقلم رصاص، لم أغضب، بل صرت أقهقه فتطالعني عمتي برثاء ظانّة أنما اختلط عقلي حزناً على والدي. طفرت من عيني دمعة شوق، كانت حارقة، منذ ذلك اليوم نما حبه في قلبي وزكا. أراه في منامي ونتبادل حوارات ما مكَّننا الزمان من فعلها، دائماً يعاتبني فيها على اتصاله الذي لم أرد عليه. استمريت على عادتي القديمة ولم أنكث بوعدي القديم له؛ لم أقرأ روايات في المنزل أبداً، بل آخذها إلى مكتبي في العمل أو إلى القهوة. أحياناً أتساءل.. لولا كل هذه الحياة التي عشتها والمليئة بالآلام التي حملتها على كاهلي منذ طفولتي؛ منذ طفولتي وأنا أرى الأطفال من حولي يحيط بهم آباؤهم وأنا لا ينتظر فراغي من اللعب إلا أبي.. لولا هذا كله.. هل كنت لأخطّ سطراً على ورقة؟ بقدر الألم في حياتنا تنزف قلوبنا فتكتب أقلامنا. خيوط الحب نسجت لي بساط ريح حلق بي طوال دراستي في الجامعة. في هذا المكتب كنت أجلس مع الصديق نفسه، صديق المتوسطة، ونحكي. يطرق والدي الباب وأفتح له بعدما نضع كتباً أمامنا كأنما نذاكر، يطلب من صاحبي أن يوصل

السلام لوالده ثم يخرج رافعاً يديه وصدى دعائه لنا يشعرني بالذنب، أقفل الباب وأعود إلى قراءة قصة جديدة كتبتها لصاحبي الذي ما عاد يهتم بالأدب وبالقراءة وما عاد يحضر لي أطباق أمه اللذيذة من كشري وحمام بالفريك وغيرهما، صار يستمع لي بفتور وفور انقضاء قصتي يمدحها بسرعة ثم يُخرج مجلات أحضرها معه ويريني صور البلدان التي سيُسافر إليها صيفاً مع أبناء عمه ويروي لي مغامراته في لندن، يشير إلى جداول تقارن بين أنواع السيارات الرياضية التي يحبها ثم نرى بالتفصيل كل ديكورات يخت أحلامه، جعلني أحفظ أسماء مراسي سان تروبيه ونيس وكان. عندما ينسجم في حديثه عن كل تلك الأمور التي لا تعني لي شيئاً، أنظر إليه ويدي على خدي.. وأخته في بالي. لم يكن يدري حينها أنني تعرفت عليها. جاءني رقمها على جهاز البيجر، اتصلت فأفهمتني أنها معجبة بقصتي التي نشرتها في مجلة أسبوعية. استغربتُ من وصولها إليّ على الرغم من الاسم المستعار الذي أستخدمه. راقني حديثها، لكني لم أطمئن إليها كلياً. نبرة صوتها ذكَّرتني بصوت صاحبي، يكادان يتطابقان. لعلها قريبته. مع تعاقب المكالمات، أخذت تصفُ لي مكتبي، فارتعبت، هل هو صديق سمج قرَّر أن يسخر مني بتقليده لصوت فتاة؟ حسمت أمري خيرتها بين إجلاء هذا الغموض أو إنهاء العلاقة فقالت إنها تعرفني من طريق أخيها! لم أتفكر طويلاً بهويته، فخياراتي قليلة نتيجة صداقاتي المحدودة ولا أحد عداه أقرأ له قصصي. في اليوم الذي عزمت أن أخبرها باسمه سبقتني وباحت لي به.. فانقلب الظنّ يقيناً! ثم حكت لي أنه اعتاد أن يروي لها عني وعن كتاباتي. بدأ الحب من حيث لا

أحتسب، أثاث هذا المكتب والكتب التي على الأرفف شهدوا كل أحاديثنا التي نمت كنبتة رويتها من حلو الكلم. من قصصي انتقلت أحاديثنا عن أخيها ثم انتهينا بالحديث عنها. صوتها في يقظتي ينعشني ووجهها الذي يستمد من سمرة النيل بعضاً من حسنه يزين منامي، شغفت بها فتوَّجتها بطلة على كل قصصي، مرة ملكة ومرة أميرة أو سيدة قبيلة، حتى عندما تظهر كخادمة تنتهي قصتها في عرس كبير على ملك وسيم، قصص انهمر عليّ بعد نشرها في المنتدى سيل من المعجبين والمعجبات فلم ألتفت إليهم، فعيناي ترنوان إلى السماء.. إلى النجمة التي صرت أطوف حولها وأسميتها.. حبيبتي. قررت فجأة أثناء مكالمة حلوة (دون أن أعي توابع قراري آنذاك) بأن أسجِّل كل مكالماتنا على جهاز تسجيل الفاكس، كلما امتلأ شريط صففته بجانب أُخَر في علبة خصصتها لهم، علَّ الأشرطة تمسي ذكرى لنا عندما نجتمع تحت سقف وتحين أيام الهناء فنستمع لها سوياً، تحضر الأطباق المصرية مجدداً، ساخنة أكثر. لم أدْرِ أن الأيام ستمكر بنا، الأيام لم تمكر بنا.. بل مكرت بي أنا وحدي فور تخرجي، انتهى ما كان وصارت قصتنا كأي قصة تبدأ بكان يا ما كان. بعدها طلبت النسيان عبر النوم والقراءة فلم أفلح في مبتغاي. مرض والدي وسعيه عند معارفه أثمر وظيفة شغلها نجح في استدراجي للنسيان. العمل صديق النسيان. مع العمل توسَّعت علاقاتي واضطررت لتعليق جدول بأسماء الدواوين التي يجب عليّ زيارتها كل أسبوع كواجب اجتماعي ووفاء لذكرى والدي. هناك كنت ألمح أخاها، فأتجنبه قدر استطاعتي وأحياناً أضطر للسلام عليه، حتى صرت لا أراه إلا

نادراً. أما والدها فأسلم عليه وأصافحه مُكرَها وفاء لذكرى والدي وأتذكر طيبته وحرصه على أن أبدي احترامي للجميع، هل تقتل الطيبة البشر؟ الإرهاق عاد لي، والشاي الذي نسيته قد برد، لا أريده. أقوم وأتجه إلى غرفتي، ألتحف وأغمض عيني. على الرغم من السنين التي مرت لا أستطيع نسيان ملامحها. من الأعلى يأتي صوت المستأجر وهو يمضي وقتاً سعيداً مع زوجته التي فاق صوتها صوته. أتكور كجنين. أنفجر ببكاء كأنني لم أبكِ من قبل. لم أنسَ وجه ذلك الشاب الذي غاب تحت التراب، بقي حياً في ذاكرتي. وجهه يلبس كالقناع وجوه الموتى الذين أراهم، ونحيب أمه هو نحيب كل الآباء في ممرات المستشفيات. ليلتها رأيت في المنام أنني ممدَّد في حجر أمي والدم ينسكب مني بلا ألم، تحاول أن تمسح الدماء بأوراق مالية في يدها فلا تفلح. فزعت من النوم. أصدقكم القول، قد كذبت عليكم عندما قلت إنني عند وصولي إلى المطار استدرت عائداً إلى المنزل دون أن أنزل لأقابل أمي. لم يحدث هذا أبداً، بل ترجَّلت واتجهت إلى مقهى قرب بوابة المغادرين لأقابلها، وجدت أمي جالسة تنتظرني. ابتسامتها وترحيبها لم يكونا ترحيباً بابن طال غيابه، بل لم تكن حرارتها أكثر من حرارة ترحيب غريب بغريب، صفقة تجارية وتنتهي. لما مدت إليّ الشيك، قرأت اسمي فيه متبوعاً باسم أبي، المبلغ ليس هيناً وإن كان لا يمثل شيئاً من قيمة العقار الذي بيع. نظرت إلى اسمه ونظرت إلى اسمها، تأملت اسمه المطبوع بحروف آلة كاتبة، لعلها استنكفت أن تخطّ اسمينا بيدها، بيدي أمسكت بالشيك، مزقته. قمت واستدرت. وقبل أن أمضي نظرت إلى عينيها اللتين لم تجودا

إلا بنقطة ماء مالحة محتها بسرعة. تلك الدمعة عادلت في نفسي كل السنين التي أرادت أن تشتريها بمال. خطوت نحو الباب وغادرت المطار ولم أرها بعد ذلك اليوم.

نادراً. أما والدها فأسلم عليه وأصافحه مُكرَهاً وفاء لذكرى والدي وأتذكر طيبته وحرصه على أن أبدي احترامي للجميع، هل تقتل الطيبة البشر؟ الإرهاق عاد لي، والشاي الذي نسيته قد برد، لا أريده. أقوم وأتجه إلى غرفتي، ألتحف وأغمض عيني. على الرغم من السنين التي مرت لا أستطيع نسيان ملامحها. من الأعلى يأتي صوت المستأجر وهو يمضي وقتاً سعيداً مع زوجته التي فاق صوتها صوته. أتكور كجنين. أنفجر ببكاء كأنني لم أبكِ من قبل. لم أنسَ وجه ذلك الشاب الذي غاب تحت التراب، بقي حياً في ذاكرتي. وجهه يلبس كالقناع وجوه الموتى الذين أراهم، ونحيب أمه هو نحيب كل الآباء في ممرات المستشفيات. ليلتها رأيت في المنام أنني ممدَّد في حجر أمي والدم ينسكب مني بلا ألم، تحاول أن تمسح الدماء بأوراق مالية في يدها فلا تفلح. فزعت من النوم. أصدقكم القول، قد كذبت عليكم عندما قلت إنني عند وصولي إلى المطار استدرت عائداً إلى المنزل دون أن أنزل لأقابل أمي. لم يحدث هذا أبداً، بل ترجَّلت واتجهت إلى مقهى قرب بوابة المغادرين لأقابلها، وجدت أمي جالسة تنتظرني. ابتسامتها وترحيبها لم يكونا ترحيباً بابن طال غيابه، بل لم تكن حرارتها أكثر من حرارة ترحيب غريب بغريب، صفقة تجارية وتنتهي. لما مدت إليّ الشيك، قرأت اسمي فيه متبوعاً باسم أبي، المبلغ ليس هيناً وإن كان لا يمثل شيئاً من قيمة العقار الذي بيع. نظرت إلى اسمه ونظرت إلى اسمها، تأملت اسمه المطبوع بحروف آلة كاتبة، لعلها استنكفت أن تخطّ اسمينا بيدها، بيدي أمسكت بالشيك، مزقته. قمت واستدرت. وقبل أن أمضي نظرت إلى عينيها اللتين لم تجودا

إلا بنقطة ماء مالحة محتها بسرعة. تلك الدمعة عادلت في نفسي كل السنين التي أرادت أن تشتريها بمال. خطوت نحو الباب وغادرت المطار ولم أرها بعد ذلك اليوم.

قرأت أن أحد ملوك الأندلس طلب ممّن حوله عندما حضرته الوفاة، أن يكتبوا على قبره: عاش 12 يوماً! استغربوا، فهو ممدَّد أمامهم على فراش الموت وعمره قارب الثمانين عاماً. همسوا بسؤال، سمعه، فأجابهم بأنه عدّ أيام الهناء في حياته فوجدها كذلك، لم تزِد عن 12 يوماً! ماذا عنكم؟ لو عددتم أيام الهناء في حياتكم لتكتبوها على قبوركم فكم يوماً تكون؟ .. أنا أعلم أنها في حياتي لن تكون كثيرة، لكنها على التأكيد أكثر من أيام ذلك الملك.. وهناك يوم من تلك الأيام في عمري غير قابل للنسيان، ولن يمحوه إلا الزهايمر. في يوم خميس، كنت متغيبة عن العمل، مكتئبة ورأسي ثقيل، لا أريد مغادرة الفراش، أحدق بسقف الغرفة المظلمة دون أن أرمش كأنما أنا ميتة. اتصل بي بسام صباحاً، رددت عليه بعدما حدقت باسمه على شاشة الهاتف لوهلة. سألني عن صحتي ليطمئن فطمأنته، ألحَّ إلحاحاً غريباً عليّ بأن أرتدي ملابسي وألتحق به في مطعم فندق في المنطقة الحرة. قمت بصعوبة، لا أريد أن أحرجه، لأن مزاجي لا يسمح لي برؤية الضوء خارجاً، محاولاتي للتملص لم تنجح، وضعت على عيني نظارة معتمة وخرجت. وصلت إلى المنطقة الحرة حيث الفندق. نجح في انتزاع ابتسامتي عندما برر غيابه اليوم عن العمل بعدوى فيروس التسيب الذي التقطه مني! تناولنا إفطاراً خفيفاً وتحدّثنا أحاديث

أنعشتني، صوته ورائحة القهوة انتشلاني من مزاجي المعكر، لا معنى للصباح إلا أمام عيني مَن نحب. نهض وطلب مني أن أتبعه بسيارتي، خرجنا من المنطقة الحرة، وسلكنا طريق الجامعة مروراً بالصليبيخات والبحر عن يميني. طوال الطريق الساحلي كنا نتحدث بالهاتف. صوت الرويشد يزاحم سؤالي الساخر: هل تأخذني إلى مقبرة الصليبيخات؟ فسحة صمت، شدا الرويشد: أنت هذا أنت، عمرك ما تتغير. فيراوغني بسام ويرد السخرية بسخرية: نعم، ألم تقولي أنك ستموتين في سنٍّ مبكرة؟ فيكمل حديثه بعد أن يتمنى أن يكون يومه قبل يومي وأستسلم لصوته، تكمل الأغنية: لك في الغموض كل الغموض، لك في الكلام كل الكلام. تكشفت الإجابة أكثر ونحن نقترب من مكان نقش في الذاكرة، دخلنا إلى مواقف سيارات المدينة الترفيهية الخالي، لم أستطع أن أتوقف عن الضحك، قهقهت كمخمورة. نزلت من السيارة فأمسك بيدي وشدّ عليها. عند الشباك مد لنا الموظف بتذكرتين وهو يروزنا بنظرة شكّ وغيرة لم نبالِ بها. آخر عهدي بهذه المدينة في أوائل التسعينيات، بعد التحرير، عندما زارنا أقاربنا من أبو ظبي. من لحظة دخولنا تسامقت ذكريات الطفولة أمامنا، تجاهلنا أن الملاهي لم تكن كما هي في مخيلتنا، شاخت كل تلك الألعاب كأنما كانت تتجرع الحزن يوماً بعد يوم. هل يشيخ الجماد؟ صعدنا مع السندباد سفينته وسافرنا معه في رحلاته السبع. لم نترك لتداعي المكان أن يؤثر على تداعي الذاكرة، صرنا نعيد ترميم ما نراه أمامنا ونتسابق في تذكر الأماكن، الأسماء تغيرت.. ما اسم المطعم الذي كان محل مكدونالد؟ ما هي أجمل لعبة بين الألعاب الإلكترونية؟ وبين ما

وما.. انتبهنا بأن ذاكرتنا في هذا المكان المقفر كلما أتت بصور، جاءت بوجوه ناس ضاحكة وسعيدة. أين ذهبت تلك الوجوه؟ هل كانت سعيدة حقاً؟ لا نرى في المولات إلا وجوهاً بابتسامات متقنة الصنع. تبدل معاني الأشياء سبب رئيس لأمراض الحنين. سمعته يقول بأننا يجب علينا أن نقتل الحنين. شددت على راحة يده اليمنى التي أمسكت بيدي ونحن نمشي وسألته عن السبب. ضحك ضحكة بنكهة البكاء وأطلقها بسخرية: هوايتي قتل الحنين. طيف والدته في عينيه واضح. لولا الحنين لما تجرأ حزن على حبسنا بين جدرانه. تجاهلت السؤال الذي غمر عقلي: هل ابتعاده عن والدته سببه أنه فضل المكاسب المادية بأقل قدر من الألم؟ حرقة السؤال لم تنجح في حملي على النطق به، فمثل هذا الفضول يمنحه الحق في أسئلة لا أريد لنصالها أن ترتدّ عليّ. ركبنا السيارة التي تتجول عبر أشهر معالم العالم كبرج إيفيل والبيغ بين وتاج محل وغيرها، ألصق رجله برجلي، سرى تيار منه لي. اقترب من أذني وباح لي بحلمه؛ أن نكون في هذه الأماكن لوحدنا في يوم من الأيام، لم تستطع أن تغادر كلمة آمين حنجرتي، تعمَّدت ألا أنظر إلى عينيه، لأنني علمت علم يقين بأنني لن أتمالك نفسي أمامه. على الغداء ترددت في اختياري، انتظرني إلى أن انتقيت وجبة ماك فيجيتبل، فنظر إلى البائع الفلبيني ورنَّت في أذني الكلمتان اللتان توقعتهما منه: مي تو! على الطاولة لمس يدي، سحبتها منه واستغرب مني عندما استفسرت منه سبب ترداده لـ: مي تو.. في كل مرة نجلس في مقهى أو مطعم، دائماً يستنسخ طلبي. أرجعت يدي ثانية له عندما برَّر تلك الكلمتين.. بسام شاعر ضيَّع درب الشعر. بعد

خروجنا من المطعم مشينا قليلاً وفي زاوية أبصرنا كشكاً خشبياً لأول مرة أنتبه له، يؤجر دراجات هوائية. نظر بسام إليّ فأومأت برأسي موافقة، اتجه إلى الرجل وعاد لي يسألني إن كنت أتقن ركوبها، فأفهمته بأنه لا يمتلك شيئاً من مهارتي بقيادتها. رفع رأسه ضاحكاً، قلب يديه وهو ينصحني بأن أبيع غروري فكميته زائدة عن حاجتي. عاد لي بدراجة وردية وهو يجز على أسنانه بخبث ويبرِّر اختياره بأنه لم يجد غيرها والوردي لون للبنات. المهم.. أخذت أقود دراجته الزرقاء وهو يقود دراجتي الوردية مُكرَهاً، وضحكاتنا تتطاير في الهواء، ضحك القلب الصادق دليله دموع العين. كانت المدينة الترفيهية خالية من الناس، كأنما نحن في حلم. سألته إن كان قد حجز الملاهي لنا لوحدنا. رفع حاجبه الأيمن بثقة وبنبرة الواثق طلب مني أن أبقي هذا الأمر سراً. أشرت إلى مدخل وتسابقنا حول من سيدخله أولاً، عندما اقتربنا منه اكتشفت أنه أضيق ممّا توقعت. اصطدمت بدراجته. سقط على الأرض، قفزت من دراجتي وهرعت نحوه، تهكّم على قيادتي، رفعته، قام، لم يصبه شيء، أمسك بيدي وشدني صوبه، عيناه قبال عيني، أحسست بأنفاسه الحرّى وهو ينطق بتلك الحروف الأربعة.. الحروف التي عرّفني معناها قبل أن أسمعها منه لأول مرة.. أحبك. تساقطت كل تلك السنين التي تراكمت فوق سن المراهقة. نبض قلبي بقوة خوفاً.. وحباً، كنت أعرف أنني بت أرغبه بكل ما فيَّ من رغبة، لكن الموانع أمور قد تهلكنا. مع تماسّ الشفاه، نلت منه بعض ما اشتهيت، لم أرتوِ، لكنها رشفة قد تمنع عني الموت عطشاً. رغبت من شغاف قلبي بأن ننبتَّ عن هذا العالم، أرفع يدي

وأقطع سلك هذه الحياة الزائفة، فأوقف كل تلك القوانين والعادات والتقاليد السمجة وأردم تلك الحفر التي تضيع حياتنا تيهاً فيها. يرتدي قميصاً أزرق أهديته إياه في عيد ميلاده، وسيماً كما ينبغي لرجل، عطره الذي أعشقه يتضوع، كم من مرة حاولت أن أعرف اسمه لكي أرشّه في كل مكان فيتلاشى بعض من تأثيره عليّ، فأخفى اسمه عني بمَكر. صمت غمر الكون، لحظات الصمت بيننا قليلة، وعلى قلتها.. عندما تأتي، تصطحب معها الرغبة في ضمة تُذهب كل ما في النفس من ألم. لماذا نعطش لحضن في مثل تلك اللحظات؟ ليلتها كتبت في الفيس بوك جملة بهذا المعنى. أحسستُ بجناح ينبت لي من ظهري، الحب يمنحنا أجنحة. أغمضت عيني، رغبة الطيران إلى قمة ذلك الجبل معه تراودني. أشرب معه شربة من ذلك النبع، ولن نرجع بعدها إلى الأرض ثانية. أحلام الأجنحة لم تتركني طوال طريقي إلى المنزل، تلك الليلة لم نهاتف بعضاً، ما حدث أسكرنا. استمريت في استرجاع كل ثانية قضيناها هناك. للصمت بلاغة لا تضارع في حضرة الحب. فتحت الفيس بوك، قلَّبت رسائله، أعشق رسالة منه فيها تعبير كوميدي تراجيدي أحفظها، يصور فيها أنه طوال حياته ظنّ أنه في نعيم، يمشي بين البساتين، وفجأة سمع دوياً، صوت انفجار، اقترب يستطلع وإذ بالدنيا التي أحاطت به كانت سجناً رسمت جدرانها بعناية، وأن الصاروخ قد صنع فجوة أطلَّ منها، فإذا بكون شاسع لا حدود له في الخارج، صار يتسلل من الفجوة ويعود إلى سجنه في الليل وفي يوم لن يعود إليه أبداً.. في ختامها وضح أن الصاروخ كان أنا! دلفت إلى معرض صوره الشخصية على الفيسبوك التي حفظتها،

رب صور لا تعبّر عن البشر، قبّلتها، نعم قبّلتها وليست تلك أول مرة ولن أستحي أن أعلن ذلك. صوره القديمة معها أصابتني بكمد، تقلبت في فراشي من القهر، أريد سماع صوته ولا أستطيع، أمسكت بالهاتف وفتحته على رقم هاتفه وكدت أضغط الزر الأخضر وأتصل، رغبتي به مجنونة، يغدر بي خيالي ويصور لي زوجته وهي تردّ على المكالمة فتحرمني منه إلى الأبد. رميت هاتفي بعيداً، تكّات الساعة بقربي أنهكت أعصابي، أمسكت بها وقذفتها في الحائط أمامي فتناثرت أجزاؤها على الأرض، فتحت الدرج لقيت البومة الخزفية بقبعتها الزرقاء وكتاب تحت جناحها، اشتراها لي من باريس أثناء رحلته معها قبل أشهر، نظرت إلى عينيها، اختفى المعنى الذي سكنهما، رميتها فانشطرت قطعتين. ابتلعت ثلاث حبات ثم دفنت وجهي في المخدة وأنا أسب وألعن، قبل فترة تعرضت لهزة نفسية، قصدت شقته في أعلى عيادة أسنان يملكها صديقه ولجأت إليه وخلونا ببعضنا، ليتني ما صددته وليتني شربت ما سكب لي، ليته قاومني، ليتنا.. نجح المنوّم بأن يميتني ميتة صغرى. وجدت بسام في المنام، أوصدت باب الحلم علينا بهيت لك.. وارتويت.

ما يقوله الناس عبر أحاديثهم مهم والأهم هو ما لا يقولونه. منذ دخل بسام مكتبي وبيده رواية ساراماغو وجلس، ربض مثلما توقعت؛ محاولاته لتصنُّع الهدوء واضحة، بصره يروغ للصور من خلفي، أطرافه متوترة ناولته كوب شاي لأعرف فعرفت. يوسف أخبرني ما أخبرني، لكني آثرت المعاينة. حكى لي ما انطوى عليه منامه، مقارب لبعض ما رواه يوسف في مواضع ومفارق في مواضع أُخرى، يوسف لا يُعتمد على روايته. تُهت مع حديث بسام في البداية فكدت أحسم أن الموضوع لا يعدو سلطة أب وما انطوت عليه لاحقاً سلطة زوجته المعنوية بسبب ثراء أبيها بالتسبُّب بشعور متراكم بالتقزم، وكدت أجزم أن الذي يصرخ في المنام بأنه سيموت ليس إلا بسام، لكن عوارض الاكتئاب التي لاحت في زوغان عينيه وأمور أخرى حوَّلت مسار تحليلي إلى موضوع آخر. ثمة حيلة أجرِّبها في كل مرة وتنجح.. الموسيقى. عندما أبدأ في الشك في حالة أمامي ألجأ إلى النغم الذي ينبش كل الركام حول الروح؛ ألم تروا أنّ أكثر الناس رزانة متى ما عرضوا لموسيقى ضربَ، أثقَلُهم مزاجاً، رجله طرباً؟ أدرت قرصاً لموسيقى سيرة الحب؛ منذ بدأت آية القانون بطول عمري بخاف... راغت عيناه للحائط خلفي مسلطتين على مكان ليس هنا، زادت وتيرة شربه للشاي، جسده قابع على الكرسي وروحه تحلق في فضاء آخر.

ككل عاشق، صار مختنقاً في المسافة بين البوح والكتمان. قمت لأحضر كوباً آخر، ليشعر أنه اختلى فتمّ لي ذلك. انساب من حديث إلى حديث إلى حلم جديد لا أدري لماذا رواه لي، اختار أن يسرد لي مناماً قال إنه لصاحب له. اجتذبني الحلم، تشوَّشت، ماذا لو كان هو حلمه ويكذب عليّ؟! لكنه رواه بفرح، فتيقنت أنه حلم لصاحبه أو صاحبته التي لمَّح لها يوسف. مفاتيح الحلم سهلة وتفكيكه مريح جداً، لكن مكمن الصعوبة في كيفية إيصال ما ترجمته إليه. بعد تردُّد قصير قررت أن أواجهه سواء كان له أو لصاحبته. الحلم إن كان لفتاة كما أميل فقد تعرّضت لتحرش جنسي غالباً في طفولتها لا أعرف مقداره، لكنها كتمته ولم تخرجه للناس، عندما ضعفت وضاق صدرها بالسرّ حاولت عبر نفخ المفتاح الذي تحوّل صافرة إخبار من حولها فلم يفهمها أحد أو يُعرها اهتماماً. مؤلم هذا الأمر الذي منه تبدأ شخصية الطفل بالتشظي. لا يحول هذا دون نجاحه في حياته العملية، لكنه يصنع حاجزاً عالياً يحتاج إلى وثبة مرتفعة. عندما انتهيت من قراءتي للحلم انتبهت لاستغراقي بالتأمل ولم ألحظ صدره المتهدج وتحشرجه، وما وعيت إلا وهو ينخرط في نحيب ثم بكاء، هالني المنظر. قمت من فوري أمسكت به وقُدته إلى الحمام وطلبت منه أن يغسل عينيه اللتين توقدتا كجمرتين. بعدما نشّف وجهه بمناديل مددتها له. بدا خجلاً، برر دموعه وانهمارها بحساسية وضغوطات في العمل ومشاكل في المنزل، لم أعلق. تذكرت حباً قديماً لم أنسه قط، من أحببتها رحلت أثر مرض عضال اختطفها فجأة. لمَّح بسام إلى نميمة يوسف ضاحكاً، فهمت ما يرمي له وأخبرته بأن

سره مكتوم وما حدث في المكتب سيظل فيه، فشكرني بتنهيدة واغتصب ضحكة من بين حالة الحزن الشديد التي مرت تواً. كتبت له وصفة لدواء مضاد للاكتئاب، ونصحته -وأنا أقدِّس الحياة الزوجية- بالتنفيس عن كبته العاطفي بأي طريقة شاء. تساؤل لم أحر جواباً له، هل فقد حبيبته إلى الأبد ولم يستطع أن يخرج من صدمة الفقد؟ انساب الحديث من مواقع التواصل الاجتماعي نحو السياسة في هذا البلد، في حديثه انتبهت إلى بعض المقولات العنصرية التي لم أستغرب أن تخرج منه فهو نتاج بيئة رضع فيها العنصرية، لكنه لا يدافع عنها بحماسة، بل مجرد أصوات خالية من المعنى. عيناه تلوح منهما حياة وترجع لتنطفئ. انشغل بالنظر في هاتفه. حدثته وأنا أشير إلى الرواية في يده عن كاتبها وزوجته بيلار التي أهداها كل رواياته. وأنني قرأت هذه الرواية تحديداً ثلاث مرات، بطلها يسير في متاهة البحث عن امرأة ما رآها قط. أكثر من النظر إلى الساعة والإمساك بمسندي المقعد، فقطعت حديثي عن الرواية وأخبرته عن موعد لمحاضرة اقترب وعليّ الذهاب، فنهض وصافحني بقوة وشدّ على يدي يذكِّرني بالسر الذي يجب أن يظل بين الجدران الأربعة. ودَّعته ووقفت عند النافذة وأنا أراه يقطع الشارع نحو سيارته.

8

فصل: اعتذار وتوضيح مختصر عن الشأن السياسي و.. (ن)

أعلم أنني أخلفت موعدي، حيث يفترض أن أكتب هذا الفصل محلّ فصلٍ من الفصلين السابقين كما وعدتكم فما استطعت، وصدق عبدالوهاب لما قال لي إنّ التخطيط لا يمتّ بصلة للكتابة فهي تفرض قوانينها. لن أسهب وأطيل فكتابة الرواية على الأصول يفترض أن تخلو من فصول شارحة إلا عند الضرورة، والقراء لا يحبذون الإطالة والشرح لأمور يعرفونها وعايشوها. المهم أنني كما قلت سأختصر قدر المستطاع فالوضع السياسي في الكويت متراكم وشائك، كلما بحثت عن أرض صلبة أقف عليها وأنطلق منها وجدتني أرجع إلى الوراء حتى ظننت أنني سأرجع إلى ثلاثينيات القرن المنصرم. قررت أن أتحدث عن المناخ السياسي الحالي، عند خروجي من مكتب الشيخ عبداللطيف كنا في أواخر عام 2010 والجو السياسي في الكويت ملوّث بشدة بالمال السياسي، والحزازت في نفوس المواطنين بلغت مبلغاً لم تبلغه سابقاً. فقبل عشرة أيام ضُرب مواطن (سنرمز له بـ (ج)) ضرباً

مبرحاً عندما حاول أن يشارك في ندوة للمعارضة رغم موالاته الكاريكاتيرية للحكم ممّا أحال هذا الأمر لتفسير نظرية المؤامرة! هذا المواطن بات وجهاً مألوفاً عبر قناة فضائية أو قناتين قيل إن رئيس الوزراء يموّلهما ضمن تمويله لمنظومة إعلام فاسد تستهدف النيل من المعارضة وتستخدم في سبيل ذلك كل الوسائل الخسيسة، لكن، دون دليل ملموس على هذا الاتهام عدا الظن. بعض تلك القنوات لم تكن تعرض سابقاً إلا الأغاني والمسلسلات والبرامج الحوارية الهابطة، وفجأة، تحوَّلت إلى السياسة وجمعت شخصيات هامشية تعيش على أطراف المجتمع من صحافيين وكتّاب للهجوم على المعارضة. ومن هذا الباب تخصّص (ج) في شتم وتجريح أشهر قبيلة تتألف منها المعارضة حتى أنه أسَّس قناة شخصية له بتمويل غير معلوم المصدر. وجعل برامجها تنصب في سبّ أهم رموز المعارضة من البرلمانيين ويظل ملوّحاً طوال البرنامج بملفات فساد مالي وأخلاقي تدين هذا الرمز ولم نرَ ما بها (قيل إنه لم يزِد عن تقليد غير متقن لرمز المعارضة الذي لطالما لوّح بملفات لم يكشف ما فيها يوماً). فانتهى به الأمر مطروحاً على الأرض والدماء تسيل من رأسه، وقيل إن عموده الفقري تعرض لكسور. انقسم الجميع إلى كتلتين، من ناحية اصطفت المعارضة وفي ظلها أبناء القبائل الذين رفعوا شعار المظلومية التاريخية وأبناء التجمعات الدينية الحركية كالإخوان (الذين ينفون صلتهم بالإخوان دائماً) وبعض رموز الحركات الوطنية. ومقابلها كتلة الشيعة (وأيضاً لديهم مظلومية تاريخية قد تمتد لقرون حسب زعمهم) وبعض النواب

الذين وصموا لاحقاً بالقبيضة وطبعاً رئيس الوزراء الذي صوّرته أدبيات المعارضة كإبليس.

سأرجع قليلاً إلى الوراء وتحديداً في نهايات عام 2009 قبل أن تستقيل (ن) وتختفي بشهر أو اثنين..

.. صنعت (ن) علامة النصر وهي تدخل المكتب وقد اقتربت نهاية الدوام. أشرت إليها بالجلوس فقد أعداني فرحها المجهول ولا أذكر أن لها ترقية في الطريق!

«دحرجنا كرة الثلج».

لم أفهم في البداية قصة كرة الثلج فذهب ذهني إلى ثلج لبنان واقتراب رأس السنة، فأنا أتزلج هناك كل عام مع يوسف. أعادتني من منحدرات فاريا عندما بدأت تقصّ لي بأنها وأصدقاءها المدونين قد رصوا الصفوف مجدداً وصار هدفهم إسقاط رئيس الوزراء عبر حملة إلكترونية تحت عنوان (ارحل نستحق الأفضل) لم تترك لي فرصة العتب لأنها لم تخبرني قبلاً ويبدو أنها وجدت عذراً قبيحاً.

«أقسمنا وتعاهدنا ألا يخبر أحد أحداً».

استثنائي من الإخبار بلعته على مضض وقلت:

«غروركم سيقتلكم».

بعد نجاح حملتهم التي اتخذت من اللون البرتقالي رمزاً واشتهرت بـ«نبيها خمس» وإرغامهم الحكومة على تقليص الدوائر الانتخابية من خمس وعشرين إلى خمس وذلك لخلخلة المرتكزات الطائفية والقبلية والطبقية للانتخابات علَّ تغييراً إيجابياً يحدث، ارتفع سقف مطالبهم وباتوا ينظرون إلى السماء كهدف قادم.

حدثتني بالتفصيل عن موعد انطلاق الحملة، وعن كتّاب الأعمدة الصحفية الذين سيؤازرونهم. أحب مناكفتها فوصفتهم بذباب الخيل الذي يوكل بهم الذيل، فلم تضحك.

«**سنقطع الذيل..**».

لم تفاجئني الجملة قدر تلك النظرة الساهمة نحوي، وأنا متأكد بأنها لا تراني، بل ترى شخصاً بعينه كأنما بينها وبينه ثأر. أكملت مضايقتي لها فغليلي لم يشفَ بعد؛ وصفتهم بأنهم حالمون ولا يريدون أن يستيقظوا. عادت نظرتها نحوي وارتفع صوتها تدريجياً حتى أني قمت وأغلقت الباب الذي لن يفلح بحجب الصوت. انتبهت فخفضت من صوتها وابتسمت بخجل. بدأت حديثاً عن الأجيال الجديدة والمنفصلة عن موروثات الآباء البالية وقد بلغت سن الرشد ولا تريد وصاية من نواب وسياسيين أشرفهم يداه ملوثتان بواسطات ومعاملات تقفز فوق القوانين. قالت شيئاً عن قطار ركب السكة، وأن التطور يحتم علينا ألا نتوقف إلا قليلاً في محطة رئاسة وزراء ينتخبها الشعب ثم نكمل إلى النهاية المحتومة والطبيعية، فالعالم يتغير بسرعة، ولا يجوز أن يدير البلد مَن شهادته لا تؤهله لوظيفة مراسل في وزارة. وردَّدت مصطلحها المفضل.. الصدفة البيولوجية! وأن الأسرة الحاكمة -بغض النظر عن مبايعة تاريخية قد تكون وهماً عند التحقيق التاريخي حسب تحليلها وكادت تنتزع إبان مؤتمر جدّة- يجب أن تحترم الشعب وأن يسلموه الحكم، لا أن تعيد النظام البرلماني وقد عبثت به عبر نوابها من قبائليين وغيرهم بتنفيعهم بالفتات وصب المال في أفواه العائلات ذات الحظوة والجماعات الإسلامية. وألا يستمروا بدور

حكم المباراة الذي يعبث بالقوانين لصالح هذا أو ذاك.

«تلك العائلات هي من صَنَعَ الكويت.. يا أستاذة».

«بسام، لو مرَّرنا كلامك على عواهنه، بعد النفط تم شراء كل ذلك التاريخ الذي تزعم نقداً عبر مناقصات الدولة، ولم يبقَ من ذلك التاريخ إلا أسماء لمدارس أو شوارع».

قرأت شيئاً شبيهاً لكلامها في بعض الصحف، وسمعت مثله في بعض الديوانيات، هل تفسد السياسة الحب؟

«من اشترى مَن؟ هو حقنا الطبيعي ونحن شركاؤهم».

«وبقية الناس، عبيد في شركتكم؟».

دبت فيَّ الحرارة فجأة، كنت على وشك أن أقول لها إن كل حرقتها تلك ربما لأن ليس لديها تاريخاً لتبيعه، لكني بهذا الردّ أثبت التهمة. تركتها تكمل.

«حبيبي، العوائل تعودت على الرضاعة من ضرع الدولة، حتى الرضيع يفطم بعد عامين أما أنتم فلم يكفكم نصف قرن».

كلمة حبيبي خدَّرتني، لم أخرج الحمم من جوفي فتحجّرت.

«بلد يغرق في رمال التاريخ المتحركة».

«تلك العائلات هي من صَنَعَ الكويت.. يا أستاذة».

أصدقكم القول، عندما تلفظت بهذه الجملة ثانية لم أستشعرها كما كنت سابقاً، تسرب لها شيء من التهكم. لاحقاً استرجعت مواقف سابقة لي وحاولت -بلا جدوى- أن أعرف متى بِتُّ هكذا!

«إن سلمنا بذلك، فهاهم أخذوا حقهم وزيادة، ألم يشبعوا؟!».

لا أذكر إجابتي. بعض الأسئلة تعمل فينا كالمزاميل تعيد نحتنا. عندما أستحضر ذلك اليوم وأنا أكتب، يختلط عندي الفرح بالحزن، فبعده بشهر تقريباً. رحلت (ن) واختفت.. لتتركني مع كل الأسماء.

أعود للتوضيح السياسي المختصر ولـ (ج) الذي رقد في المستشفى وصدرت بيانات التنديد بضربه من مجلس الوزراء وزاره من زاره منهم. هل ذلك من باب تواصل القيادة بالشعب؟ ربما! هذه التصرفات وغيرها منذ عشرة أيام، زادت من الصراخ المتبادل بين النواب والحكومة، وفتحت القنوات الفضائية أبواب جهنم والتي لا أعلم إلى أيّ درك سنهبط فيها بعد! ثم منع أي تجمهر خارج الدواوين في أي ندوة لئلا يُعاد سيناريو الضرب أو ما شابه. ثار النواب فالحريات السياسية والتجمعات التي كفلها الدستور حسب رأيهم تتعرض لتدمير ممنهج ممّن لا يريدون الديمقراطية ويكرهون اليوم الذي أرساها الدستور. فتنادى النواب إلى ندوة تجمعهم في ديوان النائب جمعان الحربش بالصليبيخات بعد أسبوع من هذه الأحداث ليتحدثوا أمام المايكروفونات عن كل هذه الأمور. بين قرار الذهاب إلى هناك من عدمه تأرجحت، كنت أقصد كل تجمع تعقده المعارضة لعلّي أصادف (ن). اعتادت أن تشارك فيها. لم أصادفها مرة. التفكير جعلني أقود سيارتي هائماً في الشوارع من غير هدى، ذهبت إلى يختي في مرسى سوق شرق، شغلت المحركين وخرجت حتى صارت العاصمة بناطحات سحابها أمامي، أطفأت المحركات، أنزلت المرساة، استلقيت على المقدمة، غفوت لدقائق من أثر تأرجح اليخت بنعومة. رأيتني في

غرفة مراقبة والكل متوتر ويصرخ، أسأل مَن فيها عمّا يجري، تجاهلني الجميع، سمعت عبر راديو مذيعاً ينبّه بأنّ هناك موجة بحرية عملاقة قادمة من المحيط ستُغرق البلد، حاولت أن أهرب، لم أستطع فتدافع الجميع للخروج حال دون خروجي . . أُغلق باب غرفة المراقبة عليَّ ومن خلال نافذة الباب المدورة ظهر وجه مَن أراه في المنام يناظرني بسخرية ويحرك شفتيه وهو يوصد الباب، اجتاح الغرفة الماء وأغرقني لذقني، حبست هواء في صدري، غمرني الماء . . فزعت من منامي. . وأدرتُ المحركات وعدتُ باليخت إلى المرسى وركنته وركبت سيارتي وعدت إلى المنزل. في الصالة وجدت عبدالمحسن يبكي وأمه تحتضنه منتحبة.

كنت في المقهى عندما ظهر اسمه على الهاتف كانبعاث ميت من قبره. تركته يرنّ حتى صمت، لماذا أردّ وقد يكون اتصالاً بالخطأ؟! نحتاج إلى سلة مهملات نرمي فيها علاقاتنا منتهية الصلاحية. لم أمسح رقماً من قبل وحتى مَن توفي من أقاربي أو أصحابي لم أجرؤ على مسح أسمائهم من هاتفي، هل هو جبن وخوف من الاعتراف بأنني لن أراهم مرة أخرى؟ رن الهاتف، اسم بسام الميلان يشعّ ثانية. رددتُ عليه. صوته يأتي من الماضي من ذكريات أكون كاذباً إن قلت إنها لم تشوِني على سفودها طوال سبع سنين، منذ ذلك اللقاء الأخير. استعدتها بكوابيس قمتُ بعدها باكياً ولم يتبقَّ منها إلا وجهه الضاحك الساخر ومن ورائه أخته تشاركه الضحك. سأل عن أحوالي وعملي، هل يريد حقاً أن يعرف أنني لم أفكر بالزواج ثانية ولماذا لن أفعل؟ لا أظن، فصوته بدا تائهاً. أعدت طرح أسئلة الأحوال والأعمال نفسها عليه فغار صوته. قفزت فوق الصمت وسألته إن ألمّ به أمر. تلعثم وقال إنه قصدني ليستشيرني بخصوص أحد أصدقائه الذي تعرَّض ابنه لتحرّش من صديق لسائقهم ثم فرَّ هارباً، ماذا يفعل وإلى أين يتجه؟ ثم تحدث عن الفضائح وأن صديقه لا يريدها. بسام لم يتغير، يستغبي الآخرين عندما يتحدث ويفترض أنهم يصدقونه، يكذب ويغير ويحرف الأحداث لتتناسب مع هواه ويتلاعب بين الإتقان والإهمال

وأنا متيقن بأنه فعلها أو سيفعلها معكم دون أن تنتبهوا وستصدقونه. أنا ضحية سابقة، أصدِّقه مهما قال، أما الآن فلن أعود إلى سيرتي الأولى. سألته مباشرة إن كان يقصد ابنه، ردّه بكاء أذاب ثلج تلك السنين. عاد لي وجهه الطفولي، أخبرته بأنني في مقهى قرب مبنى البورصة وأعطيته العنوان وانتظرته. لم أستطع إكمال الرواية التي بين يدي، بل نسيت كل المصائب والمصاعب التي مرّ بها البطل بعد خروجه طفلاً من غرناطة متجهاً إلى المغرب. طويت الكتاب، ارتشفت من المودكا رشفة. لم يستقر قلبي على إيقاع، كلما قربت الذاكرة تلك الكوابيس تسارعت النبضات. أطوي الرواية وقد عزمت على الذهاب ثم أتردّد وأفتحها حين أتذكر صوته الضائع فيغتالني الحنين. يحرِّضني الانتظار على التذكُّر، أمطرتني الذاكرة بوابل نبش التراب الذي راكمته الأعوام. استعدت صوتها في آخر مكالمة لها استوطنت ذاكرتي:

«السلام عليكم، اتصلت عدة مرات لم تجب، فاتصلت بجهاز تسجيلك وقررت أن أضع لك رسالة. عزيزي، الحياة لا تستقيم على حال أبداً. والزواج كما تعرف قسمة ونصيب، ونصيبي قد أتاني وأنت تعرف ما حدث لذا لن أشرح. أخي بسام لا شأن له. ما جرى بيني وبينك مجرد طيش شباب، وهم حب، إن شئت قل أياماً جميلة، لكنك يجب أن تعي أنها ذهبت بلا عودة. من كل قلبي أتمنى لك التوفيق في حياتك وأن تجد امرأة تستحقك وتستحق قلبك الطيب. ستكون هذه آخر مرة تسمع فيها صوتي.. مع السلامة».

(ن)

لا أحب أن أكتم عن بسام شيئاً، هذه المرة أخفيت عنه تخطيطنا لحملتنا الإلكترونية (ارحل نستحق الأفضل) لأنني لا أريد لدوامة المشاكل التي دارت أيام حملة (نبيها خمس) البرتقالية أن تعود وترجع المضايقات؛ أولها عندما وجدت الإنترنت مقطوعاً عن حاسوبي في المكتب. حاولت أن أصلح العطل، لم أجده، كل شيء سليم كما يجب. اتصلت بقسم الدعم الفني فبدأ مشوار من المماطلات إلى أن أسمعني مديرهم عبر الهاتف باستخفاف رأيه بأنني لا أحتاج إلى الإنترنت. كل القرارات الغبية تبدأ هكذا، اشتطت غضباً، وقصدت مكتبه وأخبرته بأن هذا ليس من صلاحياته فهو غير مخوّل بتحديد احتياجي من عدمه. ربما رفعت صوتي، لم أتمالك أعصابي فإشارة يده تطلب مني أن أخرج بوقاحة. أعرف أنه شاذ وحاسوبه مليء بصور مَن هم على شاكلته، لكنني لا أريد أن أحكم على أحد بناء على ميوله، يومها رميته بكل سوء. جاء في التقرير أنني رميت عليه مطفأة السجائر. أقسم أنني لم أفعل، بل ليتني فعلت. رجعت إلى بسام فأخبرته، اتصل بأكثر من جهة، ومع كل اتصال عرفت من وجهه أن ثمة خطب، طلب مني الذهاب إلى مكتبي وخرج ثم عاد بوجه لم آلفه وتحدث بنبرة لم أعتدها. أخبرني أن المشكلة أكبر من ذلك الشاذ، فثمة شكوى قد وصلت إلى العمل بسوء استخدام الكمبيوتر في أمور تَمَسّ أمن الدولة. مع

تلك الكلمتين أحسستُ ببرودة من قدميّ تصل إلى ركبتي. جمّد التحقيق، وتناسيته وصرت أحضر حاسوبي معي. بعد أسبوعين وجدت عند المدخل جهاز تفتيش إلكتروني وعم إسماعيل يقف بجواره يعتذر وهو يشير إلى ورقة تعميم معلّقة على الباب تمنع إدخال أجهزة الحاسوب الشخصية إلى العمل. ثم عاد كابوس التحقيق وتهديدي بالفصل، تابعني بسّام من بعيد. أعلم أنه دافع عني واستطاع عبر نفوذه أن يُسكِت ما استطاع إسكاته. فانتهى كل شي مع نجاح الحملة.. أو هكذا ظننت. مع تدشيننا للحملة الجديدة الموجَّهة ضد رئيس الوزراء لإزاحته، عادت التحقيقات بشراسة. رجع بسّام وقاتل معي، لكن موقفه بات ضعيفاً جداً فقد نفخوا الروح في ذلك التحقيق وظهر شهود يساندون مدير الدعم الفني. حذروني من إيصالها إلى الإعلام وخاصة الصحافة، فوافقت. لم يعرفوا أن كتّاب المقالات الذين وعدونا بالنصرة وأعطونا الشمس بيد والقمر بالأخرى نكصوا وعادوا إلى اللعب على الحبال وحمل العصا من المنتصف كالراقصات. لقد أحكموا الحبل حول رقبتي، تعبت في انتظار أن يركل أحد الكرسي من تحتي.. فقفزت. كتبت استقالتي على عجل ولم أخبر بها بسام، وضعتها على مكتب مبارك. خرجت دون أن أنظر خلفي. لا أريد أن أرى وجه بسام فأنكسر.. لا أحتمل فراقه. لم أردّ على اتصالاته الكثيرة ورسائله النصية. بعد أسبوع من الاستقالة مررت باكراً على مدخل المبنى وسلَّمت عم إسماعيل مغلفاً وضعت فيها نسخة من رواية **كل الأسماء** لساراماغو بعدها بليلتين قررت أن أغلق هاتفي وأبتاع لي رقماً هاتفياً آخر، لعل النسيان يطرق بابي.

ليلة إغلاقي الهاتف، رأيتني في المنام أقف مع بسام عند بائع مثلجات، اشترى لي آيس كريم بطعم الفراولة التي يعلم أنني لا أحبها، أشار نحو بالونات زاهية وانتقى لي بالوناً، ألحّ علي أن أمسكه، واعتذرتُ بالتهامي للآيس كريم. صار يرتفع عن الأرض، صرخت به أن يفلت البالون من يده لم يفلته وظلّ يرتفع ويرتفع... كنت أنتحب مجدداً. نظرت إلى الهاتف القديم في الدرج بجانبي، شاشته ميتة، عزمت التراجع عن قراري للحظة وتشغيله، لكنني حسمت الأمر وأغلقت الدرج، سأكره نفسي على فراق كان آتياً لا محالة.

(ج) كلب وابن كلب، من هو حتى يضع رأسه برأس رموزنا؟! بلغت به الجرأة أن يسبّ قبائلنا تاج رأسه يومياً ولا أحد يسكته؟ لولا أن جرّؤوه علينا لما نبح طوال هذا الوقت. يطلب منا ضبط النفس وعندما نفتح أفواهنا بكلمة قالوا متعصبين وقبليين.. وإنها دولة قانون. نلجأ إلى المحاكم ولا تقتص لنا، بل من يجرؤ أن يستدعي هذا السكّير هو من يحبس ويسرّح من عمله. من أين جاء ومن هو؟ يتحدثون عن مزدوجي الجنسية ويشيرون نحونا وينسون أنفسهم وجوازاتهم الأميركية. هل سرقنا الجنسية؟ أخذناها بالقانون ورضاه. سكتنا زمناً طويلاً. اعتبرونا مناطق خارجية كأننا خارج حدود الدولة وهم.. هم أهل السور، ابن خال جدّي هو أحد من بنوا هذا السور الطيني وحرسوا بواباته وآخرون من أعمامي حاربوا أبناء عمهم لأجلهم. فمن أين أتى هذا (السلق) هو ومن وراؤه؟ .. وإلى متى السكوت؟! قالوا فداوية ومرتزقة ولا يصلحون إلا للأعمال البسيطة، فخرج منا الدكاترة والمهندسون والمحامون والأطباء، ومن حكم في الماضي لا يعجز عن الحكم الآن. خالي استشهد في ثاني أسابيع الغزو ولم نغادر الكويت طوال السبعة أشهر، وأعمامي تطوّعوا في الجيش الكويتي وهم أول من دخل في يوم التحرير. كل هذا وأهل الدماء الزرقاء يتشمسون في شواطئ ماربيا ويقيمون السهرات في شققهم اللندنية. كلهم أرادوا تقاسم

مال البلد ولم يسمعوا لمن حذرهم من صدّام وحشوده فأبناء القبائل لا يعرفون السياسة وهم فقط من يعرفونها. نصفهم عجم جاؤوا سباحة عبر البحر أو هكرة ما زالت الدقات الخضراء تشم وجوه جداتهم، غرباء عن أرض الجزيرة، والنصف الآخر ضاعت عاداتهم وتقاليدهم لا لباسهم لباس رجال ولا لباس نسائهم لباس نساء، شذوذ الله لا يبلانا. بعد كل هذا يسبوننا؟! لن نسكت بعد اليوم، شاركت وسأشارك في كل مظاهرة ضد هذا الاستبداد وسنكسر أكبر أنف وراء هذا الـ (ج) وهذه ليست دولتهم لوحدهم. . لسنا في استراحة أو مزرعة، يريدون تقريب العجم وأولياء إيران لنكون لقمة سائغة لعمائم طهران، لسنا في مزرعة وإن ظنوا ذلك فنحن قبائل عندنا كرامتنا وسندوس على رأس كل من يفكر في النيل منها.

عندما ذهبت إلى ندوة المعارضة في الخالدية، انتحيت جانباً أدخن سيجارة، أنتظر هاتفاً من رجل واعدته قرب سيارتي، أستمع إلى المتحدثين عبر مكبرات الصوت المنتشرة وأصفق لهم. لم أنته من سيجارتي بعد عندما لمحت (ج) ينزل من سيارته الفخمة يختال كمخمور، أسرعت نحوه لأتأكد من هويته، توقف عند شاشة تعرض أحد المتحدثين، لم ينتبه له الحضور الواقفون. بصق نحو الشاشة فعاجلته بضربة خلف رأسه من قوتها أوجعتني قبضتي. صرخ أحد الحضور باسمه، عرفه الباقون فصار الكل يركله حتى خرَّ ككلب ميت. فوراً أتى من افتكّه منا وللأسف هم من أبناء عمنا يصرخون: حرام. متى يفهمون أن تصفيته هي السبيل الوحيد لإيقاف كل هذه المسخرة؟! لا أعرف إن كنت أستطيع قتله لو

تواجهنا وجهاً لوجه. أو وكّل إليّ الأمر، لا خوفاً منه، بل لأنني لا أريد الإعدام أو.. السجن، فزوجتي حامل في شهرها الثاني. قسماً بآيات الله لو لم أكن أنتظر ابناً لما ترددت في الإجهاز عليه وورائي قبيلة لن تتركني وحيداً. التوتر نال مني وأنا أخرج سيارتي من بين السيارات التي اصطفَّت عشوائياً في ندوة الخالدية، وصوت محمد عبده لم يستطع أن يسكنه كما اعتاد، الأماكن التي اشتاقت لي أنا أيضاً اشتقت لها. توقفت قرب مطعم لآخذ عشاء لي ولزملائي وأذهب إلى عملي الذي أمقته رغم أن أبناء عمي يحسدونني عليه، كل ما عليّ فعله هو ارتداء بذلة عسكرية والجلوس في غرفة أمام سفارة غربية لثلاثة أيام في الأسبوع، لا نفعل شيئاً خلال ساعات العمل سوى شرب الشاي والقهوة وتناول الأطعمة والحكي، لكن هذه الثلاثة أيام لا تمر مرّ السحاب، بل تطأ صدري كصخرة لا تتزحزح إلا بصعوبة. في الآونة الأخيرة انحصر الحديث في السياسة. زميلاي حكوميان في آرائهما، أحدهما نلقبه بالشيخ، سلفي بلحية كبيرة يمسِّدها وهو يستمع، رده الرزين يختفي ويستنفر بسرعة إن قاطعته، ويحذرني من كلماتي التي لا ألقي لها بالاً وقد تلقي بي في النار، يخبرني أن طاعة ولي الأمر واجبة والخروج عنها كفر وإن متّ فستكون ميتتي ميتة جاهلية. الآخر متذبذب، إن تحدثت حمى وصار ساخناً ووقف في صفي وحين يبدأ السلفي بالحديث يميل له وأسمعه وهو يتمتم باستغفار يتوب فيه عن تأييده لي. مرة سألت الشيخ عن الحسين وهل هو خارجي لما خرج على الإمام الشرعي؟ عاد لتحذيري من الانزلاق في هذه الأحاديث والخوض في فتن حمى الله سيوفنا وألسنتنا منها

كما قال ابن حنبل. ثم انسحب بالحديث عن فرق المبتدعة وما أدخلوا على الدين من ضلالات كلها بسبب التفكير والفلسفة واتباع خطوات الشيطان، كلها في النار عدا فرقتنا الناجية. أبدأ في سكب القهوة فينشرح خاطر الشيخ فيغمز من جهة الشعراء وأنهم يقولون ما لا يفعلون. . يقصدني. ويطلب مني أن أنشده بعضاً من شعري. فأبتسم بخبث وأنا أخبره أن لا شعر في ذاكرتي الآن سوى الغزلي فيضحك ويطلب ثانية فأسمعه. يقطع حديثنا أذان الفجر القادم من مسجد قريب من السفارة، يستغفر ونتوضأ ونصلي. بعد الصلاة يمنحني نظرة أبوية ويخيرني بين إتمام ساعات العمل أو الذهاب إلى البيت فأقبِّله على أنفه وأقود سيارتي وكلي رغبة بنومة هادئة في غرفتي الباردة. بعد دخولي المنزل تبخَّر النعاس، فتحت باب غرفتي فوجدت زوجتي نائمة، أفكر بإيقاظها علّنا نقضي وقتاً ممتعاً قبل أن أنام، لكن الساعة تشير إلى قُرب موعد استيقاظها وذهابها إلى عملها. كم من مرة رجوتها أن تتغيب عن تلك المدرسة فلا تفعل. تتحجج بطالباتها ومنهج دراسي يتأخر إن غابت. أذكِّرها بحملها فتسليني بأنها ستغيب عند اقتراب موعد الولادة وتسكتني عندما تذكر لي أنها ستأخذ إجازة أمومة بعدها وتكون أمامي فيها ليل نهار. تركتها تحلم، ونزلت إلى الأسفل إلى غرفة المقلط بجانب ديوانيتنا. مررت بغرفة أمي، بابها مفتوح. أنظر إليها وهي نائمة. ما زلت أتذكر أن التي تستلقي أمامي كانت تستيقظ قبل طلوع الفجر، بل هي من يطلعه كما وصفها أبي مرة في ساعة صفاء قديمة. . قديمة جداً. أبي الذي لم نعد نراه إلا في المناسبات الكبيرة، رمضان والأعياد وحفلات زفاف أقاربنا المقربين جداً.

باقي وقته يقضيه في صحراء المملكة بجانب إبله التي تستهلك راتبه التقاعدي وبعضاً من راتبي. ليتها تدر عليه بعضاً من الدخل. ليته يمنح هذه العجوز النائمة بعضاً من حنانه على الإبل التي يزجر الراعي هناك في صحراء السعودية إنْ قَسا عليها. أصنع قهوتي وأنا أفكر هل أحبَّها يوماً؟ هل عرف آباؤنا الحب؟ أم إنه وهم توهمناه بسبب الشعراء الذين نتناقل قصائدهم؟ تلك الفتاة قالت لي إن مجتمعات البدو في تقاليدها وعاداتها الأصلية لم تكن منغلقة أبداً. وإن القوانين القاسية المنغلقة من سمات المدينة. تلك الفتاة تعرف الكثير. أرتشف فنجان القهوة الشقراء وأنا أنظر إلى إعادة حلقة من شاعر المليون دون أن يصدر من التلفزيون أي صوت فقد وضعته على وضع صامت. حاولت بصديق شاعر ورجوته أن يساعدني لأجتاز الاختبارات الأولية لهذا البرنامج فوعدني خيراً. هذا الصديق رجل له حظوة عند الأمراء. مرة.. وهذا خبر لم أخبر به أحداً، أبقيته سراً لأنني أقسمت بآيات الله على ذلك، مرة.. سمع لي عدة قصائد، طلب مني أن أعيد اثنتين. في عينيه إعجاب أفرِحني. انتظر حتى ذهب كلّ مَن في المجلس. اقترب مني وعرض عليّ عرضاً لم أستطع رفضه. طلب مني أن أمنحه القصيدتين مقابل ألفي دينار. مبلغ لم أتخيله. طوال عمري وأنا أسمع عمّن يبيعون القصائد ولم أتخيل أنني سأغدو ممّن يُشترى منهم. سلمني المال بعد شهر. وبعد ثلاثة أشهر كنت أتفرج على قناة تعرض أمسية لأمير خليجي يدّعي الشعر، وإذ به يُلقي قصيدة من القصيدتين. اتصلت بصاحبي الشاعر الذي ظننته يريدها لنفسه عندما ابتاعها، واشتعلت غضباً واتهمته بأنه قد قبض من الأمير

مبلغاً أكبر ورماني بالفتات. فحلف لي بأنه لم يأخذ إلا ما أعطاني إياه، هددته غاضباً بالفضيحة، ضحك وأفهمني بأن لا أحد سيستمع لي ويهتم بأمري. زارني في الديوانية ثانية وأقنعني برأيه. نصحني بأن أجتهد في كتابة المزيد من القصائد وسيأتيني بمال أكثر. أهديت أبي قسمته من المال فأنفقه على إبله واشتريت لأمي ملابس جديدة ولزوجتي عقوداً ذهبية وبدَّدت الباقي في رحلة سياحية إلى تايلند. ثم عدت كما كنت.. أنتظر الراتب شهرياً. أدندن وأحاول أن أبدأ بقصيدة لحبٍّ أشعرني أنّ كل حب آخر هو محض وهم. أريد أبياتاً أستعطف فيها محبوبتي علَّها تعود عن الهجر. عشت الحب معها ثلاثة أشهر ثم انطفأ. أريد أن أرمي بشعري على رماده لأوقد ناره مجدداً.

9

فصل: ذهابي إلى نقطة اللاعودة

كل تقدُّم أو تأخر يبدأ بخطوة، عندما ركنت السيارة حيث اعتدت طوال سنين عملي، أنزَلت رجلي منها ووضعتها على الأرض، لوهلة أحسست الأرض رخوة، تحسَّستها بقدمي وانتصبت واقفاً، لم تكن كذلك. لم أذق يومها النوم. نسيت الصحيفتين بجانبي، لم أرجع لهما فالإنترنت يحلّ كل مشاكل النسيان. حانت مني نظرة إلى الموقع الذي اعتادت (ن) صفّ سيارتها فيه. احتلتها سيارة أخرى. نزلت الدرج بخطوات لا مبالية، كل ذكرى تجد طريقها إليّ كنت أزيحها، انتبهت، وضعني الزمن أخيراً على عتبة النسيان. رفعت يدي بالسلام على عمّ إسماعيل، فوجدتني ألوِّح بيدي التي حملت رواية سارماغو، عتبة النسيان مجرّد سراب. دلفت للمبنى، أعملت المفتاح في قفل مكتبي، جاءني صوت مبارك من الخلف، التفتّ، كان واقفاً عند باب مكتبه يبتسم.

«صبحك الله بالخير، حياك».

تركت المفتاح في القفل ولبيت دعوته، في الآونة الأخيرة، صرت أكثر من الجلوس عنده، اقتربت منه واقترب مني، منذ دعاني

إلى عرس أحد أبناء عمّه فواعدته قرب مجمع الصالحية وركبت في سيارته وذهبنا، رأيت أجواء لم أشاهدها قبلاً، سأرويها في فصل قد أخصِّصه للعرس ومشاهداتي فيه. سكب لي القهوة، شربت أربعة فناجين وهززت الخامس رغم أنني أريد المزيد. سألني عن أحوالي وأحوال الشايب يقصد والدي الذي لو سمع أحداً ينعته بالشايب لضج ساخطاً. سؤاله عن حال الأهل.. والأولاد جعلني أتنهّد. ترحيبه كأنما هو مسجل على شريط، لكنه مليء بالحياة، يعبق بالدفء ولا يمتّ بصلة لسلامنا المقتضب. سألني عن برنامجي لهذا المساء، لاح في ذاكرتي موعدي مع الشيخ الغسال الذي كدت أنساه. قلت لمبارك بأنني سأبحر باليخت قليلاً، فالبحر هذا المساء سيكون مميزاً. دعوته للذهاب معي وأنا أتوقع رفضه فرفض مثلما خمَّنت.

«تذهب لعرس؟».

«نعم، عرس من نوع آخر، ندوة سياسية، لم لا تأتي؟».

أنقذني من سؤاله دخول موظفين اثنين من أصحابه، ليسا من إدارتنا، بل هما من إدارة الدعم الفني. لم يتّجها للسلام وتقبيله على الأنف، اكتفيا برفع اليد.

«العهد قريب».

ردّ عليهما

«العهد لا يزال».

قام مبارك ليصبّ لهما القهوة، فتنازع معه أحدهما بأنهما من أصحاب المكان وليخدم كلّ نفسه، فرجع مبارك إلى مكانه. بدأ

شريط التسجيل بالدوران ثانية. السؤال عن أحوال الشايب والأهل والأولاد. انخرط بحديث جانبي مع مدير الإدارة الذي جلس بقربه. التفتُّ إلى مَن جلس قبالي، وجدته يتفرّسني وينظر إلى الطاولة بجانبي وهو يحني جذعه. انتبهت إلى أنه يحاول قراءة عنوان الرواية بجانبي، أرحته من عناءه مبتسماً.

«رواية أجنبية اسمها كل الأسماء».

بادلني الابتسام، فضوله أزعجني قليلاً

«هل قرأتها؟».

سؤاله زاد انزعاجي، هل أردّ عليه مستهزئاً بأنني أصطحبها معي للتبرُّك؟ وجهه لم يكن وجه من يألف الكتب. هززت رأسي، كاتماً غيظي بابتسامة.

«في أي صفحة أنت؟».

بلغ فضوله حدّاً لا يُطاق.

«عفواً، هل تعرف هذا الروائي؟».

السخرية التي خامرت سؤالي، أراحتني.

«طبعاً، وقد قرأت كل رواياته، عظيم هذا السارماغو».

لن أقول إنني دهشت بقدر ما أقنعني بتصنّعه، تركته يسترسل

«كتبت عن رواية العمى مقالة مطوَّلة نشرت لي في مجلة خليجية، وانتشر عبر موقع الفيسبوك، هل انتبهت إلى أن اسم الرواية .. «كل الأسماء» بينما كل الشخصيات عدا البطل دون خوسيه لا تحمل اسماً؟!».

سؤاله لكمة لم أتوقعها، أمسكت بالكتاب، لا بد أنه مخطئ، لمدير دون خوسيه في الرواية اسم وللمرأة التي يبحث عنها اسم. ارتبكت وأنا أقلب الصفحات.

«**أظن أنّ لهم أسماء..**».

«**لا تُتعب نفسك، تلك حيلة من حيل ساراماغو، يفعلها بعض الروائيين، لكنه بقدرة فذّة يدخلنا متاهة لا نرى فيها إلا ما يريد لنا أن نراه، تماماً كما يفعل الحواة والسحرة**».

أعجبني حديثه، لم يستغلّ جهلي وسؤالي التهكّمي ويضربني. أكمَل يتحدث عن مهارة ذلك الروائي في حبْك رواياته وأنه يفضل رواية سنة موت ريكاردو ريس. سمعت كلمة ترددت بين مبارك ومن معه.. البومة. التفت نحوهما قاطعاً حديث من معي، تساءلت:

«**نحن نتحدث عن الأدب وأنتما عن البوم**».

«**ويبدو أنّ سيرة البومة أخرجتك من حديث الأدب**».

جملة مبارك، عادية، لكنني لمحت تلميحاً منه لـ(ن) وابتسامة وقحة من صاحبه، أكمل:

«**كنا نتحدث عن برنامج عرض على قناة الجزيرة الوثائقية، يتحدث عن الماسونية**».

وأخذ يُعيد مجدداً الحديث الذي دار بينه وبين مَن جلس بجواره عن ذلك الفيلم، وأنا أترقّب سيرة البومة. بدا كمن حفظه. رموز الماسونية، الهرم على الدولار والعين التي تطلّ تعلوه، وأن هناك بومة على الدولار. تعاملت كثيراً بالدولار ولم أنتبه لوجودها

عليه. أصابتني خيبة. وصاحبه ومن أمامي كلما جرت البومة على لسان مبارك ابتسما. (في زمان لاحق علمت أنّ لفظ البومة مرادف للمؤخرة) أعاد عليّ مبارك سؤاله:

«هل تأتي معنا لندوة الليلة؟».

الوقح إلى جانبه لم ينتظر ردّي فقال:

«ربما هو لا يعرف طريق الصليبيخات».

ضحكوا، أضمرت ردّاً وقحاً، لم يخرج من فمي. جاوبه مبارك:

«بسام وعائلته في الكويت قبل أن تأتي أنت إليها وتأخذ الجنسية».

جمدت ملامح وجهه، لاحت نذر معركة، خيِّل إليّ أنه سيقفز ويجرّ مبارك من ياقته، لكنه قهقه، بادله مبارك إياها. بعض الضحكات تشي بأحاديث جرت خلفك دون أن تدري.

«لن آتي إلى الندوة، أكرمكم الله..».

خرجت إلى مكتبي، نظرت ناحية مكتب (ن)، كل البوم والكتب اختفت، صار مكتباً عادياً تحتله موظفة عادية غير موجودة في مكتبها كالعادة، ربما هي مع الأخريات يتناولن إفطاراً لا ينتهي. رائحة (ن) أعلم أنها اختفت، لكن أنفي يهيئ إليّ أن عبقها ما زال. أمعنت النظر إلى التقارير على مكتبي، لم أفقَه منها سطراً واحداً، ابتلعتُ قرصاً من الدواء. جسدي منهك والألم يتنقّل بين أعضائي. فتحت الرواية، كنت قد بلغت الصفحة 145، تابعت البحث مع دون خوسيه عن المرأة التي يبدو أنه عشقها رغم أنه لم

يلتقها وجهاً لوجه. يسائل المارّة عنها ويسائل أصحاب المحلات وسكان العمارات، حتى السقف لم يتركه وشأنه، لا يستسلم لليأس. عزمت على تأجيل موعدي الليلة مع الشيخ عبداللطيف، قررت الذهاب إلى البحر لأرتاح، أغلقت الرواية. تنقّلت عبر الصحف أقرأ الأخبار، كرة الثلج التي دحرجتها (ن) وصحبها عبر الإنترنت فعلت الأفاعيل؛ اعتصامات وندوات ولا يمرّ أسبوع دون دعوة إلى التظاهر في أماكن متفرّقة من العاصمة. تغيّر مجتمعنا، حرارة الغضب الساخنة ألهبت أجواء الشتاء. أغلقت الكمبيوتر، لماذا يسخرون من عدم رغبتي بالحضور؟ لم أهتدِ إلى ردٍّ منطقي أو مفحِم عن سؤالي هذا، قررت توجيهه إلى يوسف علّه يُسعفني بإجابة مُسكتة. قررت مجدداً، سألتزم بموعدي مع الشيخ الغسال ولن أذهب إلى البحر. مع خروجي من العمل أرسلت رسالة إلى نادية بأنني لن أتناول الغداء في المنزل وسأتأخر هذا اليوم وقد أقضي ليلتي في شالية صديق، لم ترُدّ على رسالتي. اتَّجهت إلى الشقة، أمام العمارة، تغيّر مزاجي ثانية، صعدت ولم أبقَ في الشقة سوى نصف ساعة. حاصرتني حشود الذكريات مجدداً، كأنما (ن) تناسخت وتكاثرت فحيثما يمَّمتُ وجهي أجدها ماثلة أمامي، ذكراها عندما أتتني ذلك النهار اليتيم تلهبني، كنت أنظر إلى وجهي في المرآة، اتخذت قراراً نهائياً، سأذهب إلى هناك لعلّي.. يبدو أن نحت الأزاميل خلق مني آخر لم أعرفه وأنا أتأمل وجهي في المرآة.

الشمس تقترب من سقوطها في المغيب، عندما صعدت جسر الغزالي، لم أنتبه إلى المخرج الذي أريده، فالصداع حلّ في رأسي

من مكالمة أجريتها مع يوسف بلبلتني. التردُّد بين قرار الذهاب وعدمه أعماني عن رؤية لافتة المخرج. وجدت نفسي داخلاً المنطقة الحرة، شعرت ببعض الجوع فغدائي يومها خفيف وبعض الأكل سيقلِّل حتماً من توتري. اتجهت إلى الفندق هناك واخترت طاولة أستطيع أن أرى منها كل مَن يدخل، انتقيت كلوب ساندويش وقلبت بصري بين الحضور القليل في الردهة الواسعة. وجدت جريدة بقربي، أخذت أتصفحها، جاءني النادل بصحيفة أخرى وهو يعتذر بأن التي بيدي ليست عدد اليوم، بل أمس الثلاثاء. ناولني إياها فشكرته، تأكدت من التاريخ، كان 8-12-2010، ضحكت، مشاكلنا هي ذاتها تتكرر في عناوين الصحف الرئيسة. أتاني بالساندويش، أكلت منه، طعمه لم يكن مستساغاً، قطعة الدجاج تبدو غير ناضجة، لكن الجوع طباخ ماهر، شربت عصير البرتقال ولم أكمل الطعام، دفعت الحساب وخرجت. سلكت الطريق الذي يمرّ عبر جامعة الشويخ إلى الصليبيخات التي يرتبط اسمها في ذهني بصلاة الجنازة. هو ذاته طريق المدينة الترفيهية التي لم أزُرها منذ المراهقة إلا مرة قبل عامين. لم أنتبه لمروري بكلّ هذا يومها فالعنوان الذي أقصده لا أعرف مكانه وسأسأل حتى أبلغه. كنت ساهماً بأمور متشعبة؛ أسترجع الحوار السخيف الذي اندلع وانتهى بيني وبين يوسف؛ هاتفته لأبلغه بأنني ألغيت موعد الشيخ عبداللطيف وأجّلته إلى الأربعاء القادم، استشاط، زاد حنقه عندما علم أنني متّجه إلى تجمُّع المعارضة، أعاد سرد كل ما يستطيع من حديث وأشبعه بإهانات للجميع، في تلك اللحظة انتابني ملل لا حدّ له، لا أعرف متى بدأت أكره سماع مناقشاته، في ما مضى

كنت أستمع له وأستمتع وأصفق، أضحك لسخريته الحادة وأمثلته التي لا أعرف من أين يأتي بها والتي تحولت الآن إلى برنامج قديم يُعاد بلا جمهور. صار مراً وهو يقذف حممه ويصفهم بالهمج والغوغاء والرعاع والسوقة وغيرها، بركان من التعالي والغرور تفجّر من فمه وهو الذي لسعته نار العنصرية مراراً. من الذي تغيَّر فينا؟! كيف اختلَّت الموازين؟ تركته يتحدث عن سحب حصانة النائب الذي فجّر قضية شيكات زعم أنها اشترت ذمم نواب. وأرغى بأنهم لو كانوا رجالاً لواجهوا القضاء فما الذي يخافون منه إن هُم على حقّ ولِمَ يختبئون خلف حصانة أسقطت بمؤامرة أو مناورة حكومية ذكية؟ ذهلت عندما وصف الحكومة بالذكاء وهو الذي لم يكن يردّ عليّ في المرحلة الثانوية إلا عندما أناديه بلينين، هل بدأ زمان جديد؟ كدت أن أقول له بأنّ ذهابي ليس لسواد عين النائب المعارض، بل لأن الحريات السياسية بدأت تتآكل ومنع التجمّعات يجلب ديكتاتورية تنهي أهم ما يميِّزنا، لكني أحجمتُ عندما تحوّل إلى شيخ دين وحاضرني في طاعة ولي الأمر وعن التناقض بينهم وبين فتاوى علماء السعودية. طوال حديثه أبعدت شبح التفسير الطائفي مراراً وتهتُ في تفسير ما أدّى به إلى هذه الردَّة وهو قد شارك في حملات سابقة ضد الحكومة. صار ملكيا أكثر من الملك. أنهى المكالمة بصراخ فحلفت بألّا أحادثه ما حييت. فجأة خطر على بالي عبدالوهاب الحمادي، علاقتي به جيدة منذ فترة، ومكالماتنا طويلة وممتعة، لكني لم أخرج معه سابقاً لوحدنا، دائماً يوسف يكون ثالث ثلاثة.. فلمَ لا أتصل به؟ قد يصحبني فالروائيون يحبّون معايشة ما قد يكتبون عنه. اتصلت

وسمعت جلبة خلفه. سألته إن كان مشغولاً فقال إنه في رابطة الأدباء حيث يكرّم روائي من أبناء السنعوسي لفوزه بجائزة الأديبة ليلى العثمان. وتواعدنا على أن نخرج في الأسبوع القادم. في المتبقي من الطريق سرحت بقصة حدثت لصديق لي شغلتني كثيراً، المسكين تعرَّض ابنه لتحرّش من صديق لسائقهم. ناداه إلى الغرفة وأجلسه في حجره ثم.. دخل السائق الذي صرخ بصاحبه فخاف وهرب ولم يعثُر عليه حتى الآن. اتصلت بصديق قديم لم أتواصل معه منذ سنين، وكيل نيابة ويعرف الإجراءات، صاحبي خائف من فضائح المخافر وأن يكون خبراً في الصفحة الأخيرة لإحدى الصحف. وواعده في مقهى وأغلب الظنّ أن الصفحة طويت ولن يجدوا الهارب، لكنها كيف ستنمحي من ذاكرة الأب أو الطفل؟! أحس بحنق شديد، لو أستطيع لقطعت ذلك المجرم بيدي، مسكين صاحبي، إهمال زوجته لبيتها لا حلّ له.

ظننتُ أن بيت النائب سيربض في موقع متميز، مع الإجابات المتناقضة التي تلقيتها من المشاة الذين سألتهم، وجدته في شارع داخلي ضاق بالسيارات التي اصطفت عشوائياً على جنبيه، أكملت سيري ففوجئت بآليات القوات الخاصة مصطفة وأفرادها محتشدون في منظر ذكَّرني بالغزو العراقي. وصلت إلى نهاية الشارع وأوقفت السيارة في فسحة ضيقة وجدتها بين سيارتين. لم أنزل على الفور، بل انتظرت قليلاً، نظرت إلى الراجلين الذين يأتون من كلّ حدب، داهمتني رعشة خوف ممتزج بالإثارة تماماً كالقطار الأفعواني في الملاهي عندما يبدأ بالصعود. فأمامي يعيد التاريخ نفسه ودواوين الاثنين التي اشتهرت في أواخر الثمانينيات قبل الاحتلال تعود

بصورة أخرى، بعض الوجوه هي ذاتها وأخرى حلّت محل مَن توارى أو مات. عندما كنت أقرأ التاريخ دائماً تمر محطات ودَدْت لو عشتها وأخرى أحمد الله ألف مرة على أنني لم أكتوِ بنارها. مررت بين تجمعات من يلبسون الشماغ الأحمر بكثرة على الرغم من الشتاء الحائر، بعضهم بدشاديش صيفية وأخرى شتوية. وبينما أعبر فسحة ضيقة بين السيارات هتف أحدهم باسمي فنظرت نحوه وإذ هو مبارك المجريطي تحيط به وجوه مألوفة، بعضهم زملاء في العمل، قدّمني إليهم وألحق اسم عائلتي باسم القبيلة التي ننتمي إليها فترددت «**والنعم**» من أغلب الأفواه فابتسمت وازداد الترحيب حرارة. بدا اسم القبيلة ككارت ثمين لدخول نادٍ مغلق. أكملوا حديثهم وخاضوا في (ج) الذي ما إن نطقوا باسمه حتى نظروا إليّ بريبة. الناس نفسهم الذين يرفضون أن يُؤخَذوا بجريرة شخص ما.. يحمّلون الآخرين ذنوب غيرهم. أحدهم من كثرة ما نظر إليّ صرت أتحاشى نظراته ووجهه المألوف الذي أجهدت ذاكرتي في طلبه فعادت صفراً، لفت نظري شنب أنيق منحه وسامة، لم أتذكر أين رأيته سابقاً! التفَّ الحديث نحو الحكومة التي تركت كل شيء وتفرغت لمناكفة المعارضة، والمنافسة بين أقطاب الصراع في الحكم على شراء المزيد من النواب. ثم تحدثوا عن أسماء من سيتحدث اليوم في الندوة من نواب. استأذنتهم وأكملت دربي نحو الديوان. انخفضت أصواتهم بعدما وليتهم ظهري، وأكاد أحلف أن حديثهم صار عني لا شك، قاومت رغبة النظر إلى الخلف. مع كل خطوة أفكر في الذهاب إلى المقهى، أو أعتذر من الشيخ الغسال وأعيد موعدي معه، وإن رآني مبارك وصحبه سأخبرهم أن قد جدّ

جديد واضطررت للمغادرة. لم أفعل، لا لأني لم أجد الجرأة، بل لأني كنت كمن يتجه نحو مغناطيس ولا يستطيع حولاً. شققت طريقي بصعوبة نحو الندوة فكلما اقتربت ازداد الزحام. حاذيت حاجزاً من الياسمين، وطاولة وُضع عليها موقد يسخّن الماء للشاي، وقف عامل نوبي بجانبها. ابتسم لي.

«شاي؟!».

شكرته ودخلت الديوان مع الداخلين على صيحات التشجيع والتصفيق، فقد بدأت الندوة ولا محل للجلوس. لمحت من بين مَن لمَحْتهم الشيخ عبداللطيف بوجه غاضب قد كتف يديه. أومأت له فابتسم ابتسامة ومضت وتلاشت وعاد إلى وجهه الغاضب، استغربت وجوده فهو وسطي دائماً لا يميل إلى كفّة، استغرابي زاد عندما وجدت الدكتور النفسي على يمينه، كتفاً بكتف. قرب المتحدثين وجدت أحد نوّابنا وحياني بإشارة سريعة من يده. الكل متراصّ جنباً إلى جنب. في تلك اللحظة فرحت لأنني لم أرجع. أمامي يكتب التاريخ. أشار إليّ شخص من بعيد وتنحَّى، لم أعرفه، جلست بقربه وشكرته. عرَّفني بنفسه هو سكرتير لنائبنا، لا أذكر اسمه فقط أذكر عائلته. استغربت من مكونات الحضور، تجمّع جمع الشامي على المغربي، لم يبقَ أحد في البلد لم يأتِ، كأنما هي مسرحية حفلة على الخازوق. كتفت يدي وأنصتُّ للمتحدث؛ لم أجد جديداً، الجُمل ذاتها تنتهي بصراخ وتصفيق. قام رجل أسمر ليتحدث على المنصة، همس لي السكرتير وهو يومئ نحوه بأنه دكتور في القانون يدعى عبيد الوسمي. وجهه مألوف ولم أذكر أين شاهدته من قبل (تذكرت لاحقاً بأني رأيت

صورته في الفيسبوك مع سمو الأمير لمّا كرَّمه في أميركا لتفوّقه) لم يختلف كلامه عمَّن سبقه؛ بصوت واثق ونبرة مستقيمة طلب من الأمن الواقف في الخارج أن يحترموا أنفسهم ويحترموا القانون. مع كلّ جملة يعلو التصفيق والهتاف له، سخن الجو وبدأ يلتفت يمنة ويسرة. وبنبرة أقوى من الأولى هدَّد بأنهم لن يسكتوا في المرة القادمة إن تعرَّضوا للإهانة. شعرتُ بالعرق في راحة يدي ورغبتي في الخروج عادت مجدداً. صوَّبت نظري نحو المدخل أتحين الفرصة. «الكلاب من أهل الكويت...»، جملة أعادتني ممّا كنت فيه، ونقلت نظرتي نحوه وهو يُكمل بأنْ لا كرامة دون ثمن وأنهم على استعداد لدفع الثمن! وختم بأنه يدعو الموجودين للخروج إلى الساحة المقابلة للمنزل لأنّ منع التجمهر خارج المنازل غير دستوري. توجّه بعض المتجمهرين إلى الخارج بضوضاء بدَت كأنها لن تنتهي. بلغ الندم في داخلي أغواراً سحيقة. بين الكلاب وغير الكلاب ارتسمت ابتسامة يوسف جلية في خيالي فزاد نفوري منه وتمنَّيت لو لم آتِ. بلع السكرتير إلى جانبي ريقه، على عكس الشيخ الأبرص ذي اللحية القطنية الذي جلس عن شمالي وبصوت خافت خاطب الخطيب ودعا له ببياض الوجه في الدنيا والآخرة ثم التف تجاهي بوجه مستبشر.

«يا ابن أخي، كلامه يبرد الكبد».

أكمل حديثاً لم أتابعه، كلامه منحني فرصة لأتفرَّس بوجهه؛ أيقنتُ أنّ الغضب الذي لفّ كل كلمة قالها لم يأتِ فجأة، كبار السن ينزعون نحو الهدوء ويبتعدون عن جمر الشباب. الكلاب لم يكونوا سوى مجموعة عوائل بعينها ومنهم أهلنا كما فهمت. نكَّست

رأسي وتلقَّف الميكرفون متحدث آخر. أحسست بالخدر.. رجلاي لا تطاوعاني. أجبرت نفسي على الوقوف والخروج إلى النوبي الذي يصنع الشاي، نويت شرب كوب آخر أغادر بعدها. شكرته على الكوب وانتحيت جانباً عن يمين الديوان أتفحص تويتر الذي سجلت فيه قبل شهر بحثاً عن (ن). وجدت نيراناً في التايم لاين ومصطلح الكلاب تحوّل إلى كرة من نار يتقاذفها الجميع. أبصرت من بعيد دكتور القانون الأسمر يقف مع أحدهم ويتحادثان بهدوء وينفثان الدخان. أنت دكتور كيف تقول ما قلت، ماذا تركت لمن هم في الشارع؟! عزمت أن أواجهه بالسؤال. خطوت تجاهه خطوتين ثم تراجعت، ماذا لو قال لي إنه يعني بالكلاب حفنة المتنَّفذين ممّن سرقوا البلد؟ نكصت وعُدت عابراً من جانب حاجز الياسمين وشكرت النوبي الذي عرض عليَّ كوباً آخر ورميت كوبي في القمامة وعزمت على المغادرة. أمامي انفجر جدال بين نائبين وبعض القيادات الأمنية، أخرجت هاتفي لأصوِّر ما يحدث. هالني عدد المكالمات التي لم أردّ عليها، خلال دقائق تجمَّعت ست مكالمات، فتحتها ظانّاً أنها من يوسف فأنا أعرف طيبة قلبه، لكنها كلها من نائبنا، وجدت رسالة منه فتحتها؛ يطلب مني مغادرة الديوان إن كنت موجوداً فقد يحدث أمر لا تُحمد عواقبه. شعرت بمغص، الرسالة منذ عشر دقائق، خطوت باتجاه سيارتي. كالتسونامي انسحبت القوات المتَّشحة بالأزرق الداكن إلى الخلف ثم أتت مثل موجة عظيمة. لم أعرف إلى أين أفرّ، لا أذكر إلى أين التفتّ، اندفعوا من كلّ حدب، ركضت مع من ركضوا بوجوه فزعة متَّجهاً نحو باب الديوان. وصراخ من كل الجهات أن ادخلوا

المنزل، وآخر يصرخ يطلب الإسعاف، تدافعنا عبر الباب الصغير والهراوات تتعقبنا وتنال من رؤوس الفارين. عندما اجتزت الباب، دُفعت فضَرَب رأسي في الجدار وسقطت أرضاً وإلى جانبي غترتي وعقالي. داسني أحدهم في بطني، تأوهت. الألم في رأسي شديد حاولت النهوض لم أستطع. ثمة مشاهد في الحياة، يؤرخ بها، مثل الاحتلال العراقي وحتى تلك الحقب التي حكى عنها المؤرخون في الكتب. ما حدث أمامي يضاف إليها. ظننتُ أنني عندما أكتبه وقد حدث منذ زمن، سأكتبه خالياً من الانفعال، أو بانفعال أقلّ ممّا سيأتي. لم يصدق حدسي، بل إن يدي ترتجف الآن وأنا أكتب. يبدو أنها لن تذهب إلا عندما أودعها الورق، الكتابة ليست شفاء كما قال لي الحمادي، بل شقاء. نظرت إلى الأعلى وأحدهم يصرخ «**لو كان فيكم خير، فاخرجوا للخارج**». طنين في رأسي، مسحت فمي بغترتي فارتسمت عليها بقعة حمراء. تقهقر المحتشدون إلى الداخل وكاد رجل أن يدوسني مجدداً. من بين المقتحمين رأيت ذلك المقنَّع الذي مدّ يده وأمسك بالدكتور الوسمي من عنقه، لم تكن يد تنتقي عشوائياً. سحبه كما يسحب منديل من علبة محارم، وذهب به خلف الحائط. استطعت أن أنهض وأدخل الديوان مترنحاً. صوت بالمكبرات داخل الديوان يدوي مخاطباً القوات في الخارج ويحذرهم من خرق القانون واقتحام المنزل. ساد هرج ومرج، صوت آخر يبلغ الموجودين بأنّ القوات ستقتحم المنزل خلال عشر دقائق. تحسَّست الجدار وأنا أمشي على غير هدى. الوجوه مذعورة، أعادت لي وجوه الكويتيين في أول أيام الغزو العراقي. وجوه عرفتها وأخرى لا أعرفها. من

باب الديوانية الداخلي دلفت إلى ممرّ لم أعرف إلى أين سيقودني. باب في نهايته، لوَّح لي شخص وقف عنده، لم أستطِع التقدم خطوة، هرع نحوي، كان مبارك المجريطي، تفقَّدني والهلع على وجهه، أمسك بيدي وقادني إلى الباب الموارب دفعه بهدوء، وراءه مطبخ صغير، احتشدت وجوه في داخله نالَ منها الفزع، عرفت أغلبهم فقد كانوا نواباً، وجدت نائبنا الذي أرسل إليّ الرسالة. أسندني وسألني إن كنت بخير، هززتُ رأسي. أجلسني على كرسي وأحضر لي ماء. أخرج هاتفه، خلال دقائق جاء السكرتير وأخرجني إلى سيارتي. عرض إيصالي إلى البيت، شكرته. سلكت أقرب الطرق نحو المنزل. دخلت غرفتي وأقفلت الباب، وانهرت على الفراش أبكي، كما بكيت في يوم الاحتلال ظهراً. هل البكاء للأطفال والجبناء والعاجزين فقط؟ تكبر أجسادنا وفي دواخلنا طفل يرفض أن يكبر. تمنيت لو أن (ن) بجانبي، فهي من يستطيع فهمي وإفهامي في مثل هذه اللحظات. اتصلت بها فأجابني هاتفها كما يجيبني في كل مرة منذ استقالتها.. الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية يرجى الاتصال لاحقاً. فتحت تويتر، تحولوا إلى كلاب مسعورة ورابط فيديو صور لي كلّ ما حدث خلف الحائط بعد سحب الدكتور. فتحت الأول ثم الثاني وتتابعت اللقطات. الزوايا عديدة والمضروب واحد. كل ما لم أره عندما سقطت على الأرض عند مدخل الديوان بدا واضحاً وأكمل نقص الذاكرة. لم أجد وجهي في الفيديو بين الوجوه المذعورة إلا بصعوبة؛ يسحب إلى الخارج ثم يتناوبون على ضربه بالهراوات ويركل وهو يحتمي بيديه. مع كل هراوة تنزل ينهدم شيء ما في داخلي، في عقلي.

للحظة تخيّلت أنني مَن يضرب ثم أمدَّد على الكرسي بين الحياة والموت ذاهلاً. بدأت أحسّ بحرارة تتملك جسدي وتطوقني. حاولت إغماض عيني، أنجح لدقائق ثم أجد بصري متسمراً في السقف. شيئاً فشيئاً بدأت أفعل ما لا أعي، كل الأسماء على السرير بجانبي، فتحتها، كنت قد وصلت إلى تخوم الصفحة 154 تابعت بحث دون خوسيه العبثي عن تلك الفتاة المجهولة، تراه يجدها؟ لم أستطع أن أتجاوز الثلاث صفحات حتى رميت الكتاب بعيداً، اصطدمت بكلمة أوجعتني، أحسستها كحجر أصابني في رأسي فهشَّم كلّ مافيه. صرتُ كسبَّاح منهكٍ يكاد يغرق ولا يغرق. بدأت الخيالات تختلط بالأحلام. هل كان الدكتور عبيد هو مَن يظهر لي في منامي، هل هو الآن بين الحياة والموت؟ أحداث اليوم نيازك تتساقط على رأسي. رأيت في المنام مبارك مع صحبه يضربون يوسف وأحاول منعهم دون جدوى فيقولون لي أنت تدافع عنه إذاً أنت معه ويدفعني أحدهم لأسقط أرضاً ويبدؤون بضربي ويعاونهم يوسف عليَّ فأفزع. بدأ العرق ينضح مني بغزارة، أرى نفسي أصارع الغرق، ولافتة تطفو، أسبح نحوها لأستريح بالتشبُّث بها، مكتوب عليها: لو دامت لغيرك ما اتصلت إليك.. وعليك. أمسك بها فتتحول إلى حجر التصقت به راحة يدي ولا أستطيع فكاكاً. يسحبني نحو قاع المحيط، أختنق، أصحو، بردٌ يلفني فألتحف ثم أشعر بالحرّ فألقي اللحاف جانباً.

... أمشي على بحيرة جليدية متشققة أحاذر أن تنهار بي وضباب يلف المكان، وجدت فتحة دائرية وعدّة صيد ملقاة بجانبها، أحدِّق بالماء الأسود، وفجأة يخرج الوجه الذي يطاردني

في كوابيسي وهو يصرخ: سيقتلونني، ويرجع إلى الغطس. رجلاي اللتان التصقتا بالجليد لا تتحركان. يخرج مرة أخرى ويصرخ، ويتشبث برجلي ويحاول جرّي إلى الأسفل معه. أمسك بعدّة الصيد، أستهدف رأسه بضربة فيهوي ويغطس من حيث جاء. شرخ جليدي يسري من بعيد نحوي. يصلني، يصنع حولي دائرة، تتفتت، وأخرّ غارقاً في الماء...

تتابعت الحمّى علي لستٍّ ليالٍ.

المشهد لا ينفك يعيد نفسه؛ ذهب مَن كنت أنتظره قرب سيارتي وأسرعت إلى ديوان الصليبيخات لكي لا تفوتني خطب النواب. عندما اقتربت رأيت القوات من بعيد تهجم والناس يهربون وصراخهم يختلط. رجعت إلى السيارة، رأيت من يترجّل من سيارته، كأنه من أبناء عمّ نسابتي فأنا لا أخطئ وجوههم ولا وجوه العرب. حذَّرته من الذهاب إلى الديوان فالناس يضربون وقلت له يا ولد اذهب بعيداً، فرجع إلى سيارته. في طريق عودتي من الصليبيخات، اتصلت زوجتي بي تريد عشاء، لم أسمع الاتصال الأول، بل لم أنتبه إلى الطريق، فكلّ حواسي تركتها هناك. تمالكت غضبي عندما رددتُ على المكالمة الثانية، لم أصرخ بها وأصرِّح بقرفي من وحمها على سندويشات البطاطا المقلية والكاتشب والتي لا تروق لها إلا من مطعم قرب كلية التربية الأساسية البعيدة، فالطفل الذي في بطنها هو الثالث، ولا أريده أن يلحق بأخويه اللذين لم يعرفا من الدنيا سوى تلك المسافة بين مستشفى الولادة ومقبرة الصليبيخات. بعد المطعم عرجت على صيدلية لأشتري لي علبة دواء جديدة، فبخاخ الربو قاربَ النفاد. عدت وكيس السندويشات بجانب أكياس في المقعد الخلفي. عندما اقتربت من المنزل أبصرت لمعان ضوء أزرق فوق سيارة سدَّت الشارع. من الحارة الشمال أردت أن أعبر إلى اليمين وأصعد إلى الساحة الترابية وأصل إلى المنزل من الخلف، لكن

سيارات اصطفت تباعاً اضطرتني لانتظار عبوري للتفتيش، أخرجت رخصة القيادة، وتركت دفتر السيارة فصلاحيته انتهت منذ شهرين ولم أجدِّده. نظرت إلى الأكياس في الخلف. رميت السلام ومددتُ له بالرخصة. نظر إليها ملياً، طلب الدفتر، نويت التملُّص بكلام طيب، أعاد الطلب بجفاف ونظرة آمرة، أخرجته له. قرأ الاسم وأنا مستمر بإغداقه بجمل طيبة لم يعبأ بها، وضعهما في جيبه وابتسامة ظفر على طرف فمه. طلب مني الترجُّل، أردتُ أن أعرف السبب لم يخبرني، جاء صاحبه ليعاونه، نزلت وأركباني في الدورية وقيَّدا يدي من الخلف بالأصفاد. أحدهما ذهب إلى سيارتي وبيده كيس، ركنها في الساحة الترابية. انطلقت الدورية بنا، أمسك بهاتفه واتصل مخبراً مَن ردَّ عليه بأنه وجد المطلوب. في البداية اتخذ طريق مخفر الشرطة ثم انحرف خارج المنطقة إلى بداية الطريق المؤدي إلى المزارع والذي أحفظه جيداً. لم يعبأ بصراخي عليه، بل تجاهله وضاع مع أغنية صاخبة شغلها. عندما توسطنا الطريق. أوقفا الدورية وفتح أحدهما الباب وبيده شريط لاصق أحكمه على فمي ولطمني بقوة وعصب عيني بشماغي، وحملاني إلى سيارة أخرى. هو طريق المزارع. توقفنا عند بقالة ليشتري علبة دخان. وصلنا قريباً من الجمعية التعاونية، صعدنا إلى طريق ترابي. اهتزت السيارة لخمس دقائق قبل أن يتوقف ويطفئ محرِّكها، سمعت صوت البابين يفتحان ويغلقان. تناهى صوت كلاب من بعيد. بقيت في السيارة مدة لا أعلمها. رنّ هاتفي في جيب دشداشتي اليمين، القيد في يدي من الخلف يعيقني. حاولت أن أصل بأصابعي إلى الهاتف. نجحت بوضع أصبع واحد في الجيب وسحبته محاولاً تمزيقه لأصل إلى الهاتف. فتح باب

السيارة وعاشت يدٌ في جيبي وأطفأت الرنين. الضربة على رأسي من الخلف فاجأتني، دارت الدنيا بي. بدأت أشعر بالاختناق وصرت أصرخ بأني أختنق، لكن صوتي خرج غير مفهوم من خلف اللاصق. أمسكني من رقبتي وأخرجني كخروف. انتفضت فعاجلني بضربة أسفل بطني، تقوست من الألم. تزحزحت العصابة عن عيني قليلاً عندما سقطت على الأرض، رأيت قدمه ترفسني ببطني. حملت كذبيحة وجسدي يمزِّقه ألم لا يحتمل. لم أعرف حتى الآن لماذا يجري لي كل هذا، هل هو اشتباه مجدداً؟ منذ عام لم يتعدَّ أي اشتباه دخولي مخفر الشرطة لساعتين، ثم أعود إلى المنزل. اليوم مختلف. أجلست على كرسي وأُحكم وثاقي جيداً فالتصق ظهري بظهر المقعد الخشبي. تكاثر الدم في فمي، وبطرف لساني شعرت بفراغ في مقدمة أسناني منه ينبثق الدم. سنّ انخلعت من مكانها وتحسست موضعها بلساني. جئت بالسن إلى المنتصف، حاذرت وأنا أتجرع الدم كي لا أبلع السن. ثبتُّها بطرف لساني أريد أن أطردها خارجاً، لكن اللاصق محكم بشدّة على شفاهي. ابتلعت دماء كثيرة حتى اعتدت على طعمها، انفلتت السن لليمين، مددت لساني وجاهدت لأبقيها في المنتصف، لساني يكاد ينقطع من أصله. بدأ خشب الكرسي ينخر ظهري وإنهاك الحفاظ على السن أتعبني. ساد هدوء قطعه نباح كلب من بعيد، كدت أغفو عندما جاءت صرخة مجلجلة.

«أنت هنا يا ابن الكلب؟!».

ابتلعت السن، فاللطمة كانت شديدة، لم أعِ ما حدث بعدها.

تفرجت على بسام وهو يرتقي في الإدارة مزيحاً كل منافسيه. لم أخشَ على مكاني أو مكانتي فأنا أعلم كيف أحافظ عليهما. هو لا يدري أن مصالح عمه مرّت من خلالي قبل أن يأتي وحتى بعد قدومه. حرصت على التقرُّب منه وتقليص المسافة، أردت أن أشعره بالترحيب، كلما أحسست بالنجاح يرجع ليبني أسواراً من حوله. لم ينسجم إلا مع فتاة البوم؛ مرتين أو أكثر رأيتهما ينصرفان معاً، لم يلمحاني. مرة لمَّح لي موظف ممّن يجلسون عندي إلى أنه رآهما في مطعم هندي في منطقة المهبولة يخرجان من إحدى الكبائن المغلقة. شككت إن كان متأكداً أنها هي فحلف أنها (البومة) كما أسماها. استغربت قليلاً فهي تمتنع عن توزيع الابتسامات التي توزعها زميلاتها لأغراض أخرى. الموظف نفسه وآخرون شكوا لي عنصريته الواضحة في كلامه، وأن عينيه تقولان ما لا يقوله لسانه. هم جاؤوا للشكوى فاستمعتُ وتغاضيتُ عن حضورهم وانصرافهم لمدة طويلة، لكي يتناسوا بسام. فأي حديث منهم في مجلس من المجالس بأنني لم أراعِ حقّ قرابتهم مني ولم أساعدهم في العمل سيبدأ بعدها الهمز واللمز في الدواوين وأُعتبر مارقاً من عاداتنا وتقاليدنا، بل ولستُ رجلاً. أنا لا أريد لهذا الهيكل الذي شيّدته أن ينهار بحماقة من هنا أو هناك، خاصة وأني صرت فعالاً في ندوات المعارضة، أقدِّم المتكلمين في واحدة

وأتحدث في أخرى وأتقدم الاعتصامات. هل تظنون أنني أطمح للنيابة وأن الجلوس على مقعد البرلمان هو منتهى أحلامي؟ طبعاً لا، فللبرلمان ناسه، وأنا أعشق التقلب في الظلّ فقد نلت حصتي من الشمس. لماذا أقف تحت نارها المسلطة فأنال القيل والقال؟ بينما هناك عدد كافٍ من الناس المنحنين الذين أرتقيهم بسهولة؟ سألني جدي يوماً: يا ولدي أتعرف الفرق بين الحرّ والعبد؟ صببتُ له القهوة وهززتُ رأسي بلا، فقال: الحُرّ يعرف ما يريد والعبد لا يعرف ماذا يريد. عائلة بسام وأمثالهم عرفوا ماذا يريدون ورضعوا من الدولة، الحليب يكفي الجميع، لكنهم لا يسمحون لغيرهم أن يشاركوهم الضرع. عائلته تحديداً لا تريد مجلس الأمة، لأنهم بالمال يشترون النواب وأيديهم التي ترتفع لتمرير مصالحهم وتكلفتهم أرخص بكثير من تملك الكرسي البرلماني. قد يتساءل أحد منكم: كراهيتك لهم قد وصلت حدّ أن تشارك في معارضة هدفها القضاء على هؤلاء ممّن تسميهم حيتاناً أو أصحاب دماء زرقاء في تصريحاتك كناشط سياسي، فلماذا مرَّرْتَ لهم وستمرِّر ما يريدون من صفقات؟ يا أيها الأعزاء من الأخلاقيين الذين لا يرون من الدنيا سوى لونين؛ الأبيض والأسود -وهما لونان وهميان- لو لم أكن في منصبي هذا هل كان خالد عبدالمحسن الميلان ليضع يده بيدي ويمنحني كل ما يمنحني إياه؟ سأجعله جسراً إن عبرته لن يعبر بعدي. الغريب أنني كلما أمعنتُ في الهجوم زاد في الوصال! بينه وبين النواب سأقف كسراب، كل يراني قريباً منه. مرّ بنا بسام ماشياً قاصداً ديوان الصليبيخات فعرَّفته بمن يقفون حولي باسم القبيلة التي ينتمي إليها. هناك شكّ في نسبتهم إليها، لكن المال

قوَّى ذاكرة أعيان تلك القبيلة فتذكّروا أنهم يلتحقون بهم. في ذلك اليوم وجدته في ممرّ البيت الداخلي، أخذته إلى المطبخ وشرب ماء، ثم تكفّل به نائب من جماعته. بعض الموجودين من الموظفين في قسمنا، استغربوا حضوره ندوة المعارضة، رغم أنه منذ عام صار يجالسنا ويناقش السياسة، يبرِّر للمعارضة أفعالهم أكثر من بعض الجالسين. استنكروا حضوره اليومي في مكتبي، يظنونه خداعاً. هم يفكرون في الآني، لا ينظرون إلى الصورة الكبيرة، تفكيرهم نمطي، ولست مستعداً لأن أشرح لهم، فهم آخر همي؛ بسام ينتمي إلى التجار، والتجار وهم أطفال الدولة المدللون استشعروا بقرون استشعارهم رغبتها بالتخلي عنهم، فارتموا بأحضان القبائل ليستعيدوا توازنهم ويرعبوا الدولة عبر وسائلهم الإعلامية ويذكِّروها بأهميتهم لها. ما حدث في ديوان الصليبيخات لم يكن بالحسبان، ارتفعت أسهم القبائل بقوة بعدها في ميزان القوى الشعبية، لكن الرابح الأكبر هم التجار، حتى الكتل الدينية واليسارية قفزت في سفينة القبائل، وكما أخبرني الشيخ عبداللطيف الغسال في ديوان جمعنا أن الحركة الإسلامية التي ينتمي إليها ستُرجع مكاسب خسرتها في الأعوام الماضية، كلّ ذلك بفضل نائب جمع بين انتمائه إلى الحركة وإلى القبائل. عقب المشاكل التي تسببت بها البومة في العمل قدّمت لي استقالتها فوقّعتها. تغيّر بسام كثيراً بعدها؛ يحضر إلى الإدارة وينصرف كميت، الروح انسلّت منه. خمنت سابقاً أنّ ثمة شيئاً بينهما ولم أظن أنه عشق، وحتى لو كان فلن يفضي إلى شيء لخلفيتهما العائلية المختلفة؛ يظن الجهلة أنهما حضر لمجرد اللهجة والمنظر الخارجي ويتغافلون

عن كل ذلك التباين؛ هو تمتدّ جذوره إلى نجد وإن هاجروا لفترة إلى العراق أما هي فمن سواحل فارس ومن قوم باتوا يدَّعون أنهم ينحدرون من نجد. والمفارقة في أنهم جميعاً أيضاً يروننا بدواً من لون واحد ولا يبالون بالاختلافات الحادة عندنا. لا عشق حقيقي إلا في مراكش، هناك الحب الذي لو رآه بسام لما صار له ما صار. بعدما استوعبت أثر رحيلها عليه دعوته عدّة مرات للذهاب معي إلى المغرب، أسررتُ له بأنه بلد سيحقِّق كل أحلامه، ولو شاء لبحثتُ له عن زوجة شبيهة بالبومة التي في خياله. تردَّد، يبدو أنه جبان، تقوده زوجته بيدها يميناً أو شمالاً ولا يستطيع الخروج عن حكمها. غداً سيطير بي الطائر إلى عالم الأحلام، أتمدَّد في درجة رجال الأعمال، سأمكث شهراً ثم أعود إلى هذا الهم.

ليحترق هذا البلد بمن فيه، هل بقي بعد شيء جميل؟ لنقتسم ما تبقّى من الغنيمة وليرحل كلٌّ بنصيبه. يبدو أن حلمي بمنزل أمتلكه في أوروبا قاب قوسين من التحقُّق؛ شقة في مدينة عريقة تطلّ شرفتها على شارع يمتلئ بمشاة مختلفين يصطحبون كلابهم وآخرين يجلسون في حدائق يقرؤون الكتب، بيت في عالم حقيقي. سيأتي يوم تهمد فيه مضخّة حقل برقان وتخمد نيران المصافي، يومها حتى البوم لن ينعب على أطلال الحديد والإسمنت. بدَّدت عمري أكتب ظانّاً أني في وطن حقيقي يتغير بالكتابة حتى انجلى عن عيني الغطاء ليكشف أنّ ما ظننته دولة لم تتعدَّ كونها مضارب قبيلة كساها المال زجاج ناطحة سحاب. عندما أغلقت الهاتف من بسام وهو متجه إلى تجمع الغوغاء في الصليبيخات، كنت أغلي غضباً، الليلة الكبيرة التي عقدت عليها الآمال تبخَّرت، لماذا يصرّ الدهر على مناكفتي؟ تمدَّدت مقابل التلفزيون باحثاً عن فيلم تنسيني أحداثه واقعنا المريض فلم أجد، حتى الكأس التي سكبتها ذاب الثلج فيها دون أن تمسّ شفتي. ارتديت ملابسي مرتين قبل أن أفتح باب شقتي متجهاً إلى ذلك التجمع البغيض. لو عرفوا اسمي لمزقوني ضرباً وانتهيت لمصيري كمصير (ج) محطّم الأضلاع. اضطربت وأنا أدخل تلك المنطقة لأول مرة في حياتي، لا أعرف من هذه الدولة ولا أريد أن لا أعرف سوى طريقين، طريق

الشاليهات البحرية حيث أستجم في نهاية الأسبوع، وطريق المطار الذي يأخذني إلى الدول الحقيقية. وجدت ساحة ترابية امتلأت بسيارات تصطف عشوائياً. فعلمت أني اقتربت، حسمت التردُّد وترجلت من السيارة، وجدت رجلاً قادماً من بعيد، ينزع إلى السمرة بشارب أنيق، تفرَّس بوجهي بوقاحة، خفت، صرخ: يا ولد اذهب بعيداً، فالقوات الخاصة تضرب الناس وستصل إلى هنا بعد قليل. ذهب وأنا متردِّد قد أمسكت بباب السيارة أفكر ببسام وأتخيله محشوراً يُضرب من القوات الخاصة ويُعتقل. جاء آخرون وهدير كلامهم لا يزال في رأسي حتى الآن، ليتني كنت أصماً. يفرح المرء عندما يظن فتثبت الأيام ظنه، في تلك اللحظة وددتُ لو كذبتني الأيام ولم أسمعهم ينعتون القوات الخاصة بأنها رافضية! رجع لي وجع عيني اليمين التي تؤلمني كلما تبدّل الجو، كأن هناك أصبعاً يريد أن ينقفها من الداخل. آخر يطلب منها معاملة الحسينيات بالمثل. لا أدري أي الطّرق سلكت، وجدت نفسي أدور حول المنزل عدة مرات، قررت العودة إلى شقتي فوق عيادة الأسنان، وبدل الكأس سكبت كؤوساً. وخيالات الردّ على مَن سمعتهم تعود لي؛ أريد أن يرجع بي الزمن لأصرخ بهم وأسخر من شجاعتهم التي يدّعونها في ندواتهم، بوجوههم الغاضبة وقبضاتهم تتأرجح في الهواء، أين ولت؟ مخرجات التخلّف القبلي وصراصير الجماعات الإسلامية ومزابل اليسار؟ .. مجرد حشرات، نعال تسكتها إلى الأبد. يريدون قوانين وهم أول من يخرق القوانين، أكلوا الدستور كما تأكل الأرضة السجاد وهم يصرخون إلا الدستور! أي دستور؟ هل بقي منه شي؟ يريدونه أجوف كبوق

ينفخون فيه ألحان صيحاتهم القبلية، لديهم ثأر قديم يريدون أن يدركوه. شغلت اليوتيوب لأرى ما حدث بعد عودتي، القوات الخاصة لم تخطئ عندما ضربت من وصف الكويتيين بالكلاب، بل إن هذا الضرب جاء متأخراً. لو أنهم لوحوا بقبضة القانون منذ زمن لما رفع أحد منهم رأسه ولما ضاعت هيبة الدولة.. لا، ليتهم لم يفعلوا، سيخلقون منه بطلاً يلتفّ حوله الناس كما صنعوا غيره من قبل، بدأت أشك بأن هناك من يُدبّر الأمر، لعنة عليهم جميعاً.
بسام سيعود عمّا هو فيه. يومها أسامحه بحق تلك الأيام، فأنا أعلم أنه لن يكبر وسيظل الطفل محبوساً في ذلك الجسد. عندما أغلقت معه السماعة لم أشعر بأنني فقدته، ففقدي له قديم. بعد ذهابه إلى الدكتور النفسي عرفت ما به، فقد لمَّح لي الدكتور الأحمر ما يعانيه بسام. عندها استخرجت بمساعدة صديق اسم صاحبة الرقم الذي حفظته من اختلاسي للنظر في هاتفه، تذكّرت ذلك الحلم الذي رواه لي بسام في المطعم وقصّة البالون والسيارة التي دهست الفتاة.. لربما كانت هي صاحبة الرقم التي علمت أنها عملت معه في الإدارة لعامين ثم استقالت واختفت وصار جهازها مغلقاً.. هل ماتت وكلّ ما جرى لبسام وكوابيسه حزن على موتها؟! لا يهمني ذلك البتة. أخبرت نادية باسمها، فتصنّعت عدم الاكتراث، وأنا أعلم أن ناراً تصطلي في داخلها. وعدتني أنها ستراني الأسبوع القادم في مقهى. لا أظنّ أن أيام هذا الأسبوع ستمر كما تمر الأيام عادة. إذا ما بكينا ولا دمَّعنا لا تفتكروا فرحانين.

نواف

اكتسحني برد شديد، انتشلني من إغماءة، كنت أنتفض. حاولت أن أفتح عيني باتساع فلا أستطيع، جفناي متورمان وثقيلان. استطعت فتح فرجة صغيرة من عيني الشمال منها سبرت المكان الذي تسرَّب إليه خيط نور من ثقب في ساتر حديدي يسدّ النافذة. غرفة صغيرة، عدة كراسي بأرجل طويلة جنب الحائط، طاولتان بينهما قطعة سجاد، صندوق قناني مشروبات غازية فارغة، علب أصباغ رائحتها أتعَبَت تنفسي. نظرتي مهزوزة وألم انتشر في رأسي. ما لبثت النظرة قليلاً حتى أسدلتُ جفني من الألم وعدتُ إلى الظلام، ارتحت قليلاً. صمت مطبق كصمت بدايات الكوابيس لا يخترقه سوى هدير مكيّف هواء حوّل الغرفة إلى ثلاجة. تذكرت بعضاً من الكابوس الذي رأيته؛ كنت أغوص في ماء بارد والدنيا مظلمة من حولي. سطح الماء جليدي، أريد أن أتنفس فلا أجد فجوة أخرج منها. أكمل الغوص، لا هواء في رئتي وأكاد أختنق، من بعيد لاحت لي فجوة دائرية سبحت نحوها وما إن خرجت حتى شهقت أستنشق هواء، رأيت رجلاً بوجهي، حاولت التعلق به ضربني على رأسي بقوة فرجعت إلى الغرق.

يئستُ من صراخ لن يجدي فاللاصق على فمي أشدّ من أمس والعطش تملَّك بلعومي. حتى الدماء تمنيت أن تسيل مجدداً من

مكان السن. أريد ماء، بعضاً من الماء الذي يبللني من رأسي حتى قدميّ.

.. بعدما صرخ بي ولطمني، ابتلعت السن وأغمي عليّ، استيقظت على ماء بارد يندلق على رأسي كدت أختنق من برودته. انزاحت العصابة عن عيني ورأيت وجهه جيداً، رأس أعجمي ضخم، حليق الشعر واللحية عدا عنفقة تحت شفته السفلى، أمسك بخرطوم بلاستيكي أبيض يهز به في الهواء. صرخ بأنه سيربيني، نعتني بالناشط السياسي المخنّث. أردتُ أن أقوم إليه وأنهشه من رقبته، الوثاق يشدّني إلى الكرسي، إحساس القهر فاق آلام جسدي. وصفني الجبان بالجبن وأنه سيرمي بي وراء الشمس. هل مشاركتي في الندوات السياسية هي سبب قدومي إلى هذا المكان؟ يبدو أنّ ضربي لـ (ج) هو ما أتى بي لا غير، لا بد أنّ أحد رجال المباحث شاهدني وكتب تقريراً أبلغهم عني فتربَّصوا بي. سلطة هذا المخلوق وهيبته بدأت تفوق من يفترض أن تكون لهم هيبة. بالهوز البلاستيكي الأبيض ضربني على رأسي ووجهي وظهري، دخل علينا آخر أمسك يده فتوقف عن ضربي، غادر وصفق الباب بقوة. صار الآخر يتأمّلني بنظرة فيها طيبة وتفهّم، في وجهه طيبة وملامح ابن العرب. أمسك بطرف الشريط اللاصق على فمي وتردَّد ثم تركه ولم يُزِله. خطا إلى الخارج أيضاً. مبلَّلاً أواجه البرد والعطش، تتناهشني الأفكار ويخدرني الأمل.. بسيارتي التي لا بد أن أحداً سيراها في الساحة، سيبلغون المخفر، أبناء عمي سيهرعون للبحث عني لا شك. وتكون قضية رأي عام تكبُر ولا تصغر، تهت في أحلام انتهت بدخول ابن العرب، صفق الباب بقوة خلفه. يحمل

قنينة ماء يخرج منها مصاصاً. وبيده الأخرى قلم، ثقب به الشريط اللاصق. صرت أشرب من المصاص ماء بالكاد يصل لي. كل قطرة شعرت بها تسري في عروقي.

«ما تفسيرك لما وجدناه في السيارة؟».

عيناه مسلطتان عليّ وقد ارتخى جفناه كمن يريد النوم، نبرة مَن لا يحبِّذ اللف والدوران. أخرج من جيبه العلوي ورقة مطوية، فتحها بعناية؛ شعار الدولة في أعلاها وجدول مرتب أسفل منها.

«كل شيء مذكور هنا، فلا داعي للإنكار».

عاد إلى كرسيه، امتطاه مقلوباً أسند ذقنه إلى ظهر الكرسي، وعاد بالنظرة ذاتها.

«ما رأيته حتى الآن لن تعدّه شيئاً مقابل ما ستراه إنْ لم.. تتعاون».

مال بكرسيه إلى الأمام حتى كاد يسقط، مدّ يده ناحية الشريط اللاصق وأمسك بطرفه ونزعه بقوة، الألم لا يُحتمل، صرخت وطفرت الدموع الحارة من عيني بغزارة، شعرات شنبي كأنها مربوطة بقلبي. أحسست بلزوجة فوق شفتي، دماء. سكتُّ قليلاً لم أجد شيئاً أقوله. بدت نوبات الربو قريبة.

«أنا مريض!».

وجهه البارد لم يتحرك، هو مَن تحرك، قام واقترب وبصق في وجهي وقرَّر.

«لن تتعاون».

صرخت أن لا شأن لي، وأنهم بالتأكيد يقصدون شخصاً آخر، وأن لا علاقة لي بأي شيء. لم يلتفت نحوي. ذهب وعاد بآلة حلاقة صغيرة تأزّ، انفجر ضاحكاً، كأن الأزيز يدعوه لذلك.

«لا أتحمل منظر شنبك المضحك، فنصفه اليمين يكاد يخلو من الشعر، لذا سأحلقه لك. هل يوجد أرقى من ضابط يحلق لتاجر ممنوعات؟ الشرطة في خدمة الشعب».

أدرت رأسي مبتعداً عن الماكينة.

«أمين.. يا أمين.. تعال هنا».

أعاد النداء مرات، دخل بنغالي تكاد تختفي رقبته من السمنة. أمسك برأسي كما يمسك برأس خروف. واقترب الأزيز مجدداً، أغمضت عيني. والألم يشرخ صدري. بدأ بالحلاقة من طرف شفتي اليمين إلى أن وصل أسفل أنفي فتوقف.

«سأتوقف، فلا مانع لدي من الضحك، عندما يأتي مجبل سيغشى عليه لا شك. الضحك قد يخفف من قسوته!».

مجبل هو مَن لطمني قبل أن أبتلع سني وأفقد الوعي.

«سيعود صباحاً أو ظهراً، إن لم تتكلم حتى ذلك الحين، فالله يستر عليك. لن ألصق الشريط على فمك الآن، سأفعل قبل أن يأتي».

هذا الضابطِ يلعب دور الطيب، والآخر يلعب دور الشرير ويريدونني أن أعترف بما لم أرتكب. أحاول التملص كضبّ سُدّ باب جحره. لا سبيل للهروب إلا أن أذهب إلى النيابة. رجع الألم في صدري، هذرت بكلام وبدأت أكحّ بعده. خرج الضابط

مرتاحاً، الحكة تكاد تخلع بلعومي حتى إذا ما شارفت الغيبوبة خفتت. الإعياء نال مني وضرب الخرطوم البلاستيكي تتوهج مواضعه. صدى الأسئلة في رأسي يدوي، أجد إجابة وأقتنع بها لدقائق حتى أكتشف الثقوب التي مُلئت بها فأصرف النظر وأبحث عن إجابات أخرى. إن اعترفت بما لم أرتكب سأنفيه لاحقاً أمام النيابة. قد يكون لـ(ج) علاقة بما أنا فيه. ولا أستبعد أن يطلّ من الباب ويبتسم. بطني يغرغر من الجوع، رائحة ساندويشات البطاطا المقلية التي تركتها في السيارة باتت زاكية، وطعمها الذي كنت أمقته صار تحت لساني، أستشعره في لعابي، لو جاء بها الآن لأكلتها بالورق الذي يلفها ولن أنتظر حتى أزيله. رأيت في منامي (ج) يدفع الباب، ويدسّ ساندويشاً مليئاً بعشب قذر في فمي، أحاول إغلاقه بقوة ويستمر في دفعه فأبتلعه. يضحك ويقول: ساندويش طراثيث على ذوقك. بعدما تفرَّست في وجهه لم يكن وجه (ج)، بل وجه من ضربني على رأسي في الكابوس عندما خرجت من الماء المتجمّد. إنه بالضبط وجه من سلَّمنا عليه عندما كنت أقف مع مبارك المجريطي قبل الندوة في الصليبيخات!!

أفقتُ وإذ باللاصق على فمي مجدداً. فتح الباب ودخلا عليّ، بيد مجبل مقصّ وفي الأخرى كأس ويسكي مُلِئ بالثلج يمتص منه بهدوء وسيجارة بين الأصابع. يهزّ المقص بعصبية مشيراً نحو بطني، ذهب خلفي وسمعت صوت الكأس يوضَع على الأرض. بينما اتجه الضابط ناحية الحائط حيث اصطفَّت ثلاثة كراسي خشبية ذات قوائم مرتفعة لا بد أنّ الذي أنا مربوط به رابعهم، أمسك بِعَصاً معدنية بجانبهم ووصلها بالطاولتين حتى شكَّلت عارضة

كجهاز قفز الزانة وأحكم تثبيت طرفي العصا بقطعة معدنية. مجبل من خلفي قصّ دشداشتي من عند الرقبة ثم أمسك بطرفيها ومزَّق الباقي بيديه، التف إلى الأمام، نظر في وجهي. أخرج هاتفه وعبث به، قرّب رأسه من رأسي، ثبَّت عدسة كاميرا الهاتف أمامنا والتمع الفلاش في عيني واستمر لمعانه لثوانٍ. أرجع هاتفه، همس في أذني.

«**يا ابن القحـ. . أنا سأربيك وأعلمك كيف تقيم علاقة مع مَن هم أعلى منك يا سافل**».

من يقصد؟! أمك هي العاهرة يا ابن. . حرق في جلد كتفي أسفل رقبتي سرى إلى قلبي مباشرة وانفجر ألماً لا يُطاق، أطفأ سيجارته هناك. خرج الضابط كمن لم يأبه بما حدث. أخرج سيجارة أخرى من العلبة، أشعلها، أشار إلى البقية

«**سأطفئها في أماكن لن تتخيلها!**».

عاد الضابط ومعه شاب آخر أخذ ينزع غترته ويطويها، تحت القحفية بان الشعر منحسراً إلى أطرافه. هو معهم، نظر نحوي كما ينظر إلى كلب نافق.

«**هذا هو المتهم؟**».

وجهه ناحيتي وسؤاله لهما. أجابه الضابط متصنعاً الهدوء.

«**نعم يا علي، هو المتهم، وكاد يعترف، لذا اتصلت بك وطلبت حضورك، لكن يبدو أنه يحتاج إلى المزيد من الدلع**».

أربكه الردّ ولعل كدمات الضرب على وجهي وآثار التعذيب عليّ فعلت بنفسه شيئاً، فأنزل بصره إلى الأرض وهو يقول:

«يا ابن الناس، اعترف وإلا فتحمّل ما سيأتيك».

أمسك بالعقال والغترة بيده، سقطا على الأرض، كان مرتبكاً. نفض الغبار عن الغترة وغادر تاركاً العقال على الأرض دون أن ينتظر أي اعتراف أو حتى يزيح اللاصق لأتكلم. أغلق مجبل الباب وأقفله.

«هذا وقت الشواية يا فواز».

قالها مجبل بمتعة للآخر، اسمه فواز. هل سيضعونني على النار؟ عصبت عيناي مجدداً، بدأ الوثاق يحلّ عن ظهري، فصرخت صرخة مكتومة من ألم قصم عمودي الفقري جعلني أريد أن أركض فأضربه بالحائط لعله يخف قليلاً. حُملت كخروف، كل من جانب إلى حيث وضعت العصا المعدنية. ملابسي الممزقة تساقطت مع الحمل وبقيت بسروالي الداخلي. لامست العصا المعدنية باطن ركبتيّ من الخلف، ثم ثَنَوهما على العصا، ألصق صدري بفخذي وكاد رأسي يلامس ركبتي، ومررت يداي من أسفل العصا، والتقتا عند الركبة وربطتا بقسوة. صرت معلقاً كدجاجة في شواية. دفع أحدهما رأسي إلى الخلف فكاد يلامس الأرض، صار رأسي في الأسفل وكتلة جسدي في الأعلى. ارتاح ظهري لدقائق، خلالها، انتقل الثقل نحو كتفي. وبدأ ألم لم أخبره من قبل، جسدي يعذب نفسه، كتفي سينخلع. أزال العصابة عن عيني.

«سنخرج، وسنرى مراجلك».

خرجا. عادت الدموع إلى عيني، رأسي المائل جعل الدموع التي انفجرت تعبر صدغي وتختبئ في شعري حتى صار رأسي

مبتلاً، بارداً. كتفي ينفصل عن جسدي مع الوقت، الآلام تحتشد، نوبة ربو تلوح. ألم رماني في هذيان، وذكَّرني بعذاب يوم قائظ من أيام الصيف، كنت مراهقاً، لما أسرعت إلى غرفة في ملحق بيتنا القديم استخدمناها كمخزن للخيام. مددتُ يدي إلى حيث أخبئ علبة سجائر فسقطت عليّ الخيام المستندة إلى الحائط وانسحقتُ تحتها. كل ذلك تمّ في ثوانٍ. عندما دخلت المخزن كنت أنفجر غيظاً وأطلقت العنان لدموعي فقبلها بساعتين أمسك بي محاسب الجمعية وأنا أسرق من الفرع واتصل بابن عم لأبي في إدارة الجمعية التعاونية والذي دفع قيمة ما أخذت وأقفل الموضوع مع الجمعية قبل أن يصل إلى الشرطة، لكنه اتصل بوالدي وأيقظه من قيلولته التي لا يحب أن يسلبه أحد إياها. حلفت له بأني سأتوب ولن أفعلها ثانية، لكنه أصرّ. دخل والدي وقبَّل أنف ابن عمه مراراً ثم التفت نحوي ودون أن يعلم ما حدث استلّ عقاله أخذ يضربني فأمسك به ابن عمه ورجاه ألا يضربني. جرّني من رقبتي وقذف بي في سيارته البرتقالية. قاد سيارة الأجرة التي يعمل عليها إلى منزلنا بسرعة غير معهودة. عندما وصلنا ترجلت من السيارة والتففت نحو بابه كي أقبِّله على رأسه، لكنه ابتعد بسيارته مسرعاً. رقدت تحت وطأة الخيام أبكي ويُعيد لي الصدى صوت بكائي، ربما كانت تلك آخر مرة بكيت فيها. صدى استغاثاتي تبدَّدت. نمتُ حتى أتى المساء وسمعتُ صوت أمي يتناهى إلى سمعي ولا أستطيع الردّ من الإعياء. عندما رأيتها أغمضتُ عيني ولم أفتحهما إلا تحت إضاءة غرفة الطوارئ الساطعة ووجه والدي وإلى جانبه ممرض هندي ودكتورة مصرية، بدا خائفاً، عندما رآني أنظر إليه عاد إلى وجهه

القاسي وخرج تاركاً أمي التي أعرف أن عينيها تدمعان من خلف البرقع الأسود. يومها كانوا هناك وأخرجوني، واليوم.. من يُخرجني من هذا العذاب؟ جسدي سينقسم إلى نصفين. عادت نوبة الربو صرت أسعل وأسعل، طعم الدماء دار في حلقي. صرختُ بأنني سأعترف وأعترف، أعترف بكلّ ما يريدون. أريد أن أنزل. دخل الضابط الغرفة يتبعه مجبل بوجه مذهول.

«تبكي كالأطفال؟ لم ترَ شيئاً».

عقب فواز **«قال سيعترف»**.

«أعرف ألعاب هؤلاء المهرجين جيداً، للتو قلت لي إنه اعترف، وتسرَّعت بالاتصال بعلي، هم يعترفون ولاحقاً عند التحقيق ينكرون كل شيء.. دعه لي».

خرج الضابط فواز وهو يقلب يديه في الهواء متبرماً. أخرج مجبل هاتفاً من جيبه، ووضعه قبال وجهي، أراني صورة ما ظننت أني سأراها. أرجعه إلى مكانه وعيناه اختفى بياضهما في لون أحمر. تلفّت يُمنة ويسرة، لمح العقال على الأرض، التقطه، رفعه عالياً وسط ذهولي من الصورة التي شاهدتها وصرخ.

«والله سأنهي حياتك يا زبالة، ولن تكون آخر كلب يموت بجرعة زائدة».

أنا سكرى، لا تسافر بكم ظنونكم بعيداً. لم تستهوِني الكحول قط، بل ما فكرت في تجربتها، عدا مرة يتيمة في لندن مع صديقة لي جربنا خلالها علبَتي بيرة ولم أستسِغها، لكني ما زلت أستحضر نشوتها، الكلام الحلو هو ما يُسكرني، تدغدغني حروفه وتُرجعني طفلة. في مكتبي في البنك يراجعني العملاء وأجتمع بالمديرين، يظنّوني جدية ولا يشعر أحد بي وأنا أحدق بهم وأسجل ملاحظاتي على ورقة بينما قلبي في الداخل يرقص لإطراءاتهم التي يفتتحون بها حواراتهم ويختتمون، أحاول إلهاء نفسي لئلا أسيخ أمامهم. أعشق الغزل، وأنا في هذه اللحظة متخمة منه، منتشية، خطوات كلماتي متعثرة وقلقة وخائفة منها. أسير على حبل كبهلوانة في سيرك، الحبل الفاصل بين العقل والجنون، لذا بليز لا تصدّقوا كل كلمة أهذي بها، بليز، تعالوا معي إلى لندن، إلى ريجنت بارك. هناك حيث تنفّست الحب الحقيقي -إن كان هناك حب حقيقي في هذا العالم- طوال فترة دراستي هناك، زاملني، عشقته رويداً رويداً، احتسيته على مهل، لماذا وكيف تغرم امرأة برجل؟ لعلّ صورته صورة فارس الأحلام كما في الأفلام. نعم هو كذلك، كنت أعلم النهاية المحتومة وأحاول نسيانها لأقتنص السعادة وأستمتع باللحظة.. لن نقترن ببعضنا، السبب سخيف لن يأتي لأذهانكم ولو منحتكم ألف ساعة للتفكير. هل عائلته غير أصيلة؟

لا ، بل أجدادي وأجداده ينحدرون من القرية نفسها في السعودية. هل تقلّ عائلته عن عائلتي ثراء؟ هل وهل وهل؟ لا ولا ولا . . السبب هو خلاف تجاري قديم بين عائلتينا لم يُحَلّ ولن يُقضى بينهم إلا يوم القيامة. كل الطرق مسدودة أمامنا إلا أن نتزوج ونضع الكل أمام تلك الورقة. هو جبان لن يفعلها وأنا لن أفعلها رغم جنوني. تمنعت عنه طوال سنين الدراسة. لا أدري هل أكمل هذياني أم لا؟! سرٌّ احتفظت به لسنوات سأرميه على قارعة الطريق أمام مَن لا أعرفهم. بليز، لا تصدقوا كلامي هو هذيان لا غير. كم أودّ أن أفتتح فقرة للصراحة كما يفعل رجل أعرفه وربما صرتم تعرفونه، دائماً يقولها قبل أن يلجَ في صراحته المفزعة، أحببت هذا التعبير منه، افتتاح فقرة للصراحة. أنا أجبَن من أن أفعل، لذا سأواصل هذياني وأكمل القصة لكم. في ليلة قبل عودتنا بعد التخرج من عاصمة الضباب، جلسنا سوية، طال الصمت ونحن نتقلب على تخوم اللذة. بلحظة جنون قرّرت منحه ما تمنعت عنه، لا أعرف أين كان عقلي حينها. أذكر صدره يعلو ويهبط، يتنفس كمن خرج من غرق والعرق يكسوه. ارتدى ملابسه، عند انتهاء سيجارته قبَّلني وخرج. لم أره من يومها. نعم لم أرَه، طار ليُكمل في أميركا ماجستيره وتركني أعود إلى الكويت. في الطائرة تسلّل سؤال الرعب إليّ وخنقني. . ماذا لو؟ بعد وصولي بيوم، كنت قد أقفلت عليّ غرفتي أخربش على الورق غراباً. جاء أبي ليُخبرني عن خبر بسام ووالده وتقدّمه لي، وطلب مني التفكير، التفكير يحتاج إلى عقل وعقلي طار منذ كنت في الطائرة ولم يعُد، وافقت. أبي الذي غمره الفرح واحتضنني خرج من عندي وفي عينيه عدم

تصديق. ظنّ أنني سأرفض أو أتردّد على الأقل. زادت دهشته عندما تصلَّبت في رأيي بعدم إقامة عرس للنساء، أمي ارتاحت فآخر ما تريده هو الاجتماع بأهل والدي مجدداً تحت سقف واحد. بسام أقام حفلاً للرجال. همّ الليلة الأولى انجلى بأعجوبة، كنت خائفة من ردّ فعلٍ لم أجده على وجهه، فهو الآخر تملَّكه القلق والحياء. قضينا أياماً جميلة في إيطاليا. بعد عودتي من شهر العسل اكتفيت بحفل استقبال صغير قصرته على صديقاتي المقرّبات اللاتي لُمنني على عدم إقامة عرس. أحسّ بندم لما كشفت لكم ما طويته في صدري لسنين، لم أبُح بسري يوماً لأحد حتى لأقرب صديقاتي. تلاشت نشوة الكلام الحلو بعدما قلت لكم ما قلت. ورجع لي همي بولدي، ما حصل له من تحرّش تبيَّن أنه مبالغة من سائقنا فطردناه، يريد أن يتبلى على صاحبه. عبدالمحسن لم يمْسَسه أحد وبكاؤه لا يعدو رغبة منه في إثارة اهتمامنا به بعدما أهملناه كما قال لي دكتور علم نفس في الجامعة وجهني نحوه صديق، لكن ذلك لن ينسيني إهمال والده له. والده الذي منحته بعد العرس ما لم أفكر بأن أمنحه لزوج، كبريائي. بعدما عشت حياتي كلها وهو يسير في ظلي، الآن بتّ أشعر بأنني مُسخت قزمة. السرّ أثقل عليّ. وحملي بابني أرجع لي السؤال الذي تناسيته.. ماذا لو؟ ولد عبدالمحسن بسحنة تختلف عن أهلي ولا تقترب من ملامح أهل بسام، اضطرابي فهمه الجميع على أنه خوف من مسؤولية الأمومة، لم يعلموا بما يعصف في ذهني. جدة لأخوالي، عجوز الكل يعرف لسانها الحادّ، منذ نظرت في وجهه نفت أنه من وجوه الميلان، نبض قلبي كاد يختفي لولا أنها أكملت بأنّ وجهه كوجوه الصعايدة

أخوال بسام. وبين ضحكات الجميع على تعليقها، أخافتني الجدة تلك بنظرة سلَّطتها علي ثم أبعدتها. كبر عبدالمحسن وراح كل ذلك الكلام، لم ألجأ إلى مختبر يحسم ضباب الشكّ واليقين. كل ذلك صار نسياً منسيّاً. الزميل اللندني بعد ذهابه إلى أميركا تزوج من شقراء، وربما صار عنده ابن منها حسبما سمعت. ما زال عطره بعد كل ما جرى، باقياً. للحب الحقيقي نقوش على الروح كالنقوش على الآثار، يرحل من صنعها وتبقى هي. هل صدّقتم كلّ تلك الحكاية؟ ما أروعكم، ماذا لو قلت لكم أني ارتجلتها؟ أي قصة ستلبث في ذاكرتكم التي حكيتها لكم للتو أم هذه التي سأرويها الآن؟ من أحببته في لندن، فارس أحلامي، لم يخذلني، أنا من خذلته. عزمنا على الرحيل لإكمال الدراسة في أميركا وعندما نصل نتزوج ونضرب الجميع في الحائط، في اليوم الأخير تركته يركب الطائرة وخرجت من المطار، خرجت من حياته، كتبت له رسالة بأنني لن أفعلها وأتجاوز عائلتي، فأنا لست رخيصة ومقطوعة من شجرة. المسكين لم يتجاوز تلك الحادثة بسهولة واستمر يشكو لي العشق. عندما رجعت جاء بسام ليخطبني وقبلت به، أعلم أنه عشقني، ولن أنسى ذهاب والدي إلى مخفر الشرطة في لندن، ودفعه تعويض لفتى ضربه بسام فقط لأنه تقوّل علي. آه، خبرت الحب لذا لا أعتقد أنني بعد هذا العمر أخطئ في تمييز علاماته وأعراضه، فأنا استمعتُ وعايشت وعشتُ وعاينت تلك النظرات التائهة للمغرمين. قد نجهل إنساناً ما يعيش بقربنا فقط لأنه قريب، كلما ابتعدنا عنه صارت الرؤية أوضح. وبسام الذي يعلم أنني أكشفه من نظرة تغيَّر كثيراً؛ يدندن ألحاناً لأم كلثوم التي كان

يطلب مني أن أغير القناة التي تعرض أغانيها إن انسجمت معها، يغني «هل رأى الحب سكارى مثلنا» وهو يستحم، ويعتني بلباسه أكثر من ذي قبل ويقتني بيجامات نوم مختلفة عن ذوقه القديم؛ عندما يعبق البخور في المنزل أعلم أنه سيخرج. عطره ينفد بسرعة، أهديته عطوراً أخرى، لكنه مصرٌّ على ذلك العطر العادي الذي تبنّاه ولا يطيق غيره. صار يسدي ملاحظات عن لون أظافري ولباسي وتسريحة شعري، في البداية تثير إعجابي وما تلبث قليلاً حتى ينقلب إعجابي سخطاً وأنغمّ باقي النهار، منذ متى بات يهتم بالتفاصيل؟ يقلب هاتفه إنْ جلس بقربي كأنه يخاف مكالمة مفاجئة. لم أظن يوماً أنني سأغار. عندما أراه في منامي مع فتاة في غرفة فندق تشابه غرف فندق كنّا نسكنه في لندن، أوشك على أن أصرخ به بأنني كشفته، أحسّ بيد تمسكني من خلفي، ألتف وإذ هو أبي يُسِرُّ لي بأنه ليس بسام! أستيقظ من منامي والهمّ يرزح ثقيلاً على صدري وعندما أتذكر الحلم، أصدّه وأبتعد خوف المرض، أنا أعلم أنه مجرد حلم وخوفي شديد من أن يتحول واقعاً وتصير سيرتي على كل لسان، كم أخاف الفضيحة، لا أريد أن أدخل مطعماً فتميل فتاة على أذن صديقتها وتغمز نحوي وتتضاحكان، في أفضل الأحوال سيصفنني بالمسكينة، لست كذلك. لا أذكر متى وجدتني أفتش في متاعه لأول مرة، قلبت محفظته وهاتفه الذي أقفله برقم سري اختلست النظر إليه فحفظته وصرت أنبشه عندما يدخل الحمام. لم أجد شيئاً في البداية، حتى أتى اليوم الذي أرشدني الله إليها، ورأيتُ اسمها في رسائل متتابعة في هاتفه. بيسْرية لا أصل لها، لم أتعب بتعقبها، كل التفاصيل أتت لي وأنا

أضع رجلاً على رجل، علمت أنها تعمل في إدارته. وجدتُ حسابها على الفيسبوك وحواراتها موجزة وعلامات تنصيص توحي بالكثير ممّا يدور بينهما وأنا غافلة. ولجتُ إلى صورها، صور معتادة في رحلات سياحية وأخرى بجانب طائر بوم أبيض في حديقة حيوان كما يبدو، وصور لوحات رسم فيها البوم في وضعيات وأنواع متعددة، يبدو أنها مجنونة ومنحلّة والرجال يجتذبهم هذا النوع. لم يعلم أنني بتّ أعرف كل ذلك، الرجال ثقتهم بأنفسهم ليس لها حدود ويظنون أنهم قادرون على إخفاء كل ما يريدون إخفاءه، قد ينجحون، لسبب واحد لا غير؛ هناك امرأة لا يهمّها أمرهم. على الإفطار أريته رسالة مليئة بكلام عاطفي واضح جداً أنه أرسلها لي بالخطأ فلم ينبس بكلمة، قام إلى غرفته وسمعت صوت ارتطام زجاج على الأرض. في المساء عاد لي بخاتم ماس كرهته بقدر ما أحببته، أمضينا ليلتنا معاً رأيت انعكاسها سعادة في وجه عبدالمحسن عندما قدم صباحاً ليقبِّلني قبل ذهابه إلى المدرسة ودُهش لرؤية والده في الفراش. تردَّدتُ كثيراً قبل أن أقدِم على فعلٍ ما، فهو لا يتدخل في حياتي، إهمال اختلط بحرية تعوّدت عليها. فلماذا أقحم نفسي في حياته؟ أليس من الأجدى أن أتركه يعيش كما تركني؟ في ليالٍ يرميني بكلمتين حلوتين فأرجع إلى حياتي وأنسى، مع بخات عطره أنقض قراري بالابتعاد وأتبع ضوعه، أقود سيارتي خلفه دون أن ينتبه، يصل إلى مقاهي منزوية عن الزحام، حافلة بوجوه غرباء ليسوا من هذا البلد. أقف بسيارتي في الخارج، أراه يترجل نحوها يمسك بيدها ويدخلان المقهى. أتردَّد هل أنزل وأفتح باب المقهى وأصرخ في وجهيهما؟ لم أفعل،

لا أريد أن أكون موضوعاً للحديث. يعود مساء، يدخل ويداعب عبدالمحسن ويختلق حديثاً عابراً فأسأله عن يومه فيبربر بكلام كثير وأنه انشغل في الديوان مع أبي وأعمامي، يحاول التعويض بترخيم الصوت وملامسة رقبتي، يدخل الغرفة ويناديني، عندما آتي يضع هاتفه ويدعوني لفراش صار خشبة مسرح، هو يمثِّل.. وأنا سأمثِّل، بل وسأتفوق عليه. أتلذذ في منحه صدى رجولة زائفة. بين فصول المسرحية يضيء هاتفي برسالة من أبي يجيب فيها علي: بسام كان معي في ديوان العائلة! هل أكذِّب عيني عندما رأيته في المقهى معها؟! إنهما يدفعانني للجنون. أبي لا يكذب، بل هو ذكي ولا يريد للمشاكل أن تعود من جديد فأنا أظلّ ابنته الوحيدة وهو يستلطف بسام لإخلاصه. هو أيضاً صار يتغيب عن الديوان وصداقته مع أحد المشايخ أفهمتني الكثير. كل الرجال يكذبون وكذبهم لا يقنع سواهم. بعد أن كان لا يملّ من قراءة مجلات السيارات الرياضية واليخوت صارت الكتب تتكاثر بين يديه، ويرسم خطوطاً أسفل جمل رومانسية. وفي الآونة الأخيرة يمسك برواية غلافها أزرق يبدو أنها لن تنتهي. لم تفلح أي من محاولاتي ليشركني في حياته الجديدة. في حسابه على الفيسبوك يضع مقاطع من قراءاته وتزهر أسفل منها تعليقات أصدقائه وصديقاته، وأكثر من أضحكني وقال ما في نفسي هو يوسف؛ عندما أفهمه بصراحة أمام الملأ بأن دور الأديب والمثقف لا يليق به. كدتُ أن أضع لايك على تلك المشاركة. البومة البيسرية كانت ممَّن يعقِّبون على حديثه، فيردّ ردّاً مقتضباً أعرف منه أن ثمة حواراً آخر دار في مكان ما. عندما يخبرني بأنه سيسافر في رحلة قصيرة أقبِّله ويخرج. أسرع إلى

منزلها، أركن في زاوية بعيدة ولا أرتاح إلا عندما أراها تصلُ وتنزل فأتأكد بأنها ليست بجانبه على الطائرة، لكني متأكدة من أنها تزوره عندما يكون بجانبي نائماً، لكني لا أملك الولوج في أحلامه.
مضى عام دون أن أجد لها مشاركة في الفيسبوك سألت عنها في إدارته فعلمت أنها استقالت قبل سنة. ليلة عاد من ديوان الصليبيخات وولج في هذه الحمى وأنا أجالسه وأسمعه يشكو آلاماً تعذبه طوال الليل. كان يوسف صديقه قد لمَّح لي بأنه سيهاتفني لأن لقاء سيتم بين بسام وفتاة في شقّته. ثم اتصل غاضباً بأنه لا شيء من هذا سيحدث، لم أعرف ما الذي جرى، صدق بسام، يوسف يستهويه الكذب. بين الصحو والنعاس كان رأسي يهوّم عندما سمعته على الفراش يهذي باسمها، ويردّد ماتت ماتت، يا خوسيه، ماتت، عادت سيرة تلك الفتاة على لسانه. حزمت أمري واتخذت قراري، بدأ العدّ التنازلي.

دخلت عليّ تلك الفلبينية باكية، لباسها مقطّع وبان بعض جسدها. خمَّنت أنه اغتصاب كالعادة، وغالباً ستكون مواقعة برضاها ومدفوعة الأجر، لكن الأمور جرت على غير ما تهوى أو.. يهوى، فصار ما صار بينهما. أجلستُها وطلبت من السكرتير أن يأخذها لتبديل ملابسها ثم يعود بها ثانية. ازداد بكاؤها، لعلها تذكرت أمراً. غمزتُ له بأن يخرج وأجلستها ثانية. ووضعت يدي تحت ذقني. هي قصيرة كأغلب الفلبينيات، رغم ذلك فهي جميلة وقامتها هيفاء، وتبدو بأوائل عقدها الثالث على الرغم من توسطها العقد الرابع. رمقت وظيفتها من على الورقة أمامي، عاملة في صالون، أعدت قراءة اسمها ثم سددت نظرة نحوها وسألتها Ms. Eveleen what happened to you? انخرطت في نوبة بكاء ثانية. لم يلامس بكاؤها شيئاً فيّ فهذا المشهد يُعاد كل أسبوع. حتى الأفلام نفتقد لذة مشاهدها التي تعتصر لها قلوبنا عندما تُعاد وتُعاد عبر محطات الأفلام. رجعت إلى دوري، صرخت فصمتت، هدَّدتها بالسجن فانحسر البكاء وبدأت بالكلام الذي سردت فيه كلّ ما أرادت، لم أبالِ بتفاصيل سخيفة كأحلامها، تركتها تسترسل لا أريد مقاطعتها؛ هو بنغالي تعرَّفت عليه منذ ستة أشهر، يغدق عليها المال، متَّخذاً منها خليلة. يحضر إلى شقتها في منطقة الرقعي

زجاجة من الخمر لا يقدر على ثمنها البنغال عادة فهم يستعملون خمراً محلياً رديئاً يصنعونه ويروِّجونه، ويمضي معها ليلة ولا يغادر إلا في ضحى الغد. انبهرت به وبالمال الذي يجري بين يديه. وعدها بالزواج، فارتبطت به أكثر، تنتقي له أحلى الملابس من أسواق الصالحية الشعبية وتعلمت صناعة الأطباق البنغالية. ودون إنذار اختفى من حياتها، تبخر، بحثت عنه ولم تجده، ربما مات دهساً كما ترى في كوابيسها، ثم دفن على جانب الطريق وترى في منامها أنها تهيل التراب عليه. لم يبُح لها بالكثير عن عمله سوى أنه يعمل في استراحة لأحد المتنفذين في منطقة المزارع. انقطعت أخباره وطوقها الحزن، حتى رأته في مطعم مع فلبينية أخرى. فهجمت عليه، وأمسكت به تهزّه بعنف، احتواها بكلمات، ثم أخذها إلى المزرعة وتركها لصاحبيه ليفعلا بها ما فعلا، ورمى نقوداً في وجهها وطلب لها تاكسي. كادت تنتحر في ذلك اليوم أكثر من مرة، لكنها أيقنت أن انتحارها لن يؤثر به، بل سيعيش حياته ويكملها كما يشاء، وهي تريد أن تنال منه بأي ثمن. لذا أتت لتشتكي حادثة ضربها. التفاصيل متفرقة سمعت مثلها في قضايا سابقة، لكنها لم تجتمع في سياق واحد من قبل. تركتها تستطرد على الرغم من حشد الأسئلة في ذهني، سرحت أثناء حديثها في فكرة رواية عن العمالة في الكويت ومعيشتهم وأحلامهم التي تتحول إلى كوابيس وكلّ ما يتوارى خلف قصصهم. رجعت إلى الواقع وناديت السكرتير، وأمليت عليه ما سمعت. جلست صامتة، انفجرت باكية مجدداً. هل أحبته فعلاً؟! حياة غريبة، من يبحث عن

الحب يلاقي سرابه، ومن لا يبحث عنه يلاقيه ويزدريه! عندما انتهى السكرتير من كتابة المحضر، طلبت منه أن يكتب طلب إلقاء قبض على البنغالي، ويرسله إلى المباحث ليترصدوا له في شقته بمنطقة الرقعي أو في الاستراحة. لم تكن تعرف اسمَي صاحبيه وعلى الأرجح لا يهمّها أمرهما. هي تريده هو وأنا أيضاً.

10

فصل: مكالمة لم يرد عليها

في اليوم السابع، أدركت أنني اجتزت المسافة بين الحياة والموت الذي واجهته مراراً، في لحظات القنوط تمنّيت أن يفتح بابه لي لأرتاح. كثيراً ما ألوح بيدي أو أصرخ لأثبت لنفسي أنني لا أزال حياً. وأحياناً يتمادى بي الخيال وأرى أنّ صراخي وتلويحات يدي متوهّمة وأنني ميت فأنا لا أعرف كيف يشعر الإنسان بعدما ينطفئ، ولربما كنت كذلك دون أن أدري. هلاوس وكوابيس وإبر في كل جلدي، أنطوي كجنين، يعصرني مغص، معدتي فارغة. محاولاتهم لإطعامي تبوء بالفشل. جاء لي طبيب في المنزل وأتت معه ممرضة. أخذوني لليلتين إلى المستشفى وأوصلت يدي بأنبوب جلوكوز يحاول تعويضي. اللقيمات التي آكلها صغيرة جداً بالكاد تسكت الغرغرة التي في بطني وسرعان ما أستفرغها. رجعت إلى المنزل بعدما انتظم كل شي وصرت لدقائق آكل بنهم وأتذوق الطعام كأنني لم آكل قبلاً، بعدها بساعات أرجع للضمور كجنين أتلوى من الألم والشرشف أسفل مني يبدل مراراً من العرق الذي يبلله. فسّروا ما حلّ بي بأنه تسمم حاد، ربما كانوا على حق، لكن

التسمم هو القشة التي قصمتني بعد أن هبطت فوق الأحمال التي على كتفي.

بينما أنا بين الحياة والموت، جاءتني رائحتها قبل أن أفتح عيني وأراها، يدها الدافئة تمسِّد شعري وتترنم، أفتح عيني فتتمتم بأدعية أعرفها وأردِّدها في قلبي معها. أغمضتُ عينيّ مجدداً وتمنيت لو أنني أختفي من الوجود. تمسك براحة يدي، تمرِّر أصبعها على كلّ الخطوط فيها، تطوي الإبهام، يليه السبابة، ثم الذي يليه، ومن قاع عميق يجيء صوتها، آدي البيضة، آدي اللي سلقها، آدي اللي قشرها، آدي اللي أكلها، آدي اللي قال إديني حتة، . . . هل تمتمته، أم هي الذاكرة؟ ابتعدت منذ زمن لا أذكره عنها، ولا شيء يربطني بها سوى تهنئة العيد المقتضبة وقبلة خاطفة على رأسها، ومكالمات تكاد تكون شهرية تنتهي قبل أن يدور عدّاد الوقت في الهاتف ويتجاوز الدقيقة. صرت أحادث كل الناس أكثر منها، كلهم، حتى خادمتي أحياناً تبادلني الحديث عن طفولتها فأستمع لها، إلا أمي. لم يجرِ بيننا حوار منذ سنين. ربما نسيت صوتي، لكنني رغم ذلك، وجدتها هنا، رائحتها كما هي، ووجهها يعكس الرضا. أرجعتني طفلاً. الرجوع إلى الطفولة رجوع إلى الذكريات ربما لنتجاوز ألم الحاضر. عادت طفولتي، محبتي لدندنتها، لتعنيفها. في بيت العائلة في الأعياد، بين ضحكاتهم، كلهم يرددونها وأسمعها خافتة: ابن المصرية! عرضوا عليّ ثمن انضمامي إليهم، الثمن التخلي عنها ونسيانها، هل كان عرضاً مكتوباً، أم شفوياً؟ لا ذاك ولا هذا، أفعالهم هي الرسالة. متى ما

اقتربت منهم لأسابيع متتالية أو سافرت معهم في الصيف أكون أنا ابن الميلان، عندما أرجع ويجدونني ألتصق بقربها أرجع. . ابن المصرية! تنام على كرسي بجانبي، لا تأبه لراحتها. أسترق النظر إليها، لم ينل من ملامحها الدهر. بضعة خطوط عند أطراف العينين وعند الفم أكسباها حلاوة تمنيت أن أقترب وأقبلها، أحجمت. نادية لا أراها إلا لماماً، تكتفي بالوقوف عند الباب، وعندما أراها أهرب من نظراتها المربكة المرتبكة المتأرجحة بين حنيّة وقسوة. عبدالمحسن يقترب ويذهب، أحبّ لو أنه يتكلم، لو يخبرني بأي شيء، لكنه لا يفعل. أستدرجه للحديث والإعياء يهدّني فيخرج كلامي مبهماً، يستأذن بحجّة الواجبات أو موعد النوم. اتصالات عمي من الخارج يريد أن يطمئن، أطمئنه، يذكّرني بمعاملة معلقة في إدارتنا، أخبره بأني سأجري اتصالات بشأنها. أرجع إلى إعيائي. وبينهم كلهم طيف (ن) لا يغادرني. لو كنت شاعراً لنظمت بيتاً لديّ معناه؛ وجهها فيه سأشبّهه بالقمر وبالشمس وأنا مسافر في قطار، مهما عبرت فوق التضاريس يظلان ثابتين يرافقاني طوال السفر، ليتني كنت شاعراً. بدأت أفتح الكمبيوتر، فأرى العالم الافتراضي لم يكترث بألمي ومرضي واستمر بالجريان، فقط عدة رسائل في صندوق البريد تسأل عني، لم أجبها. تفحصت التايم لاين نزولاً، وجدت مشاركة لنادية؛ وضعت صورة كبيرة لدكتور القانون ورجال الأمن منكبّين على ضربه، وأسفل منها علّقت: أخيراً. . عادت دولة هيبة القانون، وكلام وخلفه كلام وتعليقات لم أجد تعليقاً ليوسف من بينهم كما توقّعت. طوال فترة مرضي نسيت

هاتفي ولم أنظر إليه، عندما أمسكت به وجدت مكالمات كثيرة لم أرد عليها. . الشيخ عبداللطيف، يوسف، عبدالوهاب. . وآخرين. وبين كل تلك الأسماء وجدت الاسم الذي ما ظننت أني سأراه ثانية في حياتي. . وجدت اسمها. . وجدت (ن).

11

فصل: آلو... بيروت

يداي ترتعشان وأنا أحكم ربط حزام مقعد الطائرة، توتّر لقلة النوم وبقايا إعياء المرض. أرجعت رأسي إلى الخلف، حاولت الاتصال بـ (ن) مجدداً لم أجد إلا الإجابة القديمة التي حفظتها: الجهاز مغلق أو.. ! المضيف يطلب مني إطفاء الهاتف. أرجع وأقرص فخذي ووجنتي، لا أريد أن أكون في حلم. الرسالة التي أتت بعد اتصالها كانت واضحة، ثلاث كلمات قرأتها ألف مرة «كراون بلازا - بيروت». لا أحب الإقلاع ولا الهبوط، هذه المرة لم أحسّ إلا والطيارة تخترق الغيوم وتستوي على السماء. أعيد جرد كل ما حدث منذ رأيت اتصالها وما بعده؛ ليلتها فرّ المرض مني كأنما كنت أكذب وأدعيه. قلت لنادية إنني ذاهب لملاقاة والدها في بيروت، فقد طلبني لاستكمال عمل، لم تبالِ، وأنا لم أبالِ لعدم مبالاتها. اتصال (ن) جاء كمعجزات الشفاء التي نقرأ عنها. سنة مرّت دونها، لم أترك خلالها طريقاً لم أطرقه بحثاً عنها. ربضت قرب كلّ مكان كنا نرتاده، كل مطعم وسينما ومقهى وشاطئ ولا أثر. سيارتها عند منزلها لا تتزحزح وهاتفها مغلق.

حاولت النسيان فلم أستطع، بل كلما أمعنت في قسر نفسي على النسيان تتكاثر الذكريات وتلتف حولي وتحاصرني. بعدما وجدت اتصالها اتصلت مراراً، يرن ولا ترد، حتى ظننت أن ظهور رقم هاتفها مجرّد خلل في الشبكة أو أي شيء.. عداها. عندما رنّ هاتفي، أعلمني صوت نداء مضيفين الطائرة بمكانها، أتاني صوتها بنبرته التي افتقدتها، على الرغم من كمية الثقة التي حاولت التنكُّر بها إلّا أن ارتعاشته فاضحة.

«أنا في الطائرة ومتجهة إلى بيروت، لا أحد يعلم عن رحلتي، إذا أردت.. سأرسل لك العنوان، حلفتك بكل ما بيننا ألا يعلم أحد عني شيئاً. لا تسأل فلن أجيب، مع السلامة».

صوتها المرتجف خوفاً، رحل بي إلى يوم مثل أمامي بكل تفاصيله. كيف ننسى ذكريات استعدناها مئات المرات؟ بذلك الصوت المرتجف نفسه اتّصلت بي صباحاً، ظننتها تبلغني كالعادة عن تغيبها عن العمل، لكنها سألتني عن مكاني، كنت في المكتب. رجعت تسأل عن موعد انصرافي فأجبتها في موعدي اليومي. سألتها إن كانت تريد شيئاً؟ هل ثمة أمر؟ تجاهلتني، وعادت للأسئلة.

«أنا قريبة من عيادة الأسنان، أيمكنك القدوم؟».

انطلقت نحوها مسرعاً؛ في السابق بعدما استنفدنا كل أماكن اللقيا، دعوتها إلى الشقة مراراً، تلعب لعبة القط والفأر، وفي النهاية ترفض. وفجأة من دون مقدمات تتصل تدعوني إلى المكان الذي رفضته من قبل!؟ نزلت من سيارتها والتحقت بي وأنا ألجُ

مدخل العمارة وصعدنا إلى الدور السابع. دلفنا، لم تنظر إلى عيني، ولا إلى الشقة فقد رأت صورها مراراً في هاتفي. قذفت بجسدها على الكنبة تنتحب بصوت عالٍ، ارتعبت.

«ماذا حدث هل أمك بخير؟».

أحب سواد عينيها، والبياض المحيط به، لطالما أنطقاني بكلام لا أعرف كيف خرج من فمي؛ بَدَّل الدمعُ بياضهما لاحمرار.

«بسام أريد أن أموت».

لم أفهم لماذا الموت؟ تفكيري عشوائي يتقلب كطائرة فقدت قدرة التوجيه. سألتها هل الموت هروب؟ احتضنتني بقوة تفوق أي حضن سابق. احتضان مشتبك بخوف. (لاحقاً دونت (ن) بالفيسبوك بعد أيام: نحتضن بعضنا ليختنق الخوف بيننا) بدأت بالحديث:

«لم أغادر غرفتي منذ خمسة أيام، لهذا لم أرد على اتصالاتك. بسام، أنت تعلم عني الكثير وهناك القليل الذي حجبته، حتى هذا القليل بثثته بين قصصي عن أخريات وآخرين كانوا.. أنا. ولا أدري أفطنت واسترجعت شتات ما قلت أم لم تلقِ بالاً لما أقول!».

بين جملة وأخرى ترجع إلى النحيب ويتأرجح صدرها الملتصق بصدري، شممت في فمها رائحة كحول، أعلم أنها جربت يوماً طعمها بالخطأ عندما طلبت مشروباً فجاءها آخر، لكني لم أعرف أنها تشرب! صارعت رغبتي بتهدئتها رغبتي بها. حملتها

إلى السرير، مددتها، انحسر حجابها. خبأت وجهها في صدري، عاد البكاء. وضعت رأسها على المخدة، مدت يدها في الهواء كأنها تريد أن تلتقط شيئاً.

«طوال حياتي، ظننت أن هناك من يمسك بخيط البالون، ومهما تلاعبت به الريح، سيظل مشدوداً بالخيط، لن يذهب بعيداً. الآن عرفت؛ أن لا أحد ممسك بذلك الخيط».

انقلبت تبكي، لم أرد، فالوقت ليس وقت نقاش. أسئلتها التي ترميني ببعضها من وقت إلى آخر، ارتدّت عليها، فعلت بها الأفاعيل. هدهدتها وكلمة البالون أعادت لي ذلك البالون اللامع الذي اشتريته من حديقة الشعب الترفيهية في طفولتي، أمسكته بيدي وأنا أتناول العشاء وعندما مددتها لآخذ علبة البيبسي أفلت من يدي. لم أستوعب فقدانه إلا عندما بدأ بالارتفاع. قفزت خلفه، صرخت، لم يرجع لي، راقبته وهو يبتعد. نظرت إلى شفتيها المكتنزتين، أنفاسها حرى، برز ملتقى نهديها من بلوزتها، التهبت، أمسكت برأسي وقربته وصارت تقبلني بنهم. لم أكن قد ذقت شفتيها إلا اختلاساً مرة أو مرتين، ولم نتحدث عنها مرة أخرى. تقبيلي الحذر تلاشى وبادلتها النهم فصرخت بعد حين وقد تمكّنت النشوة من صوتها بأنها ليست متهيئة. احتضنتني مجدداً واستكانت تريد النوم. تخيلتها كمن أقفل الباب وأشعل النار في غرفة ثم صار يصرخ بالنار ويحذرها من الاقتراب منه. لم أعرف ما حدث بي؛ نيرانها صارت برداً وسلاماً ولم يحرقني لهيبها. نامت كطفلة حتى مطلع الفجر. تقلَّبت قربها. البالون الذي اشتريته وطار اشتريت بعده عشرات البالونات نسيتها كلها إلاه، لم يبرح ذاكرتي.

توقفت المضيفة عندي وأخذت وجبتي التي لم أمسها، ارتشفت رشفة من عصير البرتقال فقط. من النافذة شاهدت القرى اللبنانية منثورة على جبال كستها الثلوج، والشمس تميل إلى الغروب. حاولت تذكر البيت الذي يردِّده يوسف دائماً عندما نصل إلى بيروت فلم أستطع. طلبت من المضيفة قرصَي بندول فاعتذرت فأخرج جاري في المقعد من حقيبة صغيرة قرصين قدَّمهما لي ابتلعتهما. عبرت السوق الحرة وأنا أجرّ حقيبتي الصغيرة، رأيت صفّ عطور فتذكّرت نسياني للعطر الذي تحبه (ن). لم أجد وقتاً للشراء، أسرعت للخروج، لفحني الهواء البارد. جاءتني السيارة المستأجرة وبعدما تفحّصتها انطلقت إلى شارع الحمراء، عبثت يدي بالمسجّل فلعلع صوت المطربة صباح ينطلق من cd في مسجّل السيارة. عندما لاحت السوليدير كانت الإضاءات تعلن عن نفسها والليل يتمدد. «هن الشتاء وصيفهن شتاء» هذا الشطر الذي تذكرته وأنا أسلم السيارة إلى عامل الفندق، طلب مني الموظف الانتظار ريثما تجهز لي الغرفة. هاتفها لا يزال مغلقاً. خرجت وأشعل لي عامل الشنط سيجارة وأخذ مني أخرى. منذ ما يزيد عن الثلاثة أعوام لم آتِ إلى بيروت، تحديداً من بعد حرب حزب الله مع إسرائيل، الشارع لم يتغير كثيراً، أبواق السيارت وأصحاب سيارات الأجرة ينادون على المارة، زادت المطاعم وازداد عدد المشاة وأغلبهم من الشباب. تحدث لي عن عودة السياحة وأنا أرتفع ببصري وأمشط طوابق الفندق نافذة نافذة أحاول تخمين غرفتها.
خاطرة أزعجتني: وماذا لو أنها قصدت فندقاً آخر؟ خيل إليّ أن هذا المشهد معادٌ وأني عشته من قبل. أطفأت هاتفي وشغلته،

فانهمرت الرسائل. سحقت السيجارة تحت قدمي وأسرعت مخترقاً البهو نحو المصعد في آخره. ناداني الموظف من وراء الاستقبال وهو يرفع يده بمفتاح غرفتي يبدو أنها جاهزة. أشرتُ نحو الأعلى وأنا أخبره بأنني صاعد إلى المطعم لتناول العشاء وأعود بعده لاستلامه. نظرت إلى رسائل الهاتف مرة أخرى والمصعد يتجه إلى الطابق الحادي عشر، مررت على رسائل من عمي ويوسف وآخرين. أعدت قراءة الرسالة التي جعلتني أسرع نحو الأعلى، احتوت أربعة أرقام فقط: 1141.

12

فصل: الغرفة 1141

طرقت الباب طرقات خفيفة، فلم يجبني أحد. تلفتُّ يمنة ويسرة لا أريد أن يلمحني أحد العاملين فيسألني وأدخل في جدل يطول. أعدت طرق الباب، سمعت صوت الماء في الحمام فتبعه صوت زحزحة شيء ثقيل، دار القفل، فتح الباب قليلاً، وظهرت عيناها من خلفه، دفعت الباب، فصارت خلفه وما أن دخلت حتى أقفلته وأعادت كنبة وضعتها خلفه. الإضاءة شحيحة وتكاد تكون معدومة. تشبثت بي ورجعت لنشيج يبدو أنه توقف قليلاً. حملتها إلى السرير، وضعتها عليه، ألصقت وجهها بصدري، حاولت إبعاده لأنظر إليها لم تستسلم فرضخت لها. شعرها الأسود الفاحم الذي غيبت يدي به مراراً لم يعُد له أي أثر، صار قصيراً بالكاد قد خرج من منابته، مررتُ يدي عليه فلمست انتفاخات قرب أذنها وفي المنتصف. احتضنتها بقوة، فلساني فقد القدرة على النطق ولا أريدها أن ترى دمعتي. الأسئلة المعلقة منذ زمن دون إجابة انضمَّت إليها أسئلة جديدة أكثر مرارة، ماذا حدث أثناء الغياب؟ جسدي اشتعل ناراً ولبستني حرارة فقمتُ وخلعت الجاكيت وعلقتها وعدت

إليها. لمحت قنينة فودكا على الطاولة بجانبها وحولها علب عصير ليمون بعضها فارغ. تضاربت الجمل في رأسي، اندسست في اللحاف.

«**لا تتحدث . . احضني**».

امتثلت، تمدَّدت خلفها على جنبي الشمال، فاقتربت مني أكثر، التصقت، بدا تنفسها مضطرباً. ترجع إلى النشيج.

«**ما بك؟**».

لم ترد، أكره الصمت. أنا بقربها بعدما فقدت الأمل في رؤيتها مجدداً. والآن بعدما وجدتها تتحول إلى حجر يبكي ولا يردّ. حاولت قلبها فاستعصت. فجأة جلست وأسندت ظهرها إلى تاج السرير. من خلال الضوء الشحيح تبينت بقعة تخلو من الشعر في رأسها. نطقت شفتاها بعد صيام.

«**افتقدتك يا بسام، لن تتخيل ما مررت به، أنا خائفة**».

صرت أتفرّس بوجهها، صار أنحف قليلاً، خدها اليمين بارز وبقعة زرقاء صغيرة عليه. رأسي في حجرها، مددت يدي أتحسس وجهها، أمسكت بها وصارت تقبل أناملي وتشمّ يدي.

«**في تلك الأيام التي ابتعدت فيها عنك، تعمدت أن أغلق كل الطرق التي تقودك إليّ. كم من مرة أعزم أن أعود وأتصل بك، لكنني أتوقف في اللحظة الأخيرة. يا بسام كل المصائب تكمن في القليل الذي لم أخبرك عنه. .**».

نظرت إلى النافذة التي تحتلّ مساحة الحائط نحو الليل الذي انسدل. على غير العادة وما هو معروف، يحيلني ليل بيروت إلى

شيء من الخوف. أضواء جونيه من بعيد تتلألأ وتتراقص كحلم. عدت ببصري نحوها ثانية. أجمل منها قط لم ترَ عيني حتى وهي بهذه الحال. بدأت بالحديث، واستمرّت تحكي وتحكي. عندما انتهت، اكتملت الصورة الناقصة. تسلَّل كلّ خوفها إليّ، جمدت كصنم، جرَّتني من ياقتي نحو فمها. قبلتني، ريقها أعاد الصنم إنساناً.

إذا لـم تحصل في هذه الحياة على شخص يصدِّقك إن قلت له: لقد طرتُ وحلقت في السماء، فأغلب الظنّ أنك لم تجد فيها من يُحبك. لم أصدق النحافة التي بدا بها وجه بسام عندما فتحتُ له باب غرفة الفندق. كنت متردِّدة وغير واثقة من قدومه إلى بيروت. لم أخفِ عنه في ما مضى إلا القليل وأضمرت بأنه سيعرفه من خلال فضوله، فديرتنا صغيرة والسؤال يقود الناس إلى حيث يريدون وما لا يريدون. لمَّحت له أنني مررت بتجربة زواج ولم يعرف أكثر من ذلك. في بيروت أخبرته، رويت قصة زواجي، وكيف تعرفت على مجبل في حفل تخرّج أخي الذي استشهد أثناء مطاردة تاجر مخدرات عندما انقلبت به سيارة شرطة يقودها وهوى من فوق جسر. في ذلك الحفل بدا مجبل وسيماً للغاية ومنظره بالبزّة الرسمية رجولي ومغرٍ. فترة التعارف كانت وجيزة عرفت خلالها كل شيء عنه حتى خصاله القبيحة، كان يريد أن يبدأ من جديد، ويرمي حياة اللهو السابقة وراءه. زفاف بسيط ورحلة كروز جابت البحر المتوسط أمست بوابة إلى عالم سعيد يناقض كل ما يقال عن الزواج. رومانسية أسطورية تبدأ منذ استيقاظه إلى أن أغمض عيني.. فيغمض عينيه. جاء انتفاخ بطني خبراً أشاع الفرح في العائلة بعد وفاة أخي بشهرين. المواليد يجدِّدون الحياة وينسون

الناس الموت، ترقّبه بلهفة تفوقني. خرج الوليد إلى الدنيا هزيلاً، تصفعه الأمراض، مرضاً تلو آخر. أخبرنا الأطباء باستحالة حياته. شهور معدودة وباتت كل الصور التي التقطناها له ذكريات مبكية. في المقبرة أهيل عليه التراب، دفناه ودفنت معه رغبتي في الحياة، حاول مجبل أن يساعدني وينتشلني من السواد الذي وقعت فيه. لأول مرة يسخر القدر مني بهذا القدر، لماذا انتقى الموت مولودي البكر، وترك كل أولئك الأطفال لآبائهم؟ قال لي الجميع وهو ردَّد خلفهم: ابتلاء! لماذا أنا من أُبتلى ويُتركون هم دون ابتلاء؟ أنظر إلى السماء وأصرخ رافعة يدي نحوها، لماذا لم تأخذني أنا وتتركه؟ هل لموته فائدة على البشر؟ وهل حياته ستنقص من عمر أحد؟ طاف بي على عدة مشايخ، شعرت بلمسات أحدهم تتجه نحو أماكن جعلتني أصفعه فردّ عليّ: مثلك لا تستحق أن تُرزق بأطفال! وقال لزوجي أنني أتحرش به. لم يصدّقه ولم يصدقني، بدأ ينفصل عن عالمي ولم ألمه وتركته لما يريد. اتجه نحو أصدقائه ودار في فلك أسوئهم. يعود عند انتصاف الليل أو قرب الفجر بخطوات مترنحة ورائحة تقرفني، عندما أمتنع عنه يسوق لي آيات وأحاديث لا تقنعني، أمتنع أكثر فيضربني بقسوة، ويهزني ويهتز ويهمد بجانبي ويتركني أحلم بالموت. مرة طلب مني الاستعداد للذهاب إلى حفلة يقيمها أصدقاؤه في شاليه أحدهم، ألحَّ علي بغرابة واقترح عليّ لباساً ما كان يرضى سابقاً بأن ألبسه لضيقه، رضخت في النهاية وقادني عبر طريق طويل إلى هناك لم يكن شاليهاً، بل استراحة في المزارع! منذ وصلنا رأيت المركبات التي

اصطفت خارجاً والبذخ يعلن نفسه في كل تفصيل؛ حول حوض السباحة توزع رفاقه مع فتيات بعضهن زوجات وأخريات لسن كذلك، وجه واحدة منهن بدا مألوفاً تذكرتُ لاحقاً أنها زميلة في الكلية وأنها تعمل في العلاقات العامة براتب مجزٍ، كل العيون كانت عليها أيام الجامعة والفتيان يحفونها من كل جانب. الموسيقى تعلو والخصور تتلوى. المشروب في كل مكان، ألحَّ علي بالشرب فرفضت، وقبلت بأن أمسك بالكأس كي لا يكون منظره بشعاً أمام رفاقه. يدخلون إلى غرف ويخرجون. أتى أحدهم، التصق بي، همس في أذني يدعوني وعندما رفضت أن أنساق لرغباته صفعني. ناديته لينجدني فلم أجده، فتحت أحد الأبواب فوجدته مع فتاة الجامعة، أخذت المفاتيح وركضت نحو السيارة، منذ ذلك اليوم لم أره. طلبت الطلاق مراراً فرفض، لم ألجأ إلى المحاكم. بعد أشهر قبلت للعمل في إدارة بسام، بدأت في نسيان مجبل وإخراجه من حياتي وكذلك فعل هو، كأن لم أكن في حياته وكل ما كان مجرد كابوس وانجلى. قدرة الإنسان على النسيان عظيمة مهما أنكرها. وجدت بسام طوق نجاة؛ دائماً يردِّد لي بأنني جعلت منه إنساناً آخر ولا يلتفت لي عندما أخبره بأنه أعادني إلى الحياة من جديد بعدما علقت في برزخ. بعد حادثة استقالتي بسبب مواقفي السياسية. ذهبت للعمل في شركة استثمارية. عاد مجبل من الماضي بعدما توارى واختفى. وجدته يضع رجلاً على رجل، وسامته صارت شيطانية. يريدني أن أرجع. الرعب الذي زرعه فيَّ أثمر. رفضي تضاءل أمام إصراره وحديث أمي لي بأنه حدّثها عن التغيير الذي

طرأ في حياته. تعاظم نفوذه في العمل والسلطة التي منحت له تمدَّدت. أرخى لي حبال الكلام، فانسحبت نحوه، وسلمت قيادي له، أعادني في لمحات للحظات سعادة عشناها سوية وروقان أريده. هو متأرجح بين شخصيتين. يده لم تضرب، لكنها هددت، ثم امتدت. بدأ يطلب طلبات غير سوية تعذرت بأعذار شتى. يريدني بطلة لخيالاته المريضة. زاد رفضي. عاد للاختفاء، تلاشى لأيام ظننتها ستطول، لكنه عاد، يقتحم الشركة ويفتح باب مكتبي ويصرخ بأي زميل يجده معي، بل مرة اشتبك مع أحدهم. قدمت استقالتي خوف الفضيحة، لم أهتم بوظيفة، فتحويله المال لي شهرياً لم ينقطع، وعلاقاته تسحب أوراقي بهدوء عندما أتقدم لوظيفة وأعود إلى نقطة الصفر. كم من مرة فكرت بأن أتصل ببسام وأستنجد به، لكني خفت عليه من مواجهة هذا الوحش. ليلة حادثة ديوان الصليبيخات، كنت أغلي غضباً من مشاهد الضرب، وشرعت في كتابة مقالة لم أترك بها أحداً إلا ونلت منه، جفلت من صوت الباب وهو يدخل. لا أعرف كيف استطاع دخول منزلنا، كل الأبواب مقفلة ولا أحد غيري في البيت فأمي مسافرة إلى دبي مع صديقاتها. وقف أمامي، لم يكن به أي ملمح من ذلك الرجل الذي عرفته، تحوّلت ملامحه إلى وحش. ووضع ورقة في وجهي، ظننتها ورقة طلاق. نظرت إليها، مليئة بأرقام هواتف وحول بعضها دوائر حمراء. قبل أن أتبيّنها بدأ بضربي، سحبت الورقة من يده فازداد الضرب. اللكمة الأولى فجرت آلاماً في كل جسدي فحجبت كل ما تلاها من لكمات. صرخ بأنه يعرف كل شيء عن علاقاتي وعن

ذلك الرجل الذي أحدثه كثيراً. أخبرته بأن الرقم يعود إلى ابن عم أحد زملائي المدونين وبيننا نقاشات سياسية لا غير، لم يلتفت لي، خرج وهو يقول بأنه سينتقم منه ويعود ليذبحني. اتصلت بنواف لأحذره رنّ هاتفه ثم أغلق بوجهي وبعدها أطفئ وصار مغلقاً. أمسكت بالورقة بحثت عن رقم بسام لم أجده، تذكرت أن هذا هاتف جديد والقديم أغلقته منذ عام، ارتحت. لم أعرف ماذا أفعل، هل أذهب إلى الشرطة؟ سيكون مجبل في انتظاري.. هل ألجأ إلى بسام ليخلصني؟ عاد بعد دقائق، قبل أن أتحرك من مكاني، سحبني من رأسي وأنزلني إلى السيارة وهو ينعتني بأقذر الأوصاف. انطلق بي إلى منطقة المهبولة، حيث العمارات متشابهة. وشوارع غير مرصوفة، لا أذكر لماذا تجمدت طوال الطريق؟ لم أفكر بالاستغاثة بمن نتوقف بقربهم عند الإشارات. عندما فتح باب الشقة، رفسني إلى الداخل، سحبني إلى غرفة مخزن صغيرة. أقفل علي الباب وولجت في عتمة لم أتبين بها يدي. الرعب شلّ لساني. جلست، رجلي تلامس الحائط من الضيق. بدأ شعور الاختناق يحكم قبضته على عنقي. شرعت بالصراخ، رجعت إلى الحياة بعد شلل. طرقت الباب، ناديته، رجوته أن يطلقني، سأفعل ما يشاء وكيفما شاء فقط أريد الخروج، انهرت وعاد الهدوء. ألصقت أذني على الباب لم أسمع صوتاً. ترعبني الأماكن المظلمة والضيقة. فيها، أغدو عمياء لا أبصر راحة يدي، كل حواسي أستطيع الاستغناء عنها عدا البصر، أكره العمى. حادثة مصعد المواقف قرب العمل الذي توقف بي محفورة في

ذاكرتي. منظر رجال المطافئ وهم ينظرون إلى البقعة التي صارت تحتي لم أنسها. في تلك الغرفة حاولت أن أقاوم وأمتنع فلم أستطع، بللت نفسي. بكيت بكاء طفلة صغيرة تركتها والدتها يوماً في منزل لا يوجد فيه غير خادمة كبيرة في السن نامت باكراً وسائق يرمقها بنظرة ذئب. فتح الباب، أغشاني النور قبل أن أراه، رمى بقنينة ماء كبيرة على رأسي، حاولت أن أتلافاها، لكنها جاءت في منتصف جبهتي، أغشي عليّ. عندما أَفَقْت لم أعرف كم لبثت، إلى جانبي قنينة الماء بللت ريقي. خفت أن يطول بي المقام. رجع الرعب ورجع البلل مرة أخرى. رائحة الغرفة لا تطاق، استشطت غضباً أضرب الباب بكل قوتي، أصفع وجهي. أنطوي وأبكي. يمر خيال بسام في ذاكرتي، لم أرَ منه إلا كل جميل، لماذا الحياة ليست عادلة؟ فتح الباب مجدداً، كنت مستلقية على الأرض ملتفة أحاول تجنب البلل. وصف عيني اللتين حدقتا به بعيني بومة، جرني من شعري خارجاً، رماني على الأرض ووثب فوقي، وضع مقصّاً عند عنقي وهددني إن صرخت فسيغرسه فيّ ولن يبالي لأنني لست أول ضحية له. هل صار قاتلاً؟ لا أدري، هو مجنون لا شك. ربط يدي من الخلف بحبل وأخذ يقص شعري، هززت رأسي أحاول المقاومة، عندها، دفعني من مؤخرة رأسي، فارتطم أنفي بالأرض وسالت الدماء منه. من ماذا ينتقم؟ لم أقم علاقة جسدية مع أحد! هل هذه عدالة الحياة وأنا الآن أدفع بطريق غير مباشر ثمن علاقتي ببسام؟ الدنيا الحقيرة لا تملّ من الانتقام منا. تمنّيت الموت، الذي هرب مني، الموت جبان! للحظة بدا لي كل

شي كمشهد من فيلم، لعبة، ستنتهي بأن أدفن في مكان مجهول وقد لا يجدني أحد إلى الأبد! لماذا لا تنتقم منه الدنيا أيضاً؟ لماذا هي مشغولة بمطاردة أمثالي فقط؟ أكمل قصَّه لشعري وكلما قصّ خصلة أخذ يرميها في وجهي وتسقط على بقع الدماء. قام وأحضر كرسياً، ربطني به بحبل وشدّ الوثاق، واستكمل القص، صرت أنظر في وجهه، يغشاه فرح طفل يستمتع بتدمير لعبه. أخرج هاتفه من جيبه، وضع شاشته قرب عيني، وفتح صورة بحجم الشاشة عليّ. لم أتعرف بها على وجهه الأسمر في الصورة بسهولة، لقد حلق نصف شنبه والكدمات بعثرت ملامحه ووجه مجبل بجانبه يبتسم كمعتوه، صرخت عالياً، ضربني كفّاً، أدخل أصابعه في فمي وأمسك لساني، ووعدني بأنه سيقصه في النهاية لينتهي عن الحديث مع الآخرين، فلساني هو سبب كل بلاء. وقعت بين يدي مجنون. يتركني ويخرج ويعود بعد ساعات، تفترسني خلالها الهلاوس والكوابيس، أرى طائر بوم يأتي ويحملني بمخالبه من هنا ويرميني لأسقط من علٍ بهدوء فيتلقفني بسام ويضعني على الثلج ثم يهيله علي دون أن أغضب. عندما يجلس ليدخن، أشغل نفسي بالتفكير بالهرب، أراني ممسكة بسكين وأطعنه فلا أبقي منه شبراً دون أثر طعنة وأخرج أسلم نفسي للشرطة. عندما يخرج يتملكني رعب وأشلّ وكلما فكرت بشيء يخيّل إلي أن الباب سيفتح فأغمض عيني خوفاً. في لحظة ما انتبهت إلى أنني أستطيع أن أقف مع انحناءة وأنا مربوطة بالكرسي، حاولت المشي تعثرت وسقطت وقضيت دقائق مرعبة وأنا أحاول الوقوف مرة أخرى. عندما وقفت ثانية

أخذت أمشي إلى الخلف بهدوء، عزمت على أن أرتطم بالجدار بكل قوتي حتى يتحطم الكرسي، استجمعت خطواتي وركضت وانفجر الألم في ظهري وصرخت من التمزق في خاصرتي. لم أستسلم، أريد أن أعيش. رجعت ثانية وركضت نحو الجدار، بدأ الخشب بالتفتت، مع الثالثة صار يتحطم. أفلت منه، لمحت السكين التي كان يهددني بها، أخذت أعرج وظهري يكاد ينقصم ومع كل خطوة يخيّل إليّ أن الباب يفتح، فأجفل. قبضت على السكين وقطعت الحبل الذي اشتد على معصمي. صارت السكين تنزلق من راحتي بسبب العرق فأشد قبضتي عليها لئلا تسقط. وبينما أحاول القطع سيطر عليّ خيال زاد ضربات قلبي تسارعاً؛ رأيته يدخل ويسحب السكين من يدي، يرفعه إلى الأعلى ويهبط بسرعة، يطعنني في صدري، فأسقط جثة على الأرض فيحملني ويرميني من الشرفة. انقطع الحبل، الباب مقفل، وجدت سلكاً معدنياً أدخلته في القفل وأعملت حدّ السكين به، جسدي ينتفض من مجرد تخيلي وجوده خارج الباب عندما أفتحه. صوت المصعد القريب يشلني، أنظر من عين الباب فلا أجد أحداً قبضتي بللها العرق، كل ما تعلمته عن الأقفال بدا مجرد لعب أمام هذا القفل. بعد دقائق ظننتها دهراً، كنت أجرّ رجلي اليُمنى عبر السلالم نزولاً، لم أستخدم المصعد. راقبت الشارع الغارق في الظلمة والصمت. أعرج بين العمارات بلا دليل على الاتجاه الذي أقصده. تذكَّرت رأسي، اقتربت من زجاج مدخل بناية، هالتني الفجوات الخالية من الشعر في رأسي، فداريتها بالخصل الباقية حتى صارت هيئتي أقل

إثارة للشبهات. غذذت الخطى نحو الشارع الرئيس، من ناحية البحر أطلَّت خيوط الفجر، اختبأت خلف عمود أنتظر مرور سيارة أجرة. وجدت واحدة آتية من بعيد، عندما اقتربت لوَّحت لها، توقفت، ارتميت بها وأمليت عليه العنوان، عينا السائق تراقباني من المرآة العاكسة، لا أعرف ما جال في خاطره، ابتسامته غير مريحة. حاولت أن أفتح موضوعاً معه، تحدثت عن حاجتي إلى سائق إن كان لديه قريب يريد القدوم إلى الكويت، وقدرتي على تدبّر أمر قدومه إلى العمل، لم يأخذني على محمل الجد فملابسي ومشيتي لا تسمحان بذلك. نظراته فتحت باب الخيال لأشياء كثيرة، لكنه لم يفعل شيئاً ممّا ظننت. عند المنزل أخرجت المفتاح البديل من وراء صندوق الجرائد. صعدت بسرعة، أخذت مالاً ونزلت، رميته له ثم رجعت وأنا أعدو إلى غرفتي. نبضات قلبي كقرع طبل، سوف يجدني مجبل لا محالة وينحرني في الشارع. اغتسلت بماء دافئ لأهدأ، قصصتُ ما تبقى من شعري ورتبته، أخرجت أصغر حقائبي، دسستُ فيها كل ما أحتاجه، أخفيت بالمكياج كل ما استطعت إخفاءه، ارتديت حجاباً وشددته على رأسي ووضعت نظارات شمسية كبيرة العدسات، وأخذت مفاتيح سيارة أمي وقصدت المطار، صرت أضرب بأصبعي على صدري، أحتاج إلى نبضات قلبها، أرسلت رسالة لها بأنني سأسافر مع صديقة ليومين وأنني اضطررت للذهاب بسيارتها إلى المطار. لم أحسم الجهة التي سأسافر إليها، اخترت أقرب الرحلات. حجز لي الموظف مقعداً إلى بيروت. هناك أفكِّر في جهة أخرى، جلّ تفكيري

محصور في الخروج من جدران بلد تضيق من حولي. جررت حقيبتي، اجتزت التفتيش ووجوه المفتشين والشرطة كلها صارت كوجه مجبل. اتصلت ببسام، رن هاتفه حتى صمت، أرسلت له رسالة. قبل دخولي الطائرة تفحَّصت هاتفي فتبينت عدة مكالمات منه لم أرد عليها، أجَّلت الاتصال به حتى جلست على مقعد الطائرة وأغلق بابها، مع بداية صوت إرشادات السلامة على الطائرة اتصلت، حاول أن يستعلم أكثر فأنهيت المكالمة. استجمعت كل ثقة بقيت وأخرجتها في ابتسامة مصطنعة تحولت حقيقية عندما غادرت الطائرة الأرض وتحرَّرت من الجاذبية. لو سقطت بي الطائرة ألف مرة فلن يحرك ذلك بي شيئاً، بل سأنظر من النافذة نحو الأرض بابتسامة، لن نموت إن وجدنا مكاناً لنا في قلب حيٍّ.

وكيل النيابة

الفجر الأزرق بدأ يطلّ، كنت متوقفاً عند الإشارة الحمراء، أحلم بالفراش ونومة حتى الظهيرة عندما اتصل بي سكرتيري، أخبرني أن المحقق يريدني في مكتبي لأمر مهم. لم أكن أنوي العودة، بحثتُ عن رقم هاتفه واتصلت به علَّ الاتصال يكفيني الرجوع. ردّ وصوته يلهث، ولأنني أعرفه عن قرب، لم أهتم بلهاثه فلم يكن من جهد بدني، بل بسبب جيوب أنفية مزمنة. ما سمعته منه جعلني ألهث وأنا أصعد إلى مكتبي في الدور الثالث. انتظرته حتى جاء. طلب ماء، أخرجت من الثلاجة خلفي قنينة صغيرة وضعتها أمامه، وأعاد عليّ ما جرى. قال:

عندما وصلني طلب إلقاء القبض، وضعناه ضمن طلبات إلقاء القبض الأخرى، جاءتنا دورية، وأفرادها يدفعون ثلاثة من البنغال أحدهم مخمور ويصرخ على أفراد الشرطة يهددهم بكفيله المتنفذ! أخبرني الشرطي بأن البنغالي قد عرض عليهم رشوة ليدعوه وشأنه. لم أتمالك أعصابي، صفعته كفاً، تبلد ثم عاد إلى ضجيجه فمنحته كفاً ثانية وثالثة. أمرتهم أن يرموه في غرفة ضيقة نستخدمها حبساً في الضرورة، قبل أن يدخله طلبت منهم أن يأتوا بمحفظته. فجاء بها الشرطي. هي من نوعية جيدة وغريب أن يمتلكها مثله، عندما تفحصت بطاقته المدنية، الاسم قد قرأته قبلاً، على الفور تذكرت طلب إلقاء القبض، طابقت الاسمين فإذ هما لشخص واحد.. أمين مياه غلام. وقع بيدي ابن الحرام ولن أفلته. فتحت الباب وإذ هو مقيَّد ومستلق على الأرض. عندما رآني كاد يرجع إلى صراخه، لم يفعل فقد جحظت عيناه عندما رأى العصا في يدي، لم أتركه يسترحم طفقت أضربه وصار يتقلب يمنة ويسرة. تعبت من الضرب، بكى كطفل صغير، ندّت منه جملة لم أفهمها، طلبت منه إعادتها. لم يذعن فاستأنفت الضرب، صارت جملته أوضح. أنا لم أقتله! طلبت منهم إحضاره إلى المكتب. عاد لبعض عناده، ظِلّ العصا أطلق لسانه مجدداً، رائحة الكحول من فمه لا تُطاق، سددت أنفي، وتركته يهذي.. اعترف.

أتيت إلى الكويت لأعمل في شركة نظافة، مرت الأيام بسرعة، رأيت حلمي يتحول إلى كابوس فراتبي الذي أستلمه كل بضعة أشهر منقوصاً لم يكفِ لسد القرض الذي أتيت به إلى الكويت فكيف أعيل به عدة عوائل في بنغلادش؟ مارست كل مهنة استطعتها وانتهيت بالعمل في استراحة بمنطقة المزارع منذ ست سنوات، يملكها رجل متنفذ. العمل مريح جداً، وغرفتي أفضل من غرفة الصفيح التي عشت بها محاطاً بالخراف. مرتادو الاستراحة قليلون جداً وهم متنفذون أيضاً ويستبدلون ملابس الشرطة في إحدى الغرف الموجودة ويخرجون ببنطلونات أو دشاديش فأناولهم رؤوس الشيشة التي حضرتها لهم. في ليالي نهاية الأسبوع تأتي الفتيات إلى هناك، أجمل الفتيات حتى أن ليلي في الأيام اللاحقة ينقضي وأنا أختار من سأتخيل منهن قبل النوم. قمت على خدمتهم، حفظت النكات التي ينفجرون عقبها ضاحكين، يحبون أن أقلد لهجتهم بكلام فاحش. تعلمت مزج المشروبات الكحولية وأختلس شرب بضعة كؤوس كلما قدرت على ذلك وآخر الليل أخبئ قنينة لأبيعها ولا يلحظون ذلك فالكل منتشٍ وتسمع تأوهاتهم من خلف الأبواب. صرت طفلهم المدلل، يوجد عاملان غيري، لكني المميز الذي يتردَّد اسمه في كلّ وقت والأموال تُرمى عليّ في كل حين. في أيام الأسبوع العادية أراهم يحضرون رجالاً

يدخلونهم إلى الغرفة الوحيدة التي لا يسمحون لي بدخولها. هم يظنون أنني لم أدخلها قبلاً ولا أعلم ماذا يدور بها، لكنني دخلت وعرفت، ولأنني عرفت زاد خوفي منهم. قبل أسبوع أتوا برجل، ونادوني للدخول، افتعلت أنني أدخل الغرفة لأول مرة، طلب مني أن أثبت رأسه حتى يحلق شاربه، حلق نصفه ثم خرجت. رجعت إلى غرفتي وتجرعت من قنينة خبأتها تحت سريري حتى أحسستُ بالراحة. بعد يوم طلبوا مني إحضار شرشف فأتيت بواحد ودخلت الغرفة للمرة الثانية كان الرجل مستلقياً على الأرض دون أي حراك، اختلست نظرة إلى وجوههم، أعيُنهم لا تستقر وحركات يدهم عصبية. أيقنت أنه ميت عندما طلبا مني أن ألفّه بالشرشف حتى صار مثل المومياء في الأفلام. حملاه معي إلى السيارة ووضعناه في صندوقها. سرنا لنصف ساعة ثم سلكنا طريقاً ترابياً، ولما ابتعدنا وصار الشارع لا يُرى. توقفنا، نزلنا، فتح لي صندوق السيارة، أخرج من الصندوق رفشاً، ناوله لي وأمرني بالحفر، التربة يابسة، حرّ شديد، التصقت ملابسي بي. تعبت فصرخا بي أكمل فأكملت. ينظران إليّ وهما ينفثان الدخان. صارت حفرة عميقة، وصدري يعلو ويهبط ونفسي بات قصيراً، قفز أحدهما إلى الحفرة سحب مني الرفش وجعلها أعمق، كلما أخرج رملاً يسبّ مسبات لا حصر لها. والآخر كلما سمعه أشعل سيجارة أخرى. حملت معهما المومياء ووضعناها في الحفرة، وتركاني أهيل التراب عليها وأساوي الأرض. أتاني أحدهما وأمسكني من أذني، شدها، كادت تنخلع، قرب وجهي من وجهه وهددني إن تفوهت بكلمة عمّا شاهدت فسيكون مصيري مثله. حلفت بأغلظ الأيمان بأن لديّ

أطفالاً أحبهم ولا أريد أن أموت. مروا بالسيارة فوق القبر مراراً حتى لم يتبقَّ أثر. رجعنا للاستراحة ومنحاني مبلغاً كبيراً وقالا لي اذهب إلى المدينة وافعل ما تريد. غمز لي. هناك التقيت بفلبينية اسمها إيفيلين كنت أعرفها.. لكن والله العظيم لم أقتله، لم أقتل أحداً!

13

فصل: كوابيس بيروت

في غرفة فندق يبعد آلاف الكيلومترات عن بلدنا، أنا وهي كما كنا نحلم.. ملتصقين ببعض. الأيام ماكرة. أنا على التخوم، أقف على الخط الفاصل بين الجنة والنار، الواقع والخيال، أي خطوة للأمام ستقودني إلى المجهول. مفترق طرق، وهل حياتي إلا مفترقات طرق لم أبصرها من قبل؟ الآن أنا عند أكبرها. نامت، كأنها لن تستيقظ ثانية، وجلستُ بقربها أحدِّق بها بعينَيْ مَن لن ينام ثانية. رأيت نقباً بين عالم الكوابيس والواقع اندلقت منه المصائب لتحاصرني، هذه المرة في عالم اليقظة! انزلق منه ذلك الذي يطاردني في المنام ووقع عليّ وصرت أسفل منه. وجهه وهو يصرخ بي بات واضحاً جداً، رفع يده وصفعني وهو يصرخ باكياً: قتلتني!! فززتُ من النوم، قمت ناحية النافذة أطالع صبحاً يتنفس من وراء الجبال، كل شيء ساكن. حاسوبها موضوع على الطاولة ومفتوح على الفيسبوك؛ من بين الرسائل وجدت رسائلهما، آخرها يعود لشهر أو اثنين. وضع صورة لبعير على كثبان كصورة ملفه

الشخصي. طالعت الرسائل التي تبادلاها؛ المحتويات تتشابه، شعر نبطي ممزوج بغزل وحوارات عن أحلامه المتواضعة والعادية. يريد أن يبهرها، تارة عن عادات البدو وتقاليدهم، تشاغبه فيثور، وتارة عن رحلاته في صحراء الصمان وصور له هناك. ردودها طريفة كروحها، لم أبتسم لها. دخلت إلى ملفه لأقرأ المزيد، وجدت في خزانة صوره خمسين صورة فتحتها.. وتسمَّرت عيني عليها، فركتهما، قفزت إلى الحمام أغسل وجهي، عدت ونظرت إلى الشاشة مجدداً، عادت الكوابيس تتخايل، الوجه أمامي في الصور هو وجه من كان يأتيني في المنام! تارة حافياً في الصحراء، أو منبطحاً على الرمل، أو أمام مايكروفون في أمسية، أو يمتطي فيلاً في شرق آسيا، كبرت صورة، قرَّبتها أكثر وأكثر هل هو الشبه؟! رجعت إلى ملفه اسمه نواف المجريطي، عزمت الاتصال بمبارك فهو يعرف قبيلته جيداً، اتصلت، هاتفه مغلق، في هذه الساعة سيكون نائماً في مراكش.

إنْ كان نواف الذي تحدَّثت (ن) عنه هو من أراه في كوابيسي فهل مات؟ وكيف أعرف؟ أمسكت بهاتفي مرة أخرى بيد ترتجف، كتبت رسالة طويلة إلى صديقي وكيل النيابة وأرسلتها فلربما لديه النبأ. لم أمتلك بعدها إلا الانتظار، ذرعت الغرفة خلالها مرات لا تحصى، فتحت الميني بار، شربت قنينتي ماء. قلبت القنوات ولم أنتبه لشيء. حاولت أن أشبك هاتفي بالإنترنت فباءت المحاولات بالفشل. النور بدأ يغزو الغرفة، والسكون في الخارج تبدد. أغلقت الستارة، أعود إلى صور الفيسبوك فأجدها هي ذاتها وليست كابوساً

آخر. تذكرت ملابسي وغرفتي التي لم أستلمها. رنّ هاتفي، صرخت (ن) بفزع ففزعت ثم غطت في نومها مجدداً. رددت على المكالمة التي جاءت من هاتف أرضي في الكويت، صوت وكيل النيابة مغلف بالمفاجأة والخوف؛ صدَدْت سيل الأسئلة، شكرته وأخبرته بأني لا أقدر أن أطيل ولا داعي للهلع، أجابني على رسالتي، كلما امتدت جمله تقاربت نبضات قلبي واعتصرني الخوف، مغصٌ الْتَوَت له معدتي، رأيتني أمثل قسراً في فيلم رعب لا سبيل للفكاك منه، انتهى حديثه، رجع إلى الأسئلة، اعتذرت منه بعدما واعدته أن أراه في الكويت قريباً وسيجد إجابات لكل ما يريد. قال لي بأنني لو احتجت إلى أي شيء في بيروت أو حدث أمر ما، يجب أن أتصل به فلديه معارف في السفارة، شكرته. رجعت بقربها، ضممتها من الخلف، عدت إلى عالم الأحلام.

.. جلس على قبر رخامي، عارياً. دماء تنبثق منه، كتَفَ يديه وانحنى إلى الأمام، يروح ويجيء، يهز جذعه كمن يتلو قرآن. اقتربت منه، رفعت وجهه من ذقنه لأتبين ملامحه، لم يكن وجهه هو نواف تماماً، بل إن ملامحه هي أقرب.. لملامحي. أضمرت أن أسأله لماذا؟ أجابني:

«لو كنت أعرف أن طريق النساء يقودني إلى مثل هذه النهاية لما سلكته».

اشتعلت الغيرة فيّ ودفعته، وزعقت به أنذره ألا يتحدث عنها. فهي بقربي وهي ملكي أنا وحدي. من على الأرض نظر إليّ وابتسم ساخراً من كلمة الملكية. أغمضت عيني، ووضعت كفي على صدري، أصلي صلاة الجنازة لعله يختفي..

قد لا أكون سردت ذلك الحلم بتفاصيله فلربما سقط بعضه من ذاكرتي، أو أن هناك زيادات لا أدري أهو قالها أم أنها تسربت إلى عقلي بعدها؟! لذا لن أكتبها. المهم، لم أره في منامي بعدها أبداً.

اعتراف علي. ش

أنا المدعو علي. ش أقرّ وأعترف بأنني كنت شاهداً على تعذيب المدعو ن. م وما جرى كالآتي:

اتصل بي المدعو مجبل قبل خمسة أيام ليخبرني بأنه يشتبه بتاجر خمور يمتلك شحنة مشروبات كحولية كبيرة سيتصرف بها في السوق المحلية خلال أيام ويجب علينا القبض عليه وحمله على الاعتراف بمكان الشحنة. لذا سيكمنون قرب بيته ومن ثم يؤخذ للتحقيق. لمَّح لي مجبل بأنهم لن يأخذوه إلى مبنى الإدارة، بل سيتجهون به إلى مكان آخر خصصناه لنزع الاعترافات من تجار الممنوعات خاصة الذين لا يستجيبون للتحقيق الروتيني. لم أناقشه فالرجل له ماضٍ مشرف وطالما كشف عن مهربين خططوا لإغراق البلد بكميات كبيرة من الممنوعات. اتصل بي لاحقاً المدعو فواز ليخبرني بأن المتهم على وشك الاعتراف. فذهبت إليهما، وعندما دخلت هالتني آثار التعذيب على المتهم، عنيفة على غير العادة ولا يبدو أنهما تدرَّجا فيها كما هو العُرف. تحاشيت النظر في وجهه طويلاً. وأضمرت أنه لربما يكتم الموضع الذي يخبئ فيه شحنته لعظمها. وقد رأيت خلال عملي مَن لا ينطقون ولو سُمناهم العذاب. وقد قال لي فواز بأن المتهم اعترف له بحيازته للممنوعات. تركتهم واتجهت إلى الداخل حيث المجلس الذي

نجتمع به. جاءني مجبل بعد دقائق وجلس، وجهه متورم من الغضب والتوتر قد نال منه. صرت أتحدث معه فينظر في هاتفه كثيراً ولا يعيرني انتباهاً. قررت أن أواجهه بخطئه في ضرب المتهم بهذه الطريقة ودون تدرج إذ قد يتضح أنه اشتباه وقد يكون بريئاً. صار يصرخ عليّ ويقول لي بأنه يعرف عمله ولا يحتاج إلى مَن يعلِّمه. طلب مني العودة لاحقاً لأخذ اعترافاته. خطر ببالي أن ثمة أمراً شخصياً بينه وبين المتهم فقد جرت مثل هذه الحادثة في أوائل سنين عملي هنا. كل الأحداث تتجه إلى كارثة لم أفطن لها آنذاك. بعد يومين اتصل بي فواز وذهبت إليه في الاستراحة الزراعية، دخن سجائر كثيرة قبل أن يتحدث. ثم تكلم ببرود قائلاً بأن ثمة مكروهاً قد حدث لـ ن. م. وجهه وتصرفاته أوحت لي بما يزيد عن المكروه، سألته وطلبت منه المزيد من التوضيحات وضغطت عليه ففجعني بمصيبة مقتل ن. م ودفنه في الصحراء. قمت من فوري فأمسك بي وحلَّفني بالقرابة التي بيننا أن أساعده لكي لا يخرج الموضوع عن السيطرة. ضغطت عليه أكثر فقال بأنه لم يتوقع أن تصل بمجبل الرغبة بالانتقام إلى هذا الحدّ. حلف لي بأنهم قد وجدوا كيساً أزرق به ثلاثة قنانٍ من المشروبات الكحولية في سيارته، ولا يدري إنْ كان للمتهم أم وُضعت من قبل مجبل، فهذه حركة معتادة. العدالة تحتاج إلى المساعدة أحياناً. توقّع فواز أنه تاجر ممنوعات صغير وأن مجبل أخبره بأن المتهم ن. م قد بصق بوجهه عند اعتقاله وتهجَّم عليه لذا يريد تأديبه فصدقه. انكب على رجلي يريد تقبيلها، فواز لم يمضِ على تعيينه في الإدارة سوى أقل من عام، أبعدته عن رجلي وصرت أفكر بالأمر، لم أهتدِ إلى حلّ

وأطرقت مفكراً. فأمسك بيدي وقال: لِمَ لا تدبر تقريراً من دكتور في الأدلة الجنائية من معارفك؟ يبيّن أن المتهم قد توفي لسبب من الأسباب، فهو مجرم في النهاية ويستحق القصاص. لم أنطق بردٍّ فأكمل: يجب أن نستخرج جثته حالاً. خرج من عندي ليناديي على البنغالي الذي سيساعدنا في استخراجه وتركني في حيرة ما بعدها حيرة. بعد دقيقتين دخل فواز وهو يلهث، قال لي إنه لم يعثر على أي أثر للبنغالي وأنه سأل العاملين وقالا إنه متغيب منذ ثلاثة أيام. خرّ فواز على الأرض وصار يهذي بأن مستقبله ضاع بسبب مجبل وبدأ يسبّه. حاولت تهدئته، أخبرته بأنه قد يكون لاهياً هنا أو هناك وسيعود. بيدٍ ترتجف اتصل بالبنغالي فوجد جهازه مغلقاً. صار يهذي ويقول بأن العامل قد ذهب لإبلاغ الشرطة لا محالة. خرج فواز من عندي واتصل بي بعد نصف ساعة ليخبرني بأن هاتف مجبل يرنّ دون ردّ. وأنه في طريقه إلى المطار وسيغادر إلى جهة لم يخبرني بها. اتصلت بعدها بمجبل لم يردّ أيضاً. ترددت ليومين ثم قررت أن آتي للاعتراف بما جرى وأرجو أن يتمّ اعتبار شهادتي هذه تعاوناً مني وألا أعتبر متستراً على الجريمة، فأنا أتيت لأشهد بها دون أي ضغط من أحد.

14

فصل: الليلة الأخيرة

استيقظت، وجدتها قد ارتدت ملابسها ووضعت في أذنيها سماعة موصولة بآيباد، رأتني فابتسمت وهي تهز رأسها طرباً. لم أخبرها آنذاك بما عرفته من الفيسبوك واتصالي بوكيل النيابة.

«هيّا يا وسيم لنحقق أحلامنا، فلدينا هذا اليوم والليلة، وغداً صباحاً أغادر».

قفزتُ فانحلّت الفوطة وصرت عارياً، فضجّت بالضحك، لففت الفوطة مجدداً حول خصري. وجدت بومة صغيرة وقد التفّ حولها شريط لاصق شفاف، تعتمر قبعة زرقاء، تتأبط تحت جناحها كتاباً.

«هل هذه البومة هي التي . .».

لم تدعني أكمل سؤالي، بترته:

«سأخبرك عنها في وقت آخر».

اتصلت بخدمة الغرف، بورقة مالية وابتسامة، جاءني العامل مادّاً مفتاح غرفتي بيد وبالأخرى يجرّ الشنطة، الغرفة بالدور نفسه

1147، مجرد أبواب قليلة تفصل بيننا. تحمَّمت وصنعت كوب شاي، أمسكت به، انتبهت أن الاهتزاز الذي لازمني لعام في يدي اختفى. ارتديت ملابسي، وجدتني أحضرت العطر الذي تحبه ولم أنسه، رششته. طرقت بابها. خرجت، ورغم كل ما صرت أتبينه من زرقة أخفتها بمهارة إلا أنها بدت شمساً في ذلك الحجاب الملون. أمسكت يدها ونزلنا إلى المواقف، وعند شباك تحصيل الخروج قدمت بطاقة الدفع للموظف.

«**ستة آلاف ليرة إذا بتريد..**».

مالت إلى جانبي وسألته:

«**هذا آخر سعر؟ ألا يوجد حسم خاص، أوكازيون.. ولو؟**».

لم يفهم موظف المواقف شيئاً من قهقهتنا ونحن نخرج من السرداب إلى شمس شارع الحمرا. التففنا شمالاً إلى الشارع المؤدي إلى الصنائع طلوعاً وتوقفنا عند مطعم بربر، ركنا السيارة كيفما اتفق وعبرنا الشارع قفزاً، سألتها عمّا تشتهي، فطلبت ممّن يعجن قائلة:

«**صفيحة**» أشارت نحوي «**وأنت؟**» ابتسمت بخبث، تنتظر إجابة تعرفها، ضحكت، لم أخيب ظنها:

«**مي.. تو**».

لتزداد ضحكتها صخباً. إلى فاريا حيث الثلوج. شغلت المسجل فارتفع صوت صباح «غلطان في النمرة» تبادلنا الكوبليهات الغنائية حتى صارت السيارات تنظر إلينا باستهجان. بعد صمت ومسح دموع القهقهات استعدنا أحاديثنا القديمة عن التزلج

ومهاراتنا في الانحدار وأنها تمتلك مهارات تفوق مهاراتي، أحب غرورها فطلبت منها أن تفكر جيداً في بيع بعضه لمن تنقصهم الثقة بالنفس. وصلنا. تبدد حماسنا للتزلج فقررنا الجلوس في مقهى يطلّ على المتزلجين وهم ينحدرون مفعمين بالحياة. سألتها عن ماذا تريد من المقهى، فأعادت لي السؤال بخبث، أجبتها:

«هت شوكلت».

لحظتها توقعت إجابتها فنطقتها أنا ونطقتها هي، متزامنين، كأنما نردد كلمة من لحن نحفظه.

«مي تو».

المقهى مزدحم، عندما حان دوري واستلمت الكوبين، خرجت ولم أجدها على الكرسي الذي تركتها جالسة عليه! تلفتُّ ومددت بصري يميناً وشمالاً ولا أثر لها. وضعتُ الكوبين على الطاولة ومشيت نحو المخرج علَّها قصدت السيارة، في طريقي أبصرت ساحة ثلجية يلعب فيها الأطفال وإذ بطفلين يتابعان فتاة تصنع تمثالاً من الثلج، اقتربت كانت الفتاة (ن).

«والله خفت عليك يا بنت، ماذا تفعلين هنا؟».

أشارت نحو ما بدا أنه طائر من ثلج:

«بومة. .».

ابتسمت:

«يا بومة، لقد برد الهوت شوكلت فقومي».

مشيت خطوتين وتوقعتها ستتبعني، بعد خطوات التفتّ، فإذ

هي مستلقية على الثلج تنظر إلى السماء التي بدت قريبة. رفعت حاجبيها، وأشارت إليّ:

«تعال».

اقتربت منها وجلست على ركبتي بقربها.

«هناك شيء في داخلي يوّترني، لا أعرفه، أمسك بيدي».

مدَّت يدها فأمسكتها وسحبتها لتقف، نفضت عن ظهرها بعض الثلج.

«إحساس داخلي يعصرني لا أعرف ما هو، أردت تبديده فذهبت وصنعت تلك البومة، لا أدري هل كان البوم في حياتي دليل نحس مستمر لم أفطن له، تستطيع أن تلف رقبتها إلى الخلف دون أن تحرك جسدها، ظننت أني مثلها، حسبت أن المصائب تأتي من الجهات الأربع فحسب، لم أدرِ أنها ستسقط على رأسي من السماء. أحببتها كرمز للحكمة فإذ بي أكتشف أني أحببت ما كان ينقصني، كل منا يحب ما يفتقده في هذه الحياة» زفرنا معاً. جلسنا نحتسي الهوت شوكلت بصمت. ثمة أوقات يصير الصمت فيها ألذّ من الكلام. مشينا إلى السيارة وسلكنا أول الدرب الهابط من قمم الثلج.

«لأيام طويلة بعد استقالتي وفراقنا، كدت أجن، عندما أتذكرك وتصير ذكرياتنا كأنها لم تكن واقعاً. تساءلت حينها هل كانت حلماً؟».

لم أكن قد أخبرتها بأحلامي وكوابيسي. أكملت:

«هل حبنا حلم جميل استيقظت منه على هذا العالم المتوحش؟».

بصوت إذاعي، كذلك الصوت الذي يقدِّم برنامج أخبار جهينة الإذاعي، قلت:

«باب من أحب في النوم . .».

لا أقدر على وصف ضحكتها، مالت نحوي وقبَّلتني على خدي، وأكملنا صمتنا. نزلنا من الجبل وعند مفرق التففت شمالاً وسلكت طريق البحر متّجهاً نحو بيروت، صوت ارتطام رأسها بزجاج النافذة أفزعني كأنما ضربته عمداً فلم أكن مسرعاً. توقفت على يمين الشارع، وأمسكت بيدها. وجهها مشبع بدموع نزلت بصمت لم أنتبه إليها إلا الآن.

«إحساس يقبض عليّ، ويكتم أنفاسي، . . قد قتل نواف!».

لم أكن قد قلت لها عن الاتصال الذي جرى بيني وبين صاحبي وكيل النيابة فكيف عرفت؟ شعوري لحظتها لم يكن تعاطفاً معه، بل انقمت صدري ونفخت، مَن يراني ولو من بعيد سيلحظ دماء الغيرة التي احتقنت في وجهي. لا بد أنها رأتها.

«بسام، افهمني، اطمئن، لم أحب أحداً في حياتي كما أحببتك، لا تذهب بعيداً بخيالك، هذا الفتى طيب وبسيط، صار قريباً مني لثلاثة أشهر وخدمني عدة مرات، قد يكون أحبني وللحقيقة وكم من مرة عبَّر لي عن حبه بقصائد من قلبه فلم أجبه، قلبي لم يعرف غيرك، ولن يعرف، أفهمت؟».

لهجتها الصادقة خففت بعضاً من الإحباط الغاضب الذي

اجتاحني، حركت السيارة وعدت إلى طريق بيروت بسرعة تقلّ عن سرعتي الأولى. بعد سكوت تحدّثت عنه وعن لقائها به، وعن طيبته وأنه ضحية لمجتمع لا يمنح فرصاً بالتساوي لأبنائه ثم برّرت ابتعادها عني وقطعها كل اتصال بيني وبينها بدافع خوفها عليّ وأنها لم تكن تريد أن تفسد عليّ حياتي مع نادية. مدَّت يدها فنظرت إلى راحتها البيضاء، مددت يدي، قبَّلتها وغطَّت وجهها براحة يدي. وعاد الصمت، ذهب أغلب ما في صدري وعزمت على إخبارها بشأن نواف في الأيام القادمة. فجأة سألتها:

«أتعلمين ما هي أكثر قصيدة كنت أردِّدها في غيابك؟».

«أعرفها!».

«أتحداك . . ما هي؟».

«ماذا أفادتْني هدايا

أُهدِيَتْ بَعدَ الهلاكْ؟».

أكملناها سوية. . وصوتي يتهدج، شددت على يدها

«كيف التَجَمُّلُ في مَرايا

لا أرى فيها سِواكْ؟

أَخَلَقْتَها حتى ترى

مَن قد خلقتَ لكي تراكْ؟».

عندما انتهينا، قبيل إشارة مرورية في أول السوليدير، بان مبنى جريدة النهار. قالت:

«آسفة على كل شي. . ».

منحتها قبلة ثانية.

اتجهنا إلى الحمرا مباشرة فهي تريد كتباً تصحبهم معها غداً إلى حيث نوت السفر. في الحمرا من مكتبة إلى أخرى، توقفنا في مكتبة بيسان قليلاً. قالت لي إنها تعرف صاحبها الذي لم يكن موجوداً عند وصولنا. تجولنا بين الأرفف. كطفلة في محلّ للعب، تسحب الكتب وتخبرني عن محتواها. وجهها يسترد ألقه الذي أعرفه. ضربت على كتاب.

«اسمع، هذا الكتاب سأشتري لك نسخة منه ويجب أن تقرأه».

نظرت إلى غلاف الكتاب. . المؤمن الصادق.

«كتاب ديني؟! منذ متى؟!».

لم تتركني أكمل نكتتي ولم تكترث، بل أكملت.

«هو لإيريك هوفر وترجمه غازي القصيبي، وأعلم ما ستقول من أنني سميته مرة بمحامي الحكم السعودي ومهمته تجميل صورتهم وbla bla bla، ولن أدافع، قرأته قبل فترة، مهم جداً ويشرح كثيراً كيفية نشوء الحركات الجماهيرية».

أتانا صوت من الخلف، مرحباً بلهجة لبنانية. إنه صاحب المكتبة.

«لم أعرفك بهذا الشال».

مدّت يدها تصافحه ومددت يدي، عرفته بي. ودار حديث

سريع، أشار إلى الكتاب وقال «**يجب أن تقرئي أيضاً (سيكلوجية الجماهير) لغوستاف لوبون لكي تكون الصورة واضحة**».

أمسكت بنسخة من كتاب لوبون تتأملها. عاد بكتابين:

«**منذ فترة يوجد طلب على هذين الكتابين، ونسخهم تكاد تنفد من بيروت**».

لمحت اسم المؤلف، اسمه جين شارب. وعنوانهما فيه شيء عن الدكتاتورية والديمقراطية. سألته عن سبب الإقبال عليهما، فهز رأسه وقال:

«**لا أعرف، لكنها على التأكيد ليست طلبات أفراد، كل طلبية تتراوح بين 15 إلى عشرين نسخة**».

بعدما أخذنا كمية من الكتب أسرت إليّ بأني يجب أن أذكِّرها بأن تشتري حقيبة إضافية. صار صاحبها يحلف بأنه أعطانا حسماً لا مثيل له. قدم لنا محاضرة في السياسة الدولية وأن اشتعال النار في تونس قد يمتدّ في محيط الفقر العربي كما أسماه، لكنه سينطفئ قريباً، فأميركا لا تريد تغيير الأوضاع في المنطقة. شربنا قهوتنا وقبل أن نخرج قلت لها:

«**أهديتني كتباً، وسأهديك واحداً**».

«**ما هو؟**».

تذكرت الكتاب الذي لم يفارقني طوال العام الماضي، نظرت إلى صاحب المكتبة

«أريد نسختين من كل الأسماء لسارماغو؟».

الفندق قريب، عند ناصيته أخذت تنظر إلى مطعم، بدا عليها الجوع. خيَّرتها بينه وبين مطعم أعرفه في السوليدير، اختارت الثاني. لم تكن الحركة في وسط البلد كما كانت سابقاً، أنفار قليلون يمشون في الطريق المؤدي إلى ساحة النجمة. جلسنا في مطعم البلد المنزوي. وقرب انتهائنا من الطعام. مرّ بائع متجول، اقترب وفي يده بالونات زاهية يسألني.

«بالون؟!».

مددت يدي لأنتقي واحداً، انتقيت بالوناً كقلب حب ثم سلمته ورقة مالية وغمزت له ليذهب. قلت لها:

«مدي يدك الشمال..».

نظرت إليّ باستغراب، مدّتها، أمسكت بأصبعها وربطت به الخيط وشددته.

«بعد اليوم، يجب أن يعتني كل واحد منا ببالونه، ولا يتركه للآخرين».

أحب تلك الدمعة التي رأيتها في عينيها ذلك اليوم. كتبت لي في نسختي إهداء. في أول شارع الحمرا توقفت عند مسرح المدينة، لم أجد عرضاً ذا بال. عدنا إلى الفندق لنقضي ليلتنا الأخيرة. لم يفتح باب الغرفة لي، وضعت البطاقة عدة مرات، لكن الضوء الأحمر كان بالمرصاد. طلبت مني البطاقة، أمسكت بها، قرَّبتها من شفتيها، قبلتها، ووضعتها في القفل.. أضاء الضوء الأخضر.

«ماذا أقول؟ ابنة ساراماغو..».

ضوء التلفزيون أنار الغرفة، عندما أغلقت الباب، احتضنتها طويلاً، لم أرد أن أفلتها ولم ترد هي أن تفلت. لم ننتبه للفيلم الذي يعرض على الشاشة إلا في منتصفه. غفونا ولم نغفُ. مثلما بدت الحياة تشرق على محياها، صرت أشعر بأنني أصحو من كابوس انتهى أو كاد.

«**سأفتقدك**».

احتضنتها مجدداً وأخبرتها بأننا لن نفترق إلا لزمن قصير وسآتي إليها هناك ثم لن نفترق ثانية.

«**إذا أتى يوم يفرق بيننا فكن أنت الذي تتأخر**».

في طريق المطار لم أفكر بمن في الكويت، ولا ماذا سأفعل. أيقنت أن بمجرد وصولي سيُحل كل شيء. عند بوابة التفتيش غمزت للضابط فمرَّر لها بالونها من جهاز التفتيش مبتسماً. أوصلتها إلى بوابتها، عانقتها، سارت نحو بوابتها والبالون معلق في مقبض الشنطة خلفها. عندما غابت عن عيني، لم ينقبض قلبي كما كان ينقبض سابقاً عندما تغادرني. جلست على مقعد فتحت نسخة **كل الأسماء** لأقرأ الإهداء، كتبت، «أهديتك نسخة بعد الهلاك الذي في نهايته لم يكن هلاكاً، بل نجاة». بقي على طائرتي ساعتان. قربت الكتاب من أنفي، يعبق بعطرها. محظوظ من يولد مرة، ومحظوظ أكثر من يُعطى الفرصة ليولد أكثر من مرة.

النهاية

توضيح

قراءة هذا التوضيح سيؤدي لفهمٍ أفضل للرواية. عندما تعرفت على بسام لأول مرة في مطعم (كما ورد ذكر لكيفية تعرفي عليه في الرواية) كنت قد سمعت عنه من صديق له، وتوثقت تلك المعرفة مع الوقت حتى صرنا حالياً أصدقاء مقربين. جاءني قبل فترة ليُخبرني بأن لديه قصة حقيقية حدثت له وهو متداخل في أحداثها وتصلح لأن تكون عملاً روائياً. كنت مشغولاً بروايتي الأولى (الطير الأبابيل). سمعت منه ملخّص القصة فلم أصدِّقها لولا ما عهدته فيه من صدق. اقترحت عليه أن يكتبها. أعجبه الاقتراح دون تردد. استفهم مني عن عدة تفاصيل فقط، ودارت عدة حوارات هاتفية وشرع فيها. نسيت أمره لأكثر من شهرين، جاء بعدها يحملها. قرأتها بعناية، في مجملها جيدة ومليئة بالتفاصيل، سجلت ملاحظاتي (والتي كانت كثيرة) أهمها أمران اقترحتهما عليه وهما: أن نستبدل الأسماء في مسوّدته بأسماء أخرى، عندها اختار أن يكون اسمه بسام واختار لها حرف (ن) لسبب لم يُعلمني به. ثم غيرنا سوية باقي الأسماء وأغلب أماكن الأحداث. وتكفلت أنا بكتابة الشخصيات التي وردت في العمل كرواة لوحدها حسب

معرفتي ببعضهم آنذاك وتعرفي عليهم لاحقاً وأيضاً لم أستثنِ خيالي فالرواية كما قلت لبسام ليست نقلاً حرفياً للواقع، بل بناء عالم موازٍ له. ثم أجريت بعض التعديلات على كتابته، أبقيت بعضاً ممّا حذفه وبذلت جهداً لفهم الجمل المشطوبة، وأزلت فصولاً رأيت أن لا أهمية لها كالفصل الذي يتحدث عن تنفيع عمه بمناقصات الوزارة وفصلاً عن ذهاب والده إلى السعودية لتقصي أصول العائلة وفصلاً يحدث في ديوانية العائلة وفصلاً عني. . . إلخ. كل تلك الفصول يستطيع القارئ استنتاجها وتجميعها دون أن ننكبه عناء قراءتها إذ إنني ضمَّنت الأصوات التي كتبتها أهم ما قرأته فيها. تداولنا عدة عناوين للرواية، مثل: إن كنتم للرؤيا تعبرون (وهو العنوان الذي اخترته، لكنه لم يرق لبسام) وسفر الرؤيا والعنوان الحالي (الذي جاء به بسام) بعدها انتقينا غلافها الحالي من عدة أغلفة. فجأة اتصل بي بسام وأخبرني بأنه لا يريد أن يوضع اسمه على الرواية، فهو حساس من دور نادية في الرواية والذي خالف واقعها الحقيقي، حاولت إقناعه بأنها رواية يخالطها خيال كثير فلم أنجح. لذا وعدته ألا يكتب اسمه على الغلاف وأن لا أشير إليه في أي وسيلة إعلامية (وسألتزم بهذا الوعد ما حييت) وأرسلتها للنشر.

في ليلة بين النعاس والنوم، وصلني إيميل من الناشر يبلغني أن الرواية في المطبعة. أغمضت عيني، ماذا لو كان كل ما مرّ من كتابة، وشخوص، بسام، ن، يوسف، وكيل النيابة. . . إلخ، كلهم مجرد وهم ومحض حلم، ماذا لو كان؟!! ليتكم تنبئوني إن كنتم للرؤيا تعبرون.

عبدالوهاب الحمادي

عبد الوهاب الحمادي

لا تقصص رؤياك

«مستلقٍ.. ظلام ولا أثر لأي ضوء. بعد تحديق.. ألمح نقاطاً مضيئة متناهية الصغر، فأستوعب أنها.. السماء، تتراقص النجوم وتتحرك، فجأة ينشقّ الظلام عن وجهٍ.. مألوفٍ مرتعبٍ «سيقتلونني» يصرخ ثم يهيل التراب عليَّ ويردم القبر.. حتى أختنق وأفزع من النوم».



لوحة الغلاف للفنانة مشاعل الفيصل

ISBN 978-9953-68-699-8
9 789953 686998

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com